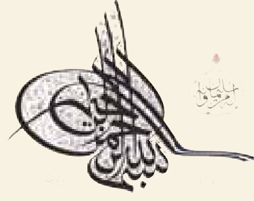
نحو الفجر الأبدي

المحبّة والمعرفة

عثمان نوري طوباش



دار الأرقم





إسطنبول: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

إسطنبول: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

إسم الكتاب باللغة التركية: Ebedî Fecre Doğru / MUHABBET ve MÂRİFET

إسم الكتاب باللغة العربية: نحوالفجر الأبدي، المحبة والمعرفة

الترجمة للعربية: أحمد حمدي يلديريم.

مراجعة وتصحيح وتدقيق: إياد أربكان.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٥٧٥٧

Language: Arabic

تم طباعة هذا الكتاب بموافقة الناشر الأصلي YÜZAKI YAYINCILIK

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم



العنوان:

▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi / Atatürk Bulvarı Haseyad
1. Kısım No: 60/3-C . Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

نحو الفجر الأبدي

المحبة والمعرفة

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي خلق الكائنات كلها بالمحبة، وجعل الإنسان قرة عين هذا الخلق، وزوده بالمعرفة الإلهية وجعلها رفيقه في رحلة الحياة الأبدية.

والصلاة والسلام على رسول الله وسيلة خلقنا، موقد مصابيح المحبة، شمس الهداية ونجم المعرفة وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فمما لا شك فيه أن لكل شيء سببًا، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة في هذا الفضاء العظيم، فلا شيء في هذا الكون دون سبب. كل شيء خُلق لغاية وهدف واضح. حتى الجرثومة الصغيرة لوجودها سبب وحكمة.

أيها الإنسان؟ يا أيها المخلوق الذي خلق لأعظم غاية وسبب! يا أيها المخلوق الفريد من نوعه الذي يمكن أن يكون أقرب مخلوق لله تعالى، أو أبعد مخلوق عن الله تعالى.

وبذلك فإن سبب خلق الإنسان أهم بكثير من سبب خلق غيره. لأنّ الله تعالى قد خلق الإنسان ليكون خليفة له في هذا الوجود. وجعله جوهر المخلوقات، وقرة عين هذا الوجود. وأعطاه مرتبة الحبيب إلى الله تعالى.

وفي هذه الحال فمما ينبغي على الإنسان أن يدركه أنه لم يخلق عبثًا. وأنه لم يرسل إلى هذه الدنيا هملًا، بل أُرسل إلى دار الامتحان في هذه الدنيا بين عالمين أزليين أبديين. وهذه الحقيقة هي ما تؤكده الآية الكريمة:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]



لأن سبب خلقنا والمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقنا عظيمة ومهمة لدرجة أنه حتى السماوات والأرض والجبال قد عجزت عن حملها.

وليس أمام الإنسان من أجل القيام بهذه الوظيفة وأداء هذه الأمانة سوى طريق واحد وهو التشبث بـ "المحبة بابا للمعرفة". وذلك لأنّ "قدرة المحبة" هي طاقة ربانية وهبها الله تعالى لنا لتمكننا من حمل جميع الأعباء الدنيوية والأخروية الملقاة على عاتقنا. وهذا هو المعنى العظيم الذي حاول الحديث عنه وتأكيده مرارًا وتكرارًا "قطب العشق: حضرة مولانا". لأننا المخلوقات الفريدة والوحيدة التي منحت وسيلة العروج إلى السماوات السبع وهي عبارة عن "المحبة والمعرفة".

أمّا من يُرَكّب هذين الجناحين إلى هيئة روحنا فهو وسيلتنا العظيمة وعلاج القلوب وتاج العالمين إنها محبة النبي ﷺ. إذا امتلأ أيُّ قلب "بالحب العارم للنبي ﷺ" فإنّ هذا القلب بعد ذلك ينظر بنور الله تعالى. وفي هذه الحال فإنّ أكثر سؤال ينبغي أن نسأله لأنفسنا هو: "كم نحبه؟ " لأنّ " معرفته ورؤيته وسماعه" ترفع من شأن الإنسان في الدنيا والآخرة، وتقربه من الحق، وتجعله من أهل الجنة. كيف لا يحبه إنسان في رأسه عقل؟ لقد كان "بكاؤه وضحكه وحزنه ودعاؤه من أجلنا". حسنًا ماذا يمكننا أن نفعل من أجله؟ هل نستطيع أن نتجنب السلوكيات التي تحزنه؟ هل نقدر أن نسعى إلى المكارم التي تسعده؟ إلى أي مدى نقتدي بسيرته ونتجه باتجاه أخلاقه العظيمة الجالبة للسعادة؟. إلى أيّ حدّ يمكننا أن نتمسك بالأخلاق العظيمة للنبي ﷺ والتي هي الشفاء الأبدي للاضطراب الذي نعيشه في آخر الزمان.

ومما ينبغي ذكره ولا يسعنا نسيانه أن "الحياة والكون" قد خلقت كرامة له. وقد زين هذا الكون بخزينة أسرار عشقه الذي لا تعرف الانتهاء ولا النفاد. ويمكن القول إنّه بإدراك هذا السّر فإنّ "قراءة الكون تعني قراءة كل شيء".



وهذه القراءة ينبغي أن تكون فقط من أجل النظر إلى "اغتنام الحياة بالشكل الأفضل". لأنّ ما يريده الله تعالى ورسوله ﷺ منا هو شيء واحد وهو أن " نكون عبادًا صالحين".

وفي هذا الصدد وقبل أي شيء فإنّ شرط ذلك هو أن نعيد صياغة "شخصياتنا" بما يتناسب مع شخصيات رفيعة المستوى، ممن ساروا على نهجه من عباد الله الصالحين، من الشخصيات الفذّة التي كانت بحق شخصيات عظيمة ومتميزة. وبهذا الشكل فقط يمكننا أن نكون أهل القلوب. وهكذا فقط يمكن أن ينشأ "بتكامل العقل والقلب". وطبعا في هذه النقطة يجب أن تكون مهمتنا الكبرى من المهد إلى اللحد لنا ولأجيالنا هي مسألة "حاجة العقل والقلب للعلم والتربية". ويجب علينا أن ننتبه إلى أقصى حد إلى تربية أنفسنا بشكل خاص على "النفس والمحاسبة" كما قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]

ينبغي أن يكون " الخلق والأدب الحسن" هو أبرز صفاتنا في كل زمان وفي كل مكان. وحتى نكون قادرين على تسليم روحنا لخالقنا في آخر نفس لنا، ومن أجل أن ننال البشرى الواردة في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]

علينا طوال حياتنا أن ندرك ماهية "الحكمة البالغة من الأضحية"، لأنّ الأضحية ما هي إلا تعبير عن الفداء.

وفي اليوم الذي نعيش فيه حياة عامرة بهذه الخصائص الجميلة والفضائل الروحية فحينئذ سوف ينكشف عدد من تجليات "الفتح المبين" في قلوبنا. لأن "روح الفتح" يعني قبل أي شيء أن تصطحب قلباً لُقّح بجرعة من لقاح آق



شمس الدين فعندئذ سوف يتحول المشهد المظلم من الأرض وترابه إلى أرض الهداية والتعاطف والعدالة مع وجوه الجنة النورانية والفياضة. نسألك اللهم أن تحقق لنا ذلك. آمين.

قراءنا الكرام،

المواضع التي ذكرناها هنا هي أيضا عناوين المقالات التي هي في أعمالنا المتواضعة. وقد تم نشر هذه المقالات أيضا شهريا في "مجلتنا يوزآقي". فهذه المقالات بشكل عام، عبارة عن حوارات أجريت في أوقات مختلفة تم صياغتها في هذه السطور.

نسأل الله ربنا أن يكتب لمجلتنا هذه بركة التسلسل والاستمرار وللكلمات والسطور التي وضعت من أجل الحق والحقيقة فيها بركة التأثير.

يا إلهي! هب لنا جميعاً عمراً فياضاً مستقيماً في رضاك ووفقنا لنعيش هذا العمر في تجليات معرفتك ومحبتك وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين. وبلغنا يا ربنا من المحبة والمعرفة درجة تكون لنا وصالاً بالحبيب في النفس الأخير، وعيداً أبديا في فجر صباح يوم القيامة.

آمين!..



القسم



المعرفة: المحبة

قدرة المحبة

المحبة مسيطرة على كل شيء من الذرة إلى المجرة. من النباتات حتى الحيوانات، من الأحياء حتى ما يعتقد أنها جمادات. المحبة موجودة في كل شيء في هذا العالم حتى الوجود. وهكذا فإنّ المحبة مستمرة في ثمانية عشر ألف عالم.



قوة المحبة

كل شيء حيٌّ بالمحبة...

جاء في الحديث القدسي:

«الإخلاص سِرٌّ من أسراري أودعته قلب مَنْ أحببت من عبادي، لا يطَّلِع عليه مَلَك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده».

إنما يؤتى هذا اللطف الإلهي من مِثل الإخلاص الذي هو سرّ الله من بين الناس إلّا أصحاب محبة الله بالإخلاص. فلفظ "من أحببت من عبادي" الذي مرّ في الحديث يدلّ على ذلك.

وبهذا المعنى فإنّ جميع الأبواب لا تُفتح للإنسان إلا بقدر المحبة والعشق. وحيثما انتهت المحبة فإنّ الإخلاص أيضًا ينتهي، وكذلك الصدق والحضرة والجهد أيضًا. والقلب الذي تكون فيه المحبة حية يكون كل شيء فيه حيًّا أيضا؛ العبادات، وفضائل الأخلاق، والصدقة، والرضا، والراحة الأبدية. ولذلك فقبل كل شيء ينبغي أن تكون المحبة في القلوب كالشمس التي لا يتلاشى نورها، ولا يتزعزع اتساقها وثباتها. وعلى عكس ذلك فإنّ المحبة التي تستهلك كالشمع؛ يستهلك معها الإنسان، ومعاني الجمال كذلك. وهكذا تتحوّل أحيانًا إلى خسارةٍ وإحباطٍ أبديين. ويتحول الإنسان مع هذه العواقب الحزينة إلى إنسان بائس. وهذه القصة التي شرح بها الإمام النقشبندي هذه الحقيقة مثالٌ رائع:



المحبة الزائفة كارثة...

يحكى أنّ شابًا قد جاء إلى باب بنت السلطان معلناً أنّه عاشق لها. وما إن وصل الخبر إلى بنت السلطان حتى جاءت إلى الباب وقالت للشاب: «خذ هذه الألف درهم واذهب، ولا تقل بعد ذلك مثل هذا الكلام الذي سيجلب الأذى لي ولك». وعندما لم يتراجع الشاب عن موقفه قالت له: «ما دام الأمر كذلك خذ ألفي درهم». وعندما وصلت نهاية المساومات إلى عشرة آلاف درهم قبل الشاب. فقالت له بنت السلطان عندما رأت ذلك: «كيف تقول إنك تحبني؟ وقد أعمت النقود بصرك عني! هل تعرف عقوبة من يفضل عليّ امرأة أخرى؟». وعقب ذلك طردت هذا الشاب غير الصادق في حبه والساعي وراء الدنيا من قصرها. وعندما سمع أحد العارفين بالقصة سقط مغشيّا عليه، وحينما أفاق قال:

«أيها الناس؛ انظروا ماذا يحدث للمحبين الزائفين في الدنيا! عجبا ماذا سيحدث يوم القيامة لمن يدّعي حب الله تعالى وهم يتعلقون بغيره؟».

هذه القصة تدلّ على أنّ حياة الإنسان في الحقيقة من بدايتها إلى نهايتها، سواء كان الحب مجازيا أو حقيقيا، هي مليئة بامتحان المحبة الدائمة. لأنّ المحبة هي سرّ خلقتنا كما أنّها حكمة عيشنا. فكما هو معلوم:

المحبة هي رأس مال الوجود...

أحب الله تعالى في عالم الأزل أن يُعرف في القلوب فخلق الخلق بهذه الوسيلة غير محدود ولا معدود. وهكذا خلق الله الدنيا التي هي دار امتحان وخلق جميع الموجودات بقدرته تعالى وأظهر عظيم قدرته. وفي قمة ذلك يقع خلق الإنسان.

وهكذا أصبح الإنسان وسائر الكائنات مرآة للمحبة الإلهية. فالمحبة هي سر خلق كل شيء وهي أيضًا وفرت الاستقرار والطاقة والأمان للكون.



فلهذا تسيطر المحبة على كل شيء من الذرة إلى المجرة. تلمسها في كل شيئ من النباتات إلى الحيوانات، من الكائنات الحية إلى الكائنات التي يظن أنها غير حية تتبدى لك آثار المحبة.

وكذلك الحياة في ثمانية عشر ألف عالم تستمر وتدوم بالمحبة. وخاصة هذه الحقيقة هي الحقيقة العظمى للحياة البشرية. لأن المعاناة والكرب والآلام والكوارث المحيطة بالإنسان وأنواع من الحرمان وما إلى ذلك من المصائب إنما يمكن علاجها بمرهم المحبة، فبذلك يمكن تحويل هذا العالم الفاني إلى سعادة أبدية. وما أجمل كلمات الشاعر:

من أجلك السماء سبع طبقات،
هل هناك مثل محبة؟
لقد وجدت الحياة في الأرض بالمحبة،
هل هناك مثل محبة؟

اسألوا آدم عن حوى،
واسألوا قيس عن ليلى،
واسألوا حضرة مولانا،
هل هناك مثل محبة؟

العبد لا يمكن أن يصُمَّ عن المحبة
فالسر هناك مختلف تماماً
كل ليلة يتم من هناك العروج
هل هناك مثل محبة؟

قم سائلاً سيلاً إلى برعم
أحرق فؤادك ورداً مبتسماً
وقف ناظراً عيناً بعين يا سيري
هل هناك مثل محبة؟ (سيري)



مراحـل المحبة...

فقمة الخَلق الذي تتجلى فيه المحبة هو الإنسان البتة. فإن أكبر غذاء للقلب البشري هو المحبة والعشق الإلهي. ومن هذا الصدد فكلما امتلأت القلوب بمحبة الله سبحانه وتعالى وصلت إلى حكمة في الخلق وإلى طمأنينة وسكينة. وفي نفس الوقت فإن محبة الله سبحانه تشكل القاعدة الأساسية لجميع المحبات المشروعة. وفي رأس هذة المحبة لله تعالى تأتي محبة النبي ﷺ قبل كل شيء. ثم بعدها تأتي محبة أولياء الحق سبحانه وتعالى، ومحبة الوالدين والأولاد وجميع المؤمنين وحتى محبة جيمع الخلق من مقتضى المحبة لله تعالى.

وبسبب هذه المحبة للخلق يغير النبي ﷺ طريقه في خروجه لفتح مكة المكرمة عندما رأى في الطريق كلباً تُرضع جراءها لئلا تفزع من مسير الجيش. وأيضاً قال عندما رأى أحداً يحدُّ سكينه أمام أضحيته منبهاً له:

«**أتريد أن تميتها موتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها**» (الحاكم، المستدرك، ٧٥٦٣)

المحبة تقتضي الرحمة...

أكثر ما يذكر في القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى اسم "الرحمن". ومظهر تجلي هذا الاسم هو الرحمة. والرحمة نتاج المحبة. فإنما يكون القرب الحقيقي من الله سبحانه وتعالى بقدر المحبة والرحمة.

فبناء على ذلك لا بد أولاً من استنارة القلوب بمحبة الله سبحانه وتعالى فمن ثم من اكتسابها لياقة تؤمن لها النيل من الجنة والجمال هناك. فيجب أن يكون الهدف الأساسي لأفق العبودية تحقيق ذلك الأمر.

فإن الله تعالى يحب من بين خلقه الإنسان أكثر من غيره. ولذلك خلقه في الجنة. فمن ثم بعثه إلى الدنيا من أجل الامتحان وأمره بأداء العبودية له طارداً



العوائق النفسية عنه. فمراد الله سبحانه وتعالى في الأخير أن نرجع إلى الجنة والجمال هناك. ولذلك قال في سورة الفجر مخاطباً النفس البشرية:

«ارجعي إلى ربك»، «وادخلي جنتي».

ومما لا شك فيه أن الرجوع الحقيقي إنما يكون إلى الله تعالى. ولكن المقصود هنا أن من يرجع إلى الله تعالى في نهاية الأمر يكون قد رجع إلى الجنة.

تحصيل المحبة...

فكل الأنبياء والأولياء كانوا يعملون من أجل تحصيل المحبة صارفين في ذلك جميع أعمارهم، ساعين من أجل تحقيق الدستور الإلهي السابق ذكره. وفي النتيجة صار كل واحد منهم بطلاً للعالم الروحاني يخلد هذه المحبة. والله سبحانه أرسل كتبه المقدسة وعلى رأسها القرآن الكريم لطفاً وكرماً منه من أجل تكوين عبودية كهذه في ظلال إقليم المحبة. فكل المؤلفات التي كتبها أولياء الحق سبحانه في ضوء القرآن الكريم إنما وضعوها من أجل هذا السر، يعني سر المحبة ومن أجل شرح سر المحبة. فعلى سبيل المثال فإن كتاب مولانا المسمى بمثنوي المكون من ست وعشرين ألف بيت شعري يعتير بمثابة كتاب محبة. كما قال مولانا جلال الدين الرومي:

«أيها العزيز! اعلم أن المحبة هي وصف للحق والعشق أيضاً. فإذا انعدمت المحبة تصبح الشمعة جماداً مثل الحديد.

فإن كنت صخرة أو حجر مرمر، عندما تلحق بصاحب قلب تصبح جوهراً»

ومن المحبةِ تصبح كل المرارات حلوة، ومن المحبة يصبح كل النُّحاسِ ذَهَبًا، ومن المحبةِ تصبح كل الآلام دواء...

ومن المحبة يبعث الميت حيا، ومن المحبة يصبح العبد ملكا.



وهذه المعرفة بدورها نتيجة للمحبة

ومخدوع جزاف القول متى جلس على هذا العرش؟».

المحبة الحقيقية هي المحبة لله تعالى بمحبة يضحى في سبيلها كل عزيز ونفيس من نفس ومال وولد. وهذه المحبة تسمى بالعشق الحقيقي أيضاً، وتقتضي محبة الخلق من أجل خالقهم أيضاً. فنشاهد هذه الحقيقة بشكل مجسد في أنين الجذع لرسول الله ﷺ وظل النبي يخطب وأنين الجذع يزداد وهو يبكي على فراق رسول الله ﷺ

ونلاحظ أن الحيوانات المضطهدة أيضاً تسرع وتلتجئ إلى رسول الله وتبكي وتشتكي أصحابها.

دموع المحبة من جِذْع النخلة...

كان يتكئ النبي ﷺ على جذع النخل عندما كان يخطب الجمعة، فلما كثر عدد الناس، قال أحد الأنصار: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرًا؟، فقال عليه الصلاة والسلام: إن شئتم.. فجعلوا له منبراً. فلما كان يوم الجمعة ومر النبي ﷺ بجانب الجذع الذي كان يستند عليه أثناء الخطبة وتجاوزه وصعد المنبر الجديد وألقى السلام على الناس وأذن المؤذن، ثم بدأ في خطبته وفي أثناء الخطبة سمع الصحابة رضوان الله عليهم أنينًا يشبه أنين الطفل الذي فقد أمه، وأخذ صوت الأنين يرتفع، وأصبح الصحابة يلتفتون يمنة ويسرة ليروا من أين يأتي هذا الأنين.. وإذا بالأنين يصدر من الجذع الذي كان النبي ﷺ يخطب عنده من قبل. وظل النبي يخطب وأنين الجذع يزداد وهو يبكي على فراق رسول الله ﷺ

فانظروا كيف لم يطق الجذع، وهو جماد، أن يصبر على فراق رسول الله ﷺ، فظل صوت أنين الجذع يعلو ويعلو، حتى لم يعد الصحابة يسمعون صوت

رسول الله ﷺ وهو يخطب، فأوقف النبي خطبته ونزل من على المنبر وأقبل على الجذع، وأخذ رسول الله يربت على الجذع؛ ويمسح عليه بيده الشريفة ليهدأ كما تفعل الأم مع طفلها الذي يبكي، حتى أخذ الجذع يهدأ شيئًا فشيئاً إلى أن سكت، وضمه إليه وخاطبه، وخيره بين أن يكون شجرة مثمرة في الدنيا لا تفنى حتى قيام الساعة وبين أن يكون معه في الجنة، فاختار الجذع أن يكون مع النبي في الجنة، وقال النبي ﷺ لأصحابه:

«**لو لم أحتضنه لحنَّ إلى يوم القيامة**» (أحمد، مسند، جـ٤، ص١٠٧/ ٢٢٣٦)

ومن الملفت للنظر أن شجرة النخيل عرضت تجليات شغف الحب كشخص يحن ويئن من ألم الفراق فيصرخ. وما هذا إلى من آثار قوة المحبة.

لاحظ أن هذه القوة هي قوة المحبة التي يلجأ إليها ويحتاجها جيمع الخلق. فمن مظاهر هذه الحقيقة التي حدثت في عصر السعادة ما يلي:

المحبة التي تُهدِّئ الإبل الحزينة...

وقد تجلت رحمة النبي ﷺ بالحيوانات في مواقف كثيرة نقلتها لنا كتب السنة والسيرة النبوية المشرفة، في معجزات باهرات، فها هو النبي ﷺ يسير يومًا في بستان أحد الأنصار، فرآه جمل من بعيد، فحنَّ إليه الجمل وأتاه مسرعًا واقترب منه وهو يبكي، ومال على النبي ﷺ كأنه يحدثه، فمسح رسول الله سراته وذفراه فسكن الجمل، فقال النبي ﷺ:

«**من صاحب الجمل؟**»

فقال شباب من الأنصار: هو لي يا رسول الله، قال النبي ﷺ:

«**أفلا تتقي اللَّهَ في هذه البهيمة التي ملكك اللَّهُ إياها؟، فإنه شكا إلي أنك تُجيعه وتُدئبه**» (أبو داوود، الجهاد، ٢٥٤٩).



وقد اتخذ عباد الله الصالحون الذين هم ورثة الأنبياء مثل هذه الأمثلة العظيمة من المحبة والرحمة التي تجلت في الرسول الكريم ﷺ دستورهم الوحيد في حياتهم. وباعتبارٍ آخر لقد أصبح هؤلاء الأولياء للحق سبحانه وتعالى يشكلون قمة المحبة والرحمة المتوارثة عن النبي ﷺ. وفيما يلي مثال رائع على هذا الأمر من حضرة أبي يزيد أحد أكابر أولياء الحق سبحانه وتعالى:

الشفقة على المخلوقات المسكينة...

وقد كان أبو يزيد البسطامي –رحمه الله– حساساً جداً ودقيقاً في المحبة الإلهية إلى درجة أنه يشعر ويعاني في روحه اضطرابات الخلق كلهم.

ذات يوم شاهد تعرض حمار أمامه للضرب الشديد إلى درجة كان يسيل الدم منه. فعندما شاهد حضرة أبي يزيد البسطامي ذلك بدأ يتسرب الدم منه أيضا تأثرا وألما لما رآه. وواصل أبو يزيد البسطامي –رحمه الله– رحلته بعد أن استراح قليلاً تحت شجرة أثناء الرحلة.

وعندما مضى في طريقه رأى على كيسه نملاً دخل فيه حيث كان يستريح فعاد فورا إلى مكان استراحته حتى لا يحرم النمل من وطنه وأهله، فأعاد النمل إلى مكانه القديم.

هذه هي من مظاهر التعاطف والشفقة التي تقدم للخلق من أجل محبة الخالق. وهذه هي عمق أفق المؤمن المقترب من ربه تعالى. كما ورد الحديث:

«**دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت**» (أحمد، مسند، جـ١٣، ص٨٧/ ٧٦٤٨)

«**بينما كلبٌ يطيف برَكِيّة كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنـزعت موقها فسقته، فغفر لها به**» (البخاري، ٣٤٦٧؛ مسلم، ٢٢٤٥)



ومع ذلك، فمن المهم أن نتذكر أن رحمة الله تكمن أحياناً في الأمور الصغيرة كما أنها تكون أحياناً في القضايا الكبيرة. و هكذا في الوقت نفسه يكون غضب الله على الأمور العظيمة كما يكون على الأخطاء البسيطة. فلذلك يجب علينا وزن أعمالنا وتقييمها بحسب هذه الحقيقة.

ومما لا شك فيه أن السر الذي يعطي الإنسان هذه المرتبة هو المحبة الإلهية. فهذه المحبة هي فرصة للفوز بالسعادة في الدارين. بل هو إكسير إلهي يزهر العبد ويمنحه الشبيبة والحيوية مادة ومعنى. وفي هذا الصدد، كانت الصفة والغاية الأكثر وضوحا في أولياء الحق سبحانه هي المحبة دائما. وفي ذلك يقول حضرة مولانا:

«ولقد مل هذا الماء من ليس بحوته..وطويل هو يوم من لا قوت له منه...».

«وكن جليساً لأهل المعنى، حتى تجد العطاء، كيما تكون فتى».

أهم مظهر من مظاهر المحبة...

أهم مظهر من مظاهر المحبة تطهير القلب مما سوى الله تعالى، وإخراج كل شيءغير الله سبحانه، ولا سيما طموح الدنيا والحسد والحقد والبغض، من القلب بالكلية. فإذا لم يتطهر القلب من هذه الآفات لم تتمكن فيه المحبة. فإن أهل المحبة لا ينجرون وراء السيول الفارغة التي تتكون بالتنافسات الفانية والنفسانية لأهل الدنيا، بل يسعون وراء إقليم الوصال بالعالم غير المتناهي. وبذلك تمضي حياتهم الدنيوية والأخروية بالسعادة والسكينة والطمأنينة. فلا يعانون من الاكتئاب الروحي حتى في أحرج أوقات الأزمات في العالم، فهم يبقون دائما نشطين وشباباً روحياً وقلباً.



نسأل الله تعالى أن يوفقنا لنعيش حياة عشق حقيقي كهؤلاء الأكابر!. وأن تحيى القلوب الجافة جميعاً بعيون المحبة المباركة! وأن يهبنا حياة معمورة بمحاسن الجنة في هذه الحياة الدنيا المليئة بالمصائب والمحن.

آمين!..





قطب العشق

حضرة مولانـــــــــــــــــا

يعرِّف حضرة مولانا الإنسانَ الذي هو عالم عميقو واسع بجميع جوانبه السلبية والإيجابية وصفاته وخصائصه، فيتحدث عنه حسب ذلك. ولهذا السبب يجد الإنسان نفسه في كتابه المثنوي.

"اللهم ارزقني حبك، وحب من أحبك، وحب من يقربني إلى حبك"



قطب العشق

حضرة مولانا

اسمع من الناي...

مما لا شك فيه أن مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله يأتي في مقدمة صفوف كبار أقطاب العشاق، حيث يقول صارخاً كالناي المحترق في صدر مثنويته؛

أنصت إلى الناي يحكي حكايته ....ومن ألم الفراق يبث شكايته

ويقول أيضاً في إحدى رباعيته:

«استمع إلى الناي، فانظر ماذا يحكي. يفشي أسرار الله الخفية. يصرخ صامتًا ساكتًا هادئًا من غير لسان ولا كلام، وقد اصفر وجهه، وفُرّغ جوفه وقطع رأسه أو قد تم تركه إلى نفس عازف الناي فيقول "الله... الله"».

فصرخة العشق من مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي واحتراقه بنار المحبة تنبع من المحبة الإلهية التي لا تفي الحدود بتعريفها. وهو كما يقول يونس أَمْرَه الذي يعيش حالته النفسية تماماً في شعره:

ها أنا جئت بعجب
لا أحد يعرف عن حالي!
أنا أقول وأنا أستمع،
لا أحد يعرف لساني!
لساني أنا منطق الطير،
بلدي أنا بلد الصداقة
أنا العندليب وصديقي الورد،
اعلموا أن وردتي لا تذبل.



ولا شك في أن تجلي العشق يظهر في كل عاشق وعارف بشكل مختلف تماماً. فالكل سعوا إلى الله سبحانه وتعالى بسبب هذا الاختلاف في التجليات من طرق شتى؛ فقد سعى مولانا جلال الدين الرومي في طريق محيط السماع والدوران الذي كان جوفه ممتلئاً بنار المحبة الحارقة؛ ومشى الحسين بن منصور الحلاج في طريق إقليم " أنا الحق " الذي يتلاشى فيه المحب في محبوبه؛ ومضى حضرة بهاء الدين النقشبند في طريق خدمة الحيوانات المريضة والعليلة لسنوات عديدة، وفي رعاية نظافة الشوارع والأزقة لأعوام مديدة والعناية بالمرضى بعلاجهم وقضاء حوائجهم بعد أن اشمئز منهم وتركهم كل من حولهم، فكانت أساليب العارفين مختلفة ولكن غايتهم متحدة: أن يمتلؤوا بالعشق والمحبة... وأن يصلوا إلى مستوى الإحسان بتحويل العلم بالعشق إلى العرفان... وهذا يقتضي بطبيعة الحال شرارة نار سماوية عظيمة.

كما أن توجه مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي إلى أفق العشق الشاسع والذي لا نهاية ولا بداية له بدأ مع شمس، بدر شمس الأفئدة والقلوب. و بعد أن تعرف على شمس الدين التبريزي وأخذ منه إلهامه صار عندليبَ برعمِ الحقيقة، كناي العشق المحترق.

شمس الدين التبريزي ومولانا جلال الدين الرومي....

ذهب مولانا جلال الدين إلى حلب ودمشق لاستكمال تعليمه بعد أن استقرت أسرته في مدينة قونية. وكان عمره حوالي ثلاثين في ذلك الوقت.

وذات يوم كان يمر عبر السوق المزدحمة في دمشق إذ أقبل عليه رجل غريب المنظر مختلف الملبس فقال له:

«أعطني يدك لأقبلها يا صراف العالمين!»



فيتشبث بأيديه ويقبلهما بحماس، ثم فجأة يختفي في الحشد. فيتعجب مولانا جلال الدين الرومي من هذا الحدث المفاجئ ويتساءل "ما هو هذا العمل؟" فيقع في حيرة من أمره. فيصبح هذا الشخص الغامض الغريب لغزاً بالنسبة له.

وعندما كان يتحدث جلال الدين مع طلابه في نهاية محاضرته في مدرسته في قونية بعد سنوات عدة وإذ به يجتمع مرة أخرى مع ذلك الشخص الذي قبل يده في دمشق مخلفا وراءه علامة استفهام كبيرة. هذا الشخص هو شمس التبريزي. وهو أيضا يدخل في محادثة مع جلال الدين الرومي فيسأل هذا السؤال الغريب بإثارة شديدة:

«من منهما أكبر؛ أبو يزيد البسطامي أم حضرة محمد المصطفى ﷺ؟»

يندهش مولانا جلال الدين من هذا السؤال فيصرخ غاضباً:

«ما هذا السؤال؟!. كيف يمكن مقارنة نبي عظيم مبعوث رحمة للعالمين مع ولي لايملك رأس مال سوى تبعيته لهذا النبي العظيم؟».

فبدأ شمس التبريزي يشرح سؤاله هادئاً بكل برودة، فيقول:

«فلماذا يطالب أبو يزيد إذاً ربه ليضعه في جهنم بعد أن يوسع جسده ليستوعب النار فلا يدخلها أحد بعده من المجرمين، هذا من جانب ومن جانب آخر أمام تجل من التجليات الإلهية الصغيرة بدأ يقول: «سبحاني ما أعظم شاني»؛ بينما قال النبي ﷺ مع كل عظمته: **«ما عرفناك حق معرفتك»** فكان بذلك يريد الاستزادة، فيسأل ربه ﷻ أن يزيد عليه نعمه بالرغم من كونه مستغرقاً في التجليات التي لا تحصى ولا تعد، يعنى بعبارة مختصرة كان أبو يزيد البسطامي يكتفي بتجلٍ واحد بينما كان النبي ﷺ لا يشبع من التجليات التي لا تحصى ولا



تعد، ومع ذلك الأول يقول «سبحاني ما أعظم شأني» فاقداً نفسه وماحياً ذاته، بينما الرسول ﷺ يقول: «ما عرفناك يا رب».

هذا التفسير والإيضاح يسحب حضرة مولانا إلى الأسوار الخارجية لحدود العلم الذي يستنير فقط بنور العقل البحت فيوقفه هناك. فيفهم مولانا جلال الدين الرومي أنه من غير الممكن الإجابة على هذا السؤال من خلال البقاء في هذه النقطة. فمن هنا يجذب شمس التبريزي مولانا جلال الدين بشدة الحال إلى ما وراء هذه النقطة. وما وراء هذه النطقة يسمى بعالم اللدنيات الذي لا حُدُودَ لَهُ ولا نهاية. وهكذا أخذ شمس التبريزي بيد مخاطبه إلى رحلة اكتشاف مع سرعة البرق إلى أفق المناخ الروحي الذي لا يدرك أن هذا الأفق موجود فيه.

بتأثير هذا التطور المفاجئ، يعطي حضرة مولانا بسهولة الجواب التالي فكأنه يملي درساً من دروسه السابقة التي كان يحفظها قديماً مما يتعلق بالعلوم الظاهرية فيقول:

«إن أبا يزيد سكر من جرعة واحدة وتحدث حديث الشبع.وامتلأ وعاء إدراكه بهذا القدر من التجلي فطاش عقله فتحدث بكلمات من مثل "ما أعظم شأني!"، "سبحاني سبحاني"، "أنا سلطان السلاطين". وكأنما كان ذلك القدر من النور قدر كوة داره فتم إرواء عطشه الروحي بجرعة من التجلي العادي، فصارت روحه مكتفية بذلك لا تريد أعلاها. فانجر إلى سكر، أما قعر المحيط فلا نهاية له، ولكن كان حجم استيعابه بهذا القدر فاكتفى.

لكن المصطفى ﷺ صار صدره الشريف أرض الله الواسعة مصداقا لقول ربه ﷻ:

﴿ألم نشرح لك صدرك﴾



فلا عجب اذا تحدث عن الظمأ، وكان كل يوم يستزيد ربه، فكان يرى كل يوم أكثر وأكثر من تجليات صفاته سبحانه ويمضى فى الطريق. فكان يرى عظمة الله وبهاءه يوما بعد يوم وساعةً بعد ساعة، فيرتقي من حال إلى حال وفي كل ارتقاء يلتفت وراءه فيستغفر ربه من حاله السابقة، كما ورد عنه ﷺ:

عَنِ أبي هُرَيْرَةَ أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ ﷺ يَقُولُ:

«**وَاللهِ إني لأستغفر اللهَ وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» (البخاري، الدعوات، استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة / ٦٣٠٧)

فقد كان يريد أن يكون أقرب إلى مولاه العلي كل لحظة. لأن توقه واشتياقه كان لا نهائيا، والمسافة بين العبد والرب لانهائية وبلا حدود بها لا يقبل المقارنة. فلهذا السبب يلتجئ ويتضرع إلى مولاه العلي القدير حيث يقول عدة مرات:

«يا رب ما عرفتك حق معرفتك كما ينبغي، وما عبدتك حق عبادتك كما ينبغي».

فكان واجب شمس رفع إدراك مخاطبه وعمقه القلبي إلى هذا المستوى الذي لا يمكنه أن يصل إليه بالعلم الظاهري. وبناء على هذا الجواب الذي أخذه من مولانا فجر صرخة من شدة فرحه، فرحة من نوع من وصل إلى هدف معنوي عظيم بحماس وهياج فيصاب بالدوار. بذلك يظهر للوجود شرارة نورانية ستستمر مدى الحياة بين هذين النجمين من نجوم سماء الروحانية.

بعد هذا اللقاح المعنوي تأخذ الأمواج بالتحرك المستمر بشكل دائم من محيط الروحانيات المكنوز في روح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي. ففي هذه اللحظة بدأ يشتعل قلب مولانا جلال الدين كبحر نفط أصابه كبريت فاشتعل. فقد أشعل شمس التبريزي النار في قلب مولانا ولكنه في مواجهة مثل



هذا الانفجار فإنه يحرق نفسه أيضاً في لهيب هذه النار. فقد امتزجت المشاعر والإدراكات بعد الآن واتحدت.

بعد هذا الحادث نرى حضرة مولانا الذي كان مدرسا هادئا يعيش زاهداً متقشفاً متعبداً لربه نراه فجأة تتغير حياته فصار يعيش في الإثارة الصادقة والمتحمسة حيث يضيق صدره فلايهدأ. فكانت وظيفة شمس التبريزي إشعال هذه الشرارة المكنونة في هذا المحيط الروحاني.

ماذا علَّم شمسٌ مولانا؟...

إن الفكرة الرئيسة هنا تتمثل في الإجابة على الأسئلة "ماذا أعطى شمس لمولانا؟ وماذا علمه؟". فالجواب أن شمس علمه طرق كيفية التخلص من أسر العقل. لأن للعقل حدوداً معينة. فوراء هذه الحدود جنون. أما حدود القلب فلا نهاية لها. وأما نقطة سكونها فهي أيضا "الفناء في الله".

قطع شمس السلاسل عن قدمي مولانا جلال الدين الرومي من خلال تعريفه بجوهره الخاص؛ القيم التي يمتلكها. لأن مولانا كان نسراً على استعداد للطيران. فكان عمل شمس هو أن يفك هذه القيود التي برجليه. فأنار له من نافذة القلب ما وراءه.

بعد ذلك، بدأ حضرة مولانا مثل الفراشات المحيطة بالضوء، بالاحتراق عن طريق استيلاء جاذبية التجليات من شمس عليه.

حضرة مولانا جلال الدين الرومي يصف هذه المغامرة التي بدأها مع شمس في الديوان الكبير على النحو التالي:

يقول شمس لمولانا:

أنت عالم، رئيس، دليل؛ أنت صاحب سلطنة.



قال له مولانا:

أنا لست عالما من عالم الظاهر بعد ذلك؛ أنا لست الرأس. أنا لست دليلا.. أنا مسافر فقير غريب في عالم فوق العقل تضيئه المشعلة التي أشعلتها.

قال شمس مرة أخرى:

لا يزال لديك عقل! لهذا السبب، لا يمكنك أن تصبح مجنونًا، لذلك أنت لست من أهل هذا البيت!.

فقال مولانا أيضاً:

بعد ذلك، غطيت عقلي بغطاء قلبي... فصرت مجنوناً. وبهمتك الآن أصبحت أهلاً خاصاً لهذا العالم!.

قال شمس مرة أخرى:

لديك حساب! أنت لست في حالة السكر فأنت خارج هذا العالم!.. فليس العقل هو الذي يضيء هذا العالم، بل هو العشق. فانت لا يمكنك مشاهدة ما أمامك!....

قال مولانا لشمس:

بعد ذلك، بهمتك تحولت ناراً من رأس إلى عقب. فقد استولى العشق والسكر على كل جوانبي!....

قال له شمس هذه المرة؛

أنت مشعل في جماعة! مكانك في الأعلى!.

فأجابه مولانا:

بعد ذلك، انطفأت نار مشعلتي تلك. فلم يعد يختلف عن برق وامض في نظري!.. فالآن أنا أمشي في ضوء المشاعل الأخرى!....



قال له شمس:

أنت لست ميتًا؛ فأنت لا تزال تحتفظ بحياتك الظاهرية!.. فلا يمكن العبور وراء هذا الباب بهذه الصورة! فيجب أن تتخلى عن وجودك الفاني بكل روعته وبهجته....

قال مولانا:

نعم هو كان في القديم!.. أنا الآن، بعد أن تعرفت عليك لست على قيد الحياة بالمعنى الذي يعرفه الناس. فأنا الآن صرت ميتاً ملتقياً بحياة مختلفة!....

قال له شمس:

لا يزال لديك اعتماداتك النفسانية! فمقامك ومنصبك باقيان! تخلص منهما!.

فقال له مولانا أيضاً:

بعد الآن فأنا لا أتطلع إلا إلى مكان ومنصب فيما تجرني أنت إليه من العالم اللدني... وتركت كل شيء ينتمي إلى وجودي السابق؛ لقد تغلبت عليه!....

قال له شمس:

لديك ذراع وجناح! فلا أستطيع أن أعطيك ذراعًا وجناحًا!....

قال مولانا:

بعد ذلك، كسرت ذراعي وجناحي لأصبح ذراعك وجناحك!....

علم شمس في مواجهة هذا الاعتراف مقتنعاً بأن مهمته قد انتهت فقام بتركيب جناح له ليحترق في أفق الخلود المليئ بالتجليات الإلهية... فبذلك أخذه من رخاوة الوصال، فأوقعه في فراق كبير تاركاً إياه في إقليم البركات من الحسرة.



فمن ثم أصبح جلال الدين الرومي حضرة مولانا وبدأت مهمته الأصلية؛ تعليم المحبة والعشق للناس... تشعيل القلوب بنار الحب لتنضج... مثل فراشة... يفسر ذلك محمد إقبال من أتباع مولانا قائلاً:

كنت في مكتبتي ذات ليلة واحدة إذ سمعت كلام عثة تقول لفراشة "وهي تطير حول الضوء":

« لقد استقريت في كتب ابن سينا. ورأيت أعمال الفارابي. فقد اضطجعت في أسطرها التي تكاد لا تنتهي واضطجعت بين جميع أحرف تلك السطور كلها. ولكن لم أستطع أفهم فلسفة هذه الحياة. ليس لدي شمس حتى تضيء أيامي...»

فأجابتها الفراشة المحترقة نصف احتراق بإجابة جميلة ودقيقة لا يمكنك العثور على إجابة مثلها في أي كتاب فقالت:

«الرفرفة هي التي تجعل الحياة أكثر حيوة؛ الاحتراق والرفرفة هي التي تجعل الحياة تطير بالأجنحة!.. ».

كنت نيئًا ثم نضجت ثم احترقت...

يعبر حضرة مولانا الذي لديه احترق بنار العشق في فؤاده عن حياته المليئة بالمحبة والنشوة والاستغراق بثلاث كلمات على ثلاث مراحل كالتالي:

«كنتُ نيئًا ثم نضجتُ ثم احترقتُ!...».

و في هذا الصدد فهَمُّهُ كُلُّه الإنسان الكامل. يعني الشخص الذي يمكنه تقليب صفحات الكون والقراءة فيه... يعني ذلك الإنسان المحترق الذي التحق بالكاملين بسِرّ "كنت نيئًا ثم نضجت ثم احترقت!..". لأن الشخص المكتمل بالاحتراق هو الذي يكاد ينعدم فساده. فتيحدث عن هذه الحقيقة على النحو التالي:



«لم تعد مرآة إلى حديد مرة أخرى. لم يتحول خبز إلى قمح قطُّ. لم يعد عنب إلى حصرم بتاتاً. فاطبخ نفسك واحترق حتى تتخلص من الفساد!».

فالنار التي ستطبخ الإنسان هي نار الانفصال والتحسر. لهذا السبب تم خروج النبي آدم من الجنة، يعني تم إرساله إلى منزل الفرقة من أجل أن يطبخ وينضج. وفي هذا الصدد ينبغي تدريب الرجل هنا مع العشق بأجمل صورة.

ما هو العشق؟

يجيب حضرة مولانا عن سؤال مثل هذا كالتالي:

«إذا كنت تريد أن تعرف ما هو العشق، فكن مثلي!».

لأن العشق ليس معلومات يمكن فهمها عن طريق التعريف والتدريس وإنما هو حقيقة يجب العيش معها حتى تفهم. تبدأ أسرار الحب بالانفتاح عندما يتم العيش معه يوماً حسب معايير التقوى.

يقول الله سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿...**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**...﴾ [البقرة: ٢٨٢]

تربية الإنسان...

يعرف حضرة مولانا الإنسان الذي عبارة عن عالم عميق وواسع بجميع جوانبه السلبية والإيجابية وصفاته وخصائصه، فيتحدث عنه حسب ذلك. ولهذا السبب يجد الإنسان نفسه في كتابه المثنوي. لدرجة أن كثيرًا من غير المسلمين عندما يقرأ المثنوي يصبح معجباً بمولانا ويصير من أتباعه.... حتى أن هناك الكثير من الذين آمنوا بسبب ذلك. فعلى سبيل المثال يامان دَدَه من هؤلاء السعداء الذين أسلموا بعد أن قرؤوا المثنوي. وفي هذا الصدد لما سئل يامان دده؛



«لماذا تتحدث عن مولانا باستمرار وتقرأ من المثنوي؟». فأجاب السائلين بذكر الحقيقة التالية:

«لأن حضرة مولانا أخذ بيدي فذهب بي إلى باب سيدنا النبي ﷺ...».

هذا هو حضرة مولانا وهكذا هو هادي القلوب ومعمارها. فمولانا يرى أن الإنسان أرسل إلى هذا العالم لفهم أسرار الوجود. فكما أن الحيوان يكسب قيمته بقدراته ومهاراته الفريدة والخاصة به، فهكذا الإنسان يكسب قيمته باستخدام عقله وقلبه.

فعند مولانا أن الإنسان مع كل محتوياته يشبه الغابات؛ فكما أن هناك جميع أنواع المخلوقات الجميلة والقبيحة من الخنزير إلى الثعلب ومن العندليب إلى الغراب ومن الزهرة إلى الحشرات، فهذه الخواص كلها موجودة في أعماق الإنسان بنفس الطريقة بشكل سري أو علني على هيئة خواص وصفات وأخلاق. وبعبارة أخرى فإن باطن الإنسان مشهر للجمائل والقبائح. فالقيمة التي تعطى للبشر إنما تتحقق بقدر ما يلتقي جمال الإنسان الباطني بمظاهر الكرم الإلهية فتمتزج بها. فجوهر ما هو إلهي هو أيضا القرآن. كما أن تقييم حضرة مولانا للإنسان يتحقق من هذه النافذة. وذلك كالتالي:

«فكما يجب تعظيم المصحف الشريف برفعه على المنضدة والرفوف فكذلك يجب تعظيم الحفاظ الذين يحملون المصحف في قلوبهم وإجلاسهم في صدر المجلس. فإن قلباً يحتوي باطنه على نور القرآن لن يرى وجه جنهم. فإن ورقةً ما إذا كان مكتوبًا فيها ولو آية من القرآن لا ترمى إلى النار. فهل يلقى من في قلبه جميع القرآن إلى الجحيم؟».

وبسبب بركة هذا التعظيم وفيض البشارة فجميع حملة القران الكريم في المدينة أصبحوا تلاميذ لمولانا.



إنما يعلو قدر المعلمين بفضل المتعلمين...

بحسب رؤية حضرة مولانا ليس للملل والتعب مكان في التربية، ولا مكان للتحقير ولا الإهانة أيضاً. لأن المعلمين إنما يسمو قدرهم بفضل المتعلمين. فيقول في ذلك:

«أخصائي تقويم العظام والمفاصل يذهب حيث يوجد من كسر رجله. فكيف يمكن فهم السمات المفيدة والخصائص الجميلة لفن الطب إذا لم يكن هناك ضعفاء ومرضى؟».

«كيف يمكن للكيمياء أن تظهر نفسها إذا كان النحاس لا يوجد عليه صدأ ووسخ؟».

«ينبغي أن يعلم أن النقص بمثابة مرآة للكمال، وأن الذل والهوان بمثابة مرآة للرفعة والكرامة، فالضد يتميز بضده. فالعسل يتميز بالخل أكثر من غيره».

فكل القضية أن نقضي عمرنا كله في مدرسة الدنيا هذه على أن نكون أفضل طالب، وأفضل معلم... فلذلك يجب علينا بالطبع أن نعرف كلاً من أنفسنا والعالم بشكل صحيح.

ما هي الدنيا؟...

مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي يجيب على سؤال: "ما هي الدنيا" بقوله: "هي سجن للأرواح".

كما يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي في إحدى غزلياته:

«أنا في سجن الدنيا لأني مضطر للبقاء هنا من أجل أداء الخدمة وإرشاد الملة. وإلا فما لي والزنزانة، أين أنا؟ سرقت ممتلكات من حتى أقع في السجن؟!».

يصل الإنسان بكل خطوة يخطوها في الدنيا من منزل يقصده. وبكل نفس يتم التقاطه يقترب إلى الذهاب من الدنيا. ومن الجهة الأخرى أن أصل الأرواح هو عالم الأروح. فبكل نفس يلتقطه يقترب من أصله. فكما يتبخر الماء في البركة ويختفي فهكذا ينقضي عمر الإنسان مع الأنفاس التي يتم التقاطها هادئاً صامتاً.

فالخلق كله إنساناً كان أو حيواناً ما دام أصله من تراب فيتعفن فيه ويتحلل فيتحول تراباً.

فكما هي الحال في الماديات على هذا النمط فكذلك في المعنويات أيضاً يرجع كل شيئ إلى أصله. فمن كانت خلقته المعنوية من أجزاء الجنة فإلى الجنة؛ ومن كانت خلقته المعنوية من أجزاء الجحيم فإلى الجحيم يذهبون.

فالحاصل لا مفر من حقيقة أنه لا هروب من الله تعالى ولا من الكون الذي نعيش فيه ولا من أنفسنا...

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي:

«ممن نهرب نحن؟ من أنفسنا؟ هذا شيء خيالي... ممن ننقطع فننجو؟... من الله تعالى؟... هذا حلم فارغ! ما أكبرها من ضلالة!...».

«فاعلم أن الدنيا ليست ذهباً ولا فضة ولا مالاً ولا امرأة و لا ملابس فاخرة ولا هي تجارة، بل هي الغفلة عن الله تعالى».

القلب السليم هو الانقياد التام لله تعالى...

إنما ينجو العبد من مخالب الغفلة غير الرحيمة دون أن ينخدع بالدنيا بتزكية النفس وتصفية القلب فقط، فبذلك يتخلص من الكثافة (الذنوب) فينال اللطائف الإلهية. فحينئذ يتحول القلب أيضاً إلى نقطة التقاء المعنويات، كما تجتمع الأضواء على العدسة، مستغرقاً في النور الإلهي فيُحيل المعاصي كلها

رمادًا. وهذا مظهر القلب السليم. فإنما يتقبل الله من عباده هذا القلب السليم على ما ورد في القران الكريم من سورة الشعراء:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

يعبر مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله العالي عن أن سر التحقق بمقام الفناء في الله الذي يصل بالإنسان إلى القلب السليم هو الانقياد التام لله تعالى بقوله:

«إن مياه البحر ترفع على سطحها الميت المستسلم لها تمامًا. أما الذي لايزال على قيد الحياة أو يحمل شكًا ولو ضئيلًا فكيف ينجو من يدي البحر؟ مثل هذا تمامًا إذا تتحقق بِسِرّ "موتوا قبل أن تموتوا"، فتموت متجردًا عن الصفات البشرية، فإن بحر الأسرار يجول بك فوقه».

إن الغاية من خلق الإنسان معرفة الله والعبودية له. فسر الوقوف على عمق الأشياء وحقيقتها إنما يبدأ بالوصول ولو إلى طل قطرة من محيط المعرفة.

نسأل الله تعالى أن يقسم لنا جميعاً نصيباً من عشق مولانا العميق فيوفقنا بهذا العشق مثل الناي لنكون إنساناً كاملاً.

آمين!..



المحبة والمعرفة

العشق والعرفان يعني أن المحبة والمعرفة هما بمثابة الجناحين الروحانيين ينضجان القلب ويحملان إدراك الإنسان فوق أفق العلوم الظاهرية. حتى أن الإنسان مع هذين الجناحين يصير سياحاً في السماوات السبع يعرج في أفلاكها.



المحبة والمعرفة

سرَّان من أسرار الخلق...

منذ بدأ الخليقة جهزت الأكوان وجميع الكائنات بسرين من الأسرار الإلهية:

١. محبة الله ﷻ .

٢. معرفة الله ﷻ.

فقد ظهر في الوجود كل شيء على قيد الحياة حياً كان أو جامداً بمقتضى تجلي هذين السرين.

وقد خلق الله تعالى الخلق كله ليدل دلالة قاطعة على كماله و إبداعه. وجعل من بين خلقه ذلك الإنسان، الذي هو من بدائع صنعه العظيمة مظهراً كاملاً للمحبة والمعرفة.

وبهذا الاعتبار؛

فإن الهدف من خلق الإنسان هو العبادة ومعرفة ربه سبحانه وتعالى. وفي إطار هذا الهدف يبدأ سر الوصول إلى أعماق الأشياء والحقيقة مع القدرة على الوصول إلى أرْيَحِيّة المحيط من المحبة والمعرفة.

ولذلك فإن المستوى المثالي في العبودية هو أن يكون الإنسان عبداً عاشقاً وعارفاً.



لأن العشق والعرفان يعني أن المحبة والمعرفة هما بمثابة الجناحين الروحانيين ينضجان القلب ويحملان إدراك الإنسان فوق أفق العلوم الظاهرية. حتى أن الإنسان مع هذين الجناحين يصير سياحاً في السماوات السبع يعرج في أفلاكها.

فيشير حضرة مولانا منطلقاً من هذه الحقيقة إلى مدى أهمية علم محبة الله ومعرفة الله للإنسان قائلاً:

«ومن بعض مكره (أي عالِمُ الظاهر) نسج الثياب المذهبة، واستخراج الدر من قاع البحر.

ودقائق علم الهندسة وعلم الفلك وعلم الطب والفلسفة.

كلها متصلة بنفس دنياه هذه وليس له طريق بها إلى السموات السبع».

«أما علم طريق الحق وعلم منزله يعلمهما صاحب القلب بقلبه».

وبناء على ذلك فإن الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الله يمر عبر محطة كون المرء أهلاً للعشق ومحبة الله سبحانه وتعالى. فأولئك الذين يسعون من هذا الطريق إلى ربهم يضمن لهم الوصول إلى هدفهم سريعًا. لأن الله تعالى يقول:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]

طريق العشق والمحبة...

طريق العشق ومعرفة الله سبحانه الذي يتحصل فيه رضى الحق سبحانه والوصول إليه تعالى مثل صفحة بيضاء. فالكتابات المكتوبة هناك واضحة وشفافة ولا يمكن لأحد قراءتها غير الله سبحانه وتعالى. وفي هذا الصدد يعيش أهل الله مدى الحياة في خوف وقلق من أجل أن لا تشوه بقعة سوداء تلك الصفحة، ويحاولون أن لا يؤذوا أحداً حتى نملة.



إنما يمكن مثل هذا النضوج بمعرفة الله سبحانه كما ينبغي وتحقيق العبودية له تعالى وفق معايير التقوى. فإن العبد كلما زاد علمه ومعرفته ومحبته لله تعالى ازدادت خشيته وتقواه منه تعالى بنفس القدر. كما قال سيد الكون والخلق محمد ﷺ:

«... **فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**» (البخاري، الأدب، من لم يواجه الناس بالعتاب٧٢/ ٦١٠١؛ مسلم، الفضائل، علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته / ١٢٧)

وهذه التقوى لا يعيشها الإنسان ويعرفها عقلاً بل يعيشها ويدركها ويحسها قلباً. فيقول الله سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

فتدل هذه الآية الكريمة على أن العلم الحقيقي المقبول عند الله تعالى علم يزيد بالعبد علماً وخشية من الله سبحانه وتعالى، أي علم المعرفة بالله تعالى. ومن أجل كسب المعرفة بالله تعالى فمن الضروري الامتثال للنقاط التالية التي أمر بها الله تعالى في القرآن الكريم:

١. إحياء الليالي ساجداً وقائماً من أجل كسب المعية القلبية مع الله سبحانه وتعالى.

٢. أن لا ننسى فناءنا، بأن نعيش كل لحظة وكل حال وكل سلوك في حياتنا وجلين قلقين من المحاسبة والمساءلة عليه يوم القيمة.

٣. أن نكون دائماً في حال الدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى طامعين في رحمة ربنا سبحانه وتعالى. لأن الأرواح الكبيرة تعيش دائما في حالة الدعاء.



قال علماء الإسلام:

«يتكون القرآن الكريم من ثلاثة أقسام هامة:

١. محبة الله ومعرفته؛

٢. إدراك الآخرة بحق؛

٣. العيش على الصراط المستقيم.

هذه النقاط الثلاث هي الأهداف الأساسية والرئيسية للقرآن الكريم وموضوعاته العامة. والموضوعات الأخرى تخضع لها».

رحلة العشق والمعرفة...

يمكن السير في رحلة المعرفة بحياة قلبية وعشق إلهي فقط. وفي ذلك يقول كبار هذا الطريق:

«يا سائرًا في طريق المعرفة! إنك لن تجتازه ما لم تستبدل بالجَزَع الصبر؛ وبالنسيان الذكر؛ وبكفران النعمة الشكر؛ وبالعصيان الطاعة؛ وبالبخل الكرم؛ وبالشك اليقين؛ وبالرياء الإخلاص؛ وبالإصرار عليى الذنوب التوبة؛ وبالكذب الصدق؛ وبالغفلة التفكر».

ولتحقيق جميع هذه المسائل كاملة يأتي على رأس الأمور التي يجب أن نوليها اهتمامًا خاصًا قضية الغذاء الحلال. لأن اللقمة الحلال تغذي الحكمة والمعرفة والعلم في الجسم وتوقظ في القلب عشق الله وشوقه ومحبته. وهذا بدوره يعزز "معرفة الله تعالى". أما القلب المتلطخ بالحرام فإنه لن يذوق طعم حلاوة المعرفة بالله تعالى. يقول الإمام الغزالي رحمة الله عليه:

«وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة



ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به» (أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، ج. ٤، ص. ٣١٤، دار المعرفة، بيروت)

لذة العشق الإلهي ومعرفة الله...

يروى أن سيدنا عيسى عليه السلام مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد قد أخذه الفالج وهو يقول غير مبال بما عليه من الأمراض:

«الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه»

فقال له عيسى عليه السلام بقصد فهم إدراكه وكماله:

«أي شيء من البلاء قد عافاك الله منه».

فقال:

«يا روح الله! إن أفجع مرض ومصيبة هو أن يكون القلب غافلاً ومحروماً عن الحق سبحانه. فأنا أحمد ربي على أن نجاني من هذه المصيبة. لأنني في نشوة من لذة العشق الإلهي ومعرفة الله التي أودعها الحق سبحانه في قلبي. فلا أرى نعم الدنيا فيما سواه عز وجل. إذاً؛ يا نبي الله أنا خير ممن لم يجد في قلبه معرفة ربه»

فمثل هذه القلوب العاشقة والعارفة؛ هي مكان المحبة والعشق الإلهي، والقصر الرائع لخزائن المعرفة بالله عز وجل. ولهذا السبب فإنه يسمى قلب الإنسان الكامل ببيت الله.



فخلاصة القول؛ أن نور المحبة والمعرفة فيض وسر يُتلقى من الله تعالى، ويحول كل العوالم جنة ونعيماً لكل العاشقين والعارفين.

بذرة العشق وشمس معرفة الله...

يقول حضرة الإمام بهاء الدين نقشبند مشبهاً المحبة في التربية الصوفية بالبذرة، ومعرفة الله بالشمس:

«وظيفتنا نحن أن نقوم بتطهير الباطن من العلائق الفانية، وزرع بذور المحبة في القلوب، وسقي ما زرع من بذور المحبة بماء زمزم، ورعايته حتى يستوي فيصير بشمس معرفة الله شجرة إخلاص».

فإن العبد ما لم يرفع محبته لله ﷻ على كل محبة وعلاقة يظهرها لغير الله سبحانه وتعالى فإنه لا يبلغ الصراط المستقيم بحق. ولتحقيق ذلك فلا بد من معرفة الله سبحانه وتعالى بصفاته غير المتناهية وغير المحدودة. وبعبارة أخرى فإن الصراط المستقيم يعني معرفة الله ﷻ. كما يقول الله ﷻ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾ [هود: ١١٢]

وقد شيبت هذه الآية شعر رسول الله ﷺ ولحيته الشريفة مع أنه ورد في سورة يس أنه على صراط مستقيم. إذاً فكل ما في الأمر أنه كان قلقاً من أجل أمته، هل يكونون على صراط مستقيم أم يميلون عنه.

فقد ورد فيما يتعلق بالمجازات الأولية والعلامة الأولى لمن استقام في حياته وانتقل إلى جوار ربه راضياً عنه وولياً له الآية التالية من سورة فصلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]



فالذين يقيمون حياتهم على هذا النوع من الاستقامة بمحبة الله ومعرفته ويبتعدون عن شرور أنفسهم ودسائس الشيطان. إنما يعيشون طالبين رضى الله تعالى. فينالون مظاهر التجليات من اللطف الإلهي في إقليم القلوب. وفي النهاية يفتحون نافذة روحية ومعنوية من وراء العالم الظاهري مما تسمعه الآذان وتراه الأبصار فيصير بذلك العالم كله بالنسبة لهم كتاباً عظيماً وحكيماً. فلا تنطفئ شمس معرفتهم بعد ذلك في كلا العالمين أبداً.

وحكي عن أبي سعيد الخراز وهو من أهل المعرفة قدس الله سره قال: رأيت إبليس في المنام، فأخذت عصاي لأضربه، فقيل لي: إنه لا يفزع من هذا، إنما يفزع مما يكون في القلب، فقال له إبليس:

«يا أبا سعيد! أنا لا أخاف من عصاك التي بيدك لأنها من العالم الظاهر. وإنما الذي أخاف منه تلك الأنوار الربانية التي تأتي مما يطلع في سماء العارفين من شمس المعرفة فتحرق القلوب بهذه الأنوار ما سوى الله تعالى فتصير بها رماداً».

وفي الحقيقة أن الإنسان الكامل الذي وصل إلى معرفة الله تعالى يبقى تحت تجليات العشق والمحبة لله تعالى إلى درجة يستهلك فيها الشهوات النفسانية فتفنى مثل ورق يحترق من انعكاس الضوء عليه من العدسة. فبذلك يصير قلب الإنسان الكامل المخلص والعاشق والعارف مركزاً نورانياً للجذب فيحبه الناس الآخرون انسياقاً من غير اختيار. فيبارك الله في عمره فيحيى في قلوب المؤمنين بعد ما ينتهي عمره الفاني أيضاً.

إذا بلغ المؤمن المحظوظ هذا النوع من النضوج فإنه يحاول لئلا يقع في ورطة التعلق بالالتفات الفاني للعباد. فيقي نفسه من الصفات المذمومة مثل الغرور والكبر والعجب وغيرها. يُمضي أيامه بين الخلق وهو مع الحق سبحانه وتعالى. يعيش معظماً لأوامر الله سبحانه ومشفقاً على خلقه ورحيماً بهم. وبمقتضى محبته



لمولاه لا يميل قطعاً إلى الظالمين والكافرين فلا يحبهم إطلاقاً. إلا أنه لرحمته بخلق الله يدعو لهدايتهم. ولا يلزمه المال والملك والثروات الدنيوية إلا من أجل الإنفاق في سبيل الله ﷻ. لأنه نذر نفسه من أجل "معرفة الله" ومن أجل الوصول إلى الله تعالى. فصار عبداً مخلصاً حيث اطرح اضطرابات الدنيا وآلامها جانبًا. فيظل في عمره كله يشاهد ما وراء الحجب ويستأنس بالحكمة في مرآة الوجود.

مرآة الحكمة...

إنما يستطيع الإنسان أن يبلغ كمال العبودية بعمق روحه لأنه مكرم بمعنوياته لا بمادته. فهذه الأرض والسماوات التي نتقلب فيها كل يوم ونعيد النظر في مجالها مرات ومرات منتبهين لها أو غافلين عنها هي مرآة حكمة، وقد عرضت لإدراك ووعي الإنسان المتحسس بالمحبة الإلهية. يا ترى هل من شيء لا يشاهده في تلك المرآة! ففي تلك المرآة نبدأ بمشاهدة كل الحقائق عن كثب. وعلى سبيل المثال، هذه المرآة تبين لنا هذه الحقيقة في الشفاعة كالتالي:

فإذا كنا نعيش أيامنا في الدنيا بعيدين عن المحبة الإلهية ومعرفة الله وملذات الآخرة منهمكين في اللهو واللعب وكل أنواع المرح والجنون من الشهوات الحيوانية فلن تكون الليلة الأخيرة التي نموت فيها ليلة مشرقة بالنسبة لنا. فقد تكون الليلة الأخيرة التي يقع فيها الموت ليلة سوداء مظلمة لا يطلع لها شفق سعيد. هناك الكثير من الناس الذين ستنالهم تلك العاقبة الوخيمة في رحلتهم الأبدية. فيصبح لونهم الوردي في الحياة الدنيوية النفسانية ذابلاً، ذَهَبَتْ نَضارَتُهُ وَدَبَّ فيهِ اليُبْسُ في الآخرة، وتمسي قهقهاتهم صرخات بكاء في نار الجحيم.

ولذلك، من أجل أن نصبح من أهل الجنة، لا بد من أن تنمو بذور محبة الله بنور معرفة الله تعالى. فلهذا السبب، كان من الضروري الابتعاد قلباً عن المحبات



الزائفة الفانية الساطعة المتلألئة العابرة في الدنيا. وفي الواقع، من الواضح تماما كيف اُسْتُرْشِد حضرة إبراهيم بن أدهم إلى المحبة والمعرفة الحقيقية عندما يشاهد حياته من مرآة الحكمة:

ذات ليلة في منتصف الليل كان إبراهيم بن أدهم قد غلبه النوم وهو جالس على عرشه. فجأة حدث هناك ضجيج هائل وضجة على سقف القصر. فأصبحت أصوات الصراخ تعلو وترتفع شيئاً فشيئاً حتى أيقظت السلطان إبراهيم بن أدهم في النهاية.

فقام السلطان إبراهيم بن أدهم بسرعة وصرخ متوجهاً إلى السقف:

«من هناك؟ ماذا تفعل على السطح في هذا الوقت من الليل؟»

وجاء الجواب من عميق:

«نحن نبحث عن إبل لنا ضاعت يا أيها السلطان!» .

فسأل إبراهيم غاضباً: وهل يبحث عن إبل فوق السقف أيها الحمقى؟

ولكن هذه المرة كان الجواب يحمل معنىً عميقاً وتوجيهات إرشادية:

«يا إبراهيم بن أدهم! أنت تعرف أنه لن يبحث عن الإبل على السطح أفلا تعرف أنه لا يمكنك الاتصال بالله وأنت جالس فوق العرش مع هذه الملابس الحريرية على ظهرك، والتاج على رأسك، والسوط في يدك؟!».

بعد هذه الأحداث وما شابهها، أصبحت حالات المد والجزر تتزايد في روح إبراهيم بن أدهم منذ فترة طويلة. وأخيراً فقد ترك هذا العبد المخلص تاجه وعرشه محتضناً المحبة والمعرفة وارتقى إلى مستوى عال سكنت فيه كل الاضطرابات والعواصف والزلازل في داخله وهدأت تماماً. وهكذا فقد ولد حضرة إبراهيم بن أدهم فلحق بركب أولياء الله الكبار.



إلى عمق الداخل...

من يقدر أن يرتقي من درجة الإيمان إلى كمال الإحسان غائصاً في محيط المحبة والمعرفة مثل إبراهيم بن أدهم فسوف يصبح قرة عين الكون ولبه. فهؤلاء من يمثلون حقيقة الإنسان الكامل. وهم دائماً في قمة العبودية. كما أن يونس أَمْرِه يصنف درجات الوصال في رحلة الناس إلى الحق سبحانه وتعالى بأسلوب دقيقٍ ويضع في المرتبة الأعلى معرفة الله قائلاً:

الشريعة والطريقة ممر للواصلين بهما

والحقيقة والمعرفة في عمق الداخل منهما.

يعني أن الذين يعيشون الدين ظاهراً وباطناً ينالون الحقيقة العليا في جوهره فيصلون بعد ذلك إلى المعرفة الإلهية في عمقه الداخلي. ففي هذه النقطة تنفتح أبصار قلوبهم لكلا العالمين معاً، فيشاهدون في كل مكان التجليات الإلهية من ربهم. فهذا الحال ليس من الكرامة وإنما هي خاصية طبيعية لقلب وصل بالمحبة والعشق إلى العرفان والمعرفة. فلمثل هذا الحال يسعى أهل التصوف فيما يملكون من عمر لتحقيقه في حياتهم من أجل أن يكسبوا هذه الصفات لهم.

الغاية من التصوف...

جوهر التصوف كسب صفة السلامة لعالم القلب ليصير قلباً سليماً. والمقصد منه أن ينال نضجاً يأخذ قسطاً من "محبة الله ومعرفة الله". لأن العبد يمكن أن يأتي فقط في هذه الحالة إلى مستوى يكون مداراً للوصال الإلهي.

لذا لا بد من أن تزدهر "محبة الله" في القلوب أولاً. لأنه عندما تزهر محبة الله فإن معرفة الله التي تعني أن يعرف الله سبحانه وتعالى من خلال القلب تبدأ تظهر أيضاً. هذا يعني من جانب أن يصير العلم عرفاناً.



يمكننا أن نصور التصوف الذي يعتبر مدرسة النضوج القلبي على أنه نافذة معنوية لقلوب عبادالله تعالى تنفتح إلى المعراج في مجال بحوث محبة الله ومعرفة الله تعالى. لأن كل شيء في الحقيقة عاشق لأصله. فالبدن ترابي فلذلك يميل إلى التراب؛ والروح لكونها تجلياً من تجليات الحق سبحانه وتعالى تميل إلى الحياة المعنوية. ويقول في ذلك حضرة مولانا:

«فميل الجسد إلى الخضرة والماء الجاري، وذلك لأن أصله منها،

وميل الروح إلى الحياة وإلى الحي، ذلك أن أصلها هو روح اللامكان».

بعث الأنبياء وأمرهم لتلبية احتياجات الأرواح هذه بأداء المهام الثلاث التالية:

أ -تبليغ دين الله تعالى للخلق.

ب -تربية بواطن الناس وتزكيتهم.

ج -تعليمهم أعماق الكتاب والحكمة في الكون نتيجة لهذه التربية.

حقيقة المعرفة: إدراك العجز...

قال علماء الإسلام عن العلم:

«العلم هو الإدراك. وما لم يتحقق الإدراك لن يتم تحقيق العلم. ومنتهى هذا الإدراك هو معرفة الله تعالى. وبهذا الاعتبار فإن معرفة الله هي خلاصة العلوم. وتكسب العلوم قيمتها بقربها من هذا العلم؛ علم معرفة الله تعالى».

فكلمة العالم تطلق في القرآن الكريم على من يملك علم المعرفة هذا، ويذكر أهم أوصافه التقوى كما ورد في الآية الكريمة:

﴿...اِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰٓاءُ ...﴾ [فاطر: ٢٨]



فالخشية هنا لا تحمل معنى الذعر والخوف. وإنما تحمل معنى المحبة أكثر من معنى الخوف. يعني حرص المرء على أن يرضى حبيبه فلا يحزن، وقلقه من احتمال عدم رضاه. وهذا يظهر في القلب أكثر من ظهوره في العقل. ولذلك لا بد من صيرورة العلم إلى العرفان قبل كل شيء آخر. لأن الله سبحانه وتعالى يشبه الذين لم يحولوا العلم إلى العرفان، ولبثوا يتحملون ثقله مهلكين أنفسهم في الأعاصير الشهوانية النفسانية، بالحمار الذي يحمل أسفاراً من الكتب في سورة الجمعة:

ولهذا السبب، يعبر يونس أمره عن حقيقة المعرفة بأبياته التالية:

العلم هو أن تعرف العلم
العلم هو أن تعرف نفسك
فإن أنت لم تعرف نفسك
فأي قراءة هذه إذا؟!

ما المقصود من القراءة
فمعرفة الحق سبحانه
إن كنت قرأت فلم تعرف
فهذا عناء فارغ.

لا تقل قرأت فعلمت
وأكثرت من الطاعات
إذا كنت لا تعرف الحق
وهذا يعني كلمة جافة!.

فالمعرفة التي وصفت في هذه الأبيات بأسلوب السهل الممتنع هي العلم الإلهي غير المحدود الذي يشمل جميع الأسرار والحكم في الكون كله وفي الكلام



وفي الإنسان جميعاً. وإن كان يبدو أنه سهل جدا على اللسان إلا أن هذا العلم لايمكن تعريفه بشكل كلي بسهولة، وفي الواقع إن تعريفه يفوق طاقة إدراك البشر. ومع ذلك فإن الجميع بنسبة قدرته واستعداده وسعيه ينال حظاً ونصيباً من هذا العلم. ولهذا السبب، يقول سيد الكون فخر الكائنات محمد المصطفى ﷺ:

«...**لا أُحْصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» (مسلم، الصلاة، ٢٢٢/ ٤٨٦)

هذه هي المعرفة! فالقضية كلها أن يكون العبد عاشقاً وعارفاً للحق تعالى بمعرفة كهذه.

خصائص العاشقين والعارفين...

العشق والمعرفة تكرمان العاشقين والعارفين بصفات يغبطهم عليها الخلق حتى الملائكة والسموات السبع أيضاً. فعلى ذلك يكفي للإنسان كوصف مميز العشق والمعرفة فقط. لأن السعداء الذين يأتون إلى الله سبحانه بالعشق والمعرفة يقال لهم "ماذا تريدون؟" بدلاً من السؤال لهم "بماذا أتيتم؟".

يروى أنه بعد وفاة حضرة أبي يزيد البسطامي رآه أحد أصدقائه في المنام وسأله:

« يا أبايزيد! ما فعل الله بك؟ فرد أبو يزيد على هذا السؤال: قالت لي الملائكة أولاً: يا أيها الشيخ المسن! بماذا أتيت هنا؟ فأنا قلت لهم: عندما يأتي أحد إلى باب السلطان، يقولون له: ماذا تريد؟ لا يقال له: بماذا أتيت هنا؟. فعلى ذلك بدؤوا يسألونني إذاً ماذا تريد؟».

يصف لنا حضرة مولانا شأن العارفين ذوي القلوب العظيمة مثل أبي يزيد البسطامي وقيمتهم على النحو التالي:



«وإن للعارفين كحلاً يجلي البصر فابحث عنه، حتى تصير كالبحر هذه العين التي تشبه الجدول».

«وسير العارف في كل لحظة يكون إلى عرش المليك، وسير الزاهد في كل شهر طريق يوم واحد».

لأن العارفين هم العشاق فيقطعون المسافات والطرق بالعشق. إنهم يسارعون إلى جانب الحق سبحانه وتعالى من رتبهم الخاصة بقوة غير متناهية من المحبة وهم في كل لحظة بالعبودية سائرون وأخيرا وهم إلى ربهم واصلون. أما أولئك الذين يعيشون الدين في حالة جافة فهم يتوجهون إلى ربهم وهم خائفون. وبعبارة أخرى يغلب عليهم الخوف أكثر مما تغلبهم محبة الله تعالى. والخوف يمتد بالطريق فينتهي طريق يوم في غضون شهر. وفي هذا الصدد، يصف حضرة مولانا العارفين على النحو التالي:

«والعارف هو روح الشرع، وهو روح التقوى، والمعرفة هي محصول ما سلف من زهد.

والزهد هو السعي في الزرع، والمعرفة هي النمو لذلك الغرس».

«إنه (أي الإنسان الكامل) ملكنا اليوم وملكنا غداً، والقشر عبد للبه العظيم دائماً».

«فاعلم أن عين العارف أمان في الكونين، فمنه وجد كل بطل العون.

ذاك أن محمداً كان شفيعاً لكل جرح، فإن عينه ما زاغت إلا عما سوى الحق».

«مثلما يمضي العارف وهو جالس سعيدًا في مكانه، من طريق خفي إلى مائة عالم!!».



«فعلى فمه (العارف) قفل وفي القلب أسرار، والشفة صامتة، والقلب يضج بالفيوضات.

فالعارفون الذين شربوا من كأس الحق، عرفوا الأسرار، لكنهم قاموا بإخفائها وسترها».

وباختصار، فالعشاق والعارفون الحقيقيون هم بهذه الصفات متصفون. وهم بعيدون كل البعد عن كل خلق ذميم أو صفة عارضة. وهم السعداء الذين تحلوا بأخلاق الله ﷻ حتى أحبهم الله ﷻ.

فَجْرُ يوم العيد...

في إطار الصفات العلية المذكورة أنفا كأن حياة العشاق والعارفين تستمر مثل شهر رمضان المبارك مفعمة بالرحمة والبركة والعبادة استعداداً لنعيم الجنات. فسوف تكون أنفاسهم الأخيرة أيضاً مثل فجر عيد أبدي.

وفي هذا الصدد؛

علينا أن نستغل موسم رمضان الشريف المبارك بتحصيل محبة الله ومعرفة الله. وما الذي يجب علينا القيام به من أجل تحصيل هذه المحبة والمعرفة فعلينا أن نقوم به.

يجب أن نعرف أنه؛

لا بد من أداء عباداتنا بشوق، وإعطاء رفعة لصومنا وراء المجاعة من أجل تحصيل هذه المحبة والمعرفة.

ومن الضروري أيضاً من أجل المحبة والمعرفة أن نكون مرهماً لمكسور الجناح، وقريباً لمن ليس له قريب، وآذاناً صاغية لمن يئن بعويل، وإعطاء اليد لأولئك الذين وقعوا على الأرض، وتقديم مناديل الابتسامة للباكين، وأن نكون علاجا للعاجزين.



ومن الضروري أيضاً من أجل المحبة والمعرفة أن لا ننسى موتانا كما لا ننسى أحياءنا بأن نفرحهم ونسعدهم بالإنفاق في سبيل الله وقراءة القرآن الكريم مهدين ثواب ذلك إلى أرواحهم.

ومن الضروري أيضاً كسب قلب إنسان، وإصلاح قلب مكسور، وتحويل قلب إلى كعبة الله، وتطهير الأشواك في قلب من أجل المحبة والمعرفة.

ومما لا بد منه لتمثل المحبة والمعرفة أن لا تؤذي أحداً وأن لا تتأذى من أحد أمر.

ومتابعة النبي ﷺ متابعة حثيثة، وتحصيل العلوم الشرعية وخاصة تعليم القرآن الكريم لأولادنا ليصيروا براعم الجنة وعَنادِلها واقين أنفسنا وأهلينا وأولادنا ناراً وقودها الناس والحجارة، كل ذلك شرط أساسي أيضاً من أجل المحبة والمعرفة.

وإحياء قيمنا المقدسة كلها، والدفاع عن ملتنا ووطننا الجنة، أمر لا بد من أيضاً للمحبة العلية والمعرفة العظيمة.

فخلاصة القول؛ التعظيم لأمر الله تعالى والقيام بما يقتضيه هذا التعظيم من امتثال أوامره بالرضا الكامل، والشفقة لخلق الله تعالى والقيام بكل ما يدخل تحت دائرة ذلك من شفقة ورحمة بخلق الله تعالى والعمل بمقتضاه شطر ضروري لكسب المحبة والمعرفة لله رب العالمين.

فإذا تحققت هذه الشروط كلها فنور الوصال ينير دربنا في كل لحظة من حياتنا فتنتهي خطواتنا بنا إلى الجنات العلى. فيصبح صباح يوم القيامة الرهيب مظهر فجر يوم عيد أبدي لنا.



يا ربنا! احشرنا في مظهر فجر عيد أبدي. وأفرغ علينا صبراً وثباتاً فيما ابتلينا من مصائب الدنيا الفانية ومخالبها غير المحصورة! اللهم اشف مرضانا وفرج عن المكروبين واقض عن المدينين! وكن عوناً ونصيراً وظهراً للمظلومين والمضطهدين والمتعرضين للإبادة الجماعية من المؤمنين لسنوات عديدة وخذ بيدهم يا رب العالمين!

يا إلهي! ارزقنا عمراً معموراً بالاستقامة في طلب رضاك العالي، ومباركاً بتجليات محبتك ومعرفتك يا رب العالمين!

آمين!..



القسم

٢

الحب العارم
للنبي عليه الصلاة والسلام

إنّ نشوء الحب من الفيض العرم، الذي لا يزال يمدّ قلوب المحبين بالحياة، يستدعي استجابة. وبذلك يغدو العشق كالشمس التي لا يخمد نورها أبدًا.



الحُب العارم للنبي ﷺ

سر الديمومة في الحب...

المحبة درجات، تقتضيها الأحوال التي تعتمل في عوالم القلب. فمنها ما يستحيل راكداً، ومنها ما يهدر كالشلال العرِم. فالمحبة الراكدة، لا تقوى على اجتياز سبل الوصال بالحبيب. حيث تعوقها المتاعب والمحن التي تصادفها في تلك السبل. لكن المحبين الذين يشحنهم حب عارم كالأنهار التي تجتاز الجبال والصخور، فيوفّقون في بلوغ بحر الوصال، قاطعين مسافات بعيدة.

إنّ نشوء الحب من الفيض العرِم، الذي لايزال يمدّ قلوب المحبين بالحياة، يستدعي استجابة. وبذلك يغدو العشق كالشمس التي لا يخمد نورها أبدًا. فقد وصف الله تعالى في الآية الكريمة هذا الحب بالشدة حيث قال: «أَشَدُّ حُبّاً»، فالحب الشديد يعني أن يؤول الُمحِّب إلى حال في المحبوب.

فالديمومة في كل أنواع المحبة مرتبطة باستيطان عشق حي ومحبة عارمة في القلوب. فالله تعالى خلق جميع المخلوقات بدافع المحبة.

ولهذا، فإنّ الله تعالى، أحب الذين بلغوا العرفان، عبر التأمل من منظار العاشق في صفاته العلا التي لا عديد لها، وحبّبهم بالخلق وحبّب الخلق بهم. وإنّ عباد الله الذين حباهم هذه المزية هم أولياء الله، والشهداء والصالحين والصديقين، وفي طليعتهم الأنبياء.



الكون هو مدرسة للحبّ...

لقد وسم الله الوجود بالمحبة، وأسرى فيه المحبة لعباده الذين أحبهم، حتى غدا الكون لابن آدم مدرسة للعشق. وفي هذه المدرسة يُلَقَّن كل أنواع الحب الجميل والسامي. كحب الله، وحب الرسول، وحب العائلة والولد، وحب الإنسان، وحب المشايخ وسواها.

وكم من تجليات الحب التي شهدتها الكائنات تظهر لنا إذا جلنا بأنظارنا في أحد أنواع الحب، والذي هو مدار بحثنا، وهو حب النبي ﷺ.

لأنّ الوجود أضحى أجمل صورة للحب العارم الجياش، الدائم من خلال محبة النبي ﷺ.

فقد عُرضت، وبشكل جليّ على العيون والقلوب في عصر السعادة، كثير من المعجزات التي تجلى فيها عشق النبي من موجودات نعدها من الجمادات.

وأشهر هذه المعجزات ما عُرف من أنين وحنين وبكاء جذع النخيل.

دموع العشق لدى جذع النخل...

فمن المعلوم أنّ رسول ﷺ كان يخطب بأصحابه قائمًا إلى جذع نخلة في أحد أركان المسجد، ولطالما شعر ذلك الجذع باستناد الرسول ﷺ عليه فكان مبتهجًا بتلك المنحة.

وجاء يوم كثر فيه عدد المصلين في المسجد مع الرسول ﷺ، ولم يستطع قسم كبير رؤية وجهه الشريف أثناء الخطبة من كثرة الزحام: فاشتكوا إلى النبي ﷺ قائلين:

«يا رسول الله ، إننا لا نقدر أن نرى وجهك المبارك من كثرة الزحام في المسجد».

وطلبوا أن يُصنَع له منبر يصعده حين يخطب في الناس.



وعلى إثر ذلك، صُنع منبر ووضع في المسجد، وبدأ نور الكون، النور النبوي، يصعد المنبر ويخطب في الناس.

وعند أول صعود له ﷺ على المنبر ظهرت آية لم تكن بالحسبان:

فعندما عرج سيد العالمين ﷺ ليخطب خطبته الأولى على المنبر، بدأ جذع النخيل بالنواح والأنين، كإنسان ذي لب، ومشاعر، يكتوي في نار الشوق والهجران.

كان الصوت ينبع من القلب كصدى الناي العميق المكتوي، صرخة أنين من الأعماق، سمعها المؤمنون في المسجد صغيرهم وكبيرهم. لقد كانت مع صداها كصرخة من يكابد الأشواق.

تعجب الصحابة وذُهلوا بنواح جذع النخلة اليابس عن أشواقه ولوعته بذلك الصوت المتحرق شوقًا. (البخاري المناقب، ٢٥؛ البيوع، ٣٢).

ويلخص حضرة مولانا في أبياته ذلك الحديث كما يلي:

لقد نزل رسول الله ﷺ عن منبره، وربّت بيديه الشريفتين على جذع النخلة سائلاً إياه بالمعنى العميق:

«ما الذي تبغيه يا جذع النخيل؟ علامَ كان أنينك؟ ما هو الحال الذي أنت فيه».

وصار جذع النخيل يبوح بلسان حاله، وقال وفي مقلتيه دمعٌ سخي:

«لقد اكتويت من هجرانك أيما اكتواء يا رسول الله، وقلبي مليء بغم وهمّ وشوق لا أعرف له وصفًا. لقد كنتُ الجذع المحظوظ السعيد الذي استندتَ عليه أول خُطبك، لكن الآن، تركتني وارتقيت منبراً. لكن يا رسول الله! ...اعذرني لطفًا ومرحمة منك، فأي مخلوق على وجه الأرض يتحمَّل هجرانك؟»۔



وحيال ذلك الأنين الزاخر بالمحبة القلبية للجذع قال له النبي ﷺ مواسيًا:

«ما دام أنينك أنين فراق يا جذع النخيل، فتمنّ عليَّ ما تتمنّى!..

إن شئت سألت الله فيجعلك شجرة خضراء حية، تهب ثمارها شرقًا وغربًا للناس، أو غرستك في الجنة فيأكل منك أولياء الله الصالحون».

طلب الجذع، بعد ثناء رسول الله ﷺ عليه، طلبًا أظهر ذلك الحب المتوقد الحارق لرسول الله في داخله فقال:

«يا رسول الله!

لا أبغي شيئًا من ذاك، فنهاية مُناي هو الفناء في ذاتك. وعليه، أطلب منك أن تفنيني وتدسني في التراب، فأتخلص من جسدي الفاني هذا، فالشجرة مهما كانت غضّة حسنة فهي تستمد غذاءها من الشمس والماء، لكن حياتي تغذت من قبسك النوراني. وذاقت لذة أن تكون سندًا لك، ولذة الاستمداد من دفئك، ولذة التوقد والاحتراق فيك.

لا أريد بعد ذلك أن أخسر هذا الحظ العظيم، لذا أختار الدائم الباقي، فأفنني وحثّ عليّ التراب لأحيا عندك أبديًا في نور منك».

ودفن رسول الله ﷺ ذلك الجذع في التراب، ليبعث يوم القيامة كالناس.

حقيقة المحبة...

لقد وجه حضرة مولانا في مثنويه هذه النصائح استمدادا من هذه الحادثة الزاخرة بالعبرة فقال:

«لتعلم أنّ العبد الذي ينعم بفضل الله عليه، ييمم وجهه إلى الله مقصودًا وحيدًا، غير آبه لما في الكون من عشق عابر».



«يا أيها الغافل، أشح بناظرك إلى معجزات موسى وأحمد، كيف آلت العصا حية، وكيف اتسم الجذع بالعرفان فأنَّ».

«اسمع حقيقة الحب من جذع شجرة واعتبر!، لا تجعل نفسك تحت سلطان الجسد وأهواء الدنيا».

«اعلم أن السعادة الأبدية، وأرفع المراتب، هي أرقى من الأجساد، وتتحقَّقا في مثوى الأجساد الأخير».

«اعلم أنّ السعادة الحقيقية، هي التخلص من دسائس النفس، والسعي نحو وصال الله».

لقد دفن رسول الله ﷺ جذع النخيل في التراب، ليتخلص من جسده الفاني، وليبعث يوم القيامة كإنسان نال غفران الله، وليكون فانيًا في مقصوده..

وكم يزخر الأمر بالعبرة:

فحتى جذع نخيل يحظى بمكان في قلب النبي ﷺ، ويمكنه أن ينال شفاعته.

وأن ينضج نضج إنسان مكتمل، ولا ينخدعُ بهذه الدنيا العابرة. و يكون دعاؤه مستجابًا، وينال وهو مجرد جزء من نبات، مكانة روحانية لا يبلغها كثير من الناس.

إصغاء جبل أُحد للنبي ﷺ...

ذات يوم، صعد النبي ﷺ جبل أُحد ومعه سيدنا أبو بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وسيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين. فاضطرب جبل أحد ذهولاً من هذه الشخصيات الروحانية على متنه. فقال له النبي ﷺ:

«اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ» (البخاري، ٣٦٧٥؛ الترمذي، ٣٧٠٣)

بعد هذ الأمر، حلّت السكينة على ذلك الجبل العظيم، فسكن من فوره.



كيف برك الجمل الهائج بين يدي رسول الله ﷺ!...

لم يقتصر الأمر على الجمادات وحدها، بل الحيوانات وسائر المخلوقات، كانت تعرف رسول الله ﷺ، وتشعر بمحبته، وتطيع أمره.

وفي هذا الخصوص، يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنه الحديث الآتي:

قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فجاء حتى أتى الحائط، فدعا البعير، فجاء واضعا مشفره إلى الأرض، حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي ﷺ: «**هاتوا خطامه**»، فخطمه، ودفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس، قال:

«**إنه ليس شيء بين السماء والأرض، إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس**»» (أحمد، مسند، جـ ٢٢، ص ٢٣٥/ ١٤٣٣٣)

وهكذا نرى أنّ الأمور الخارقة للعادة والإعجازية التي تجلت في النباتات والجمادات لم تكن حكرًا على جذع النخيل المذكور آنفًا.

رغبة الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ لدى المخلوقات...

وكم يعبر بجمال الشطر الذي يقوله شاعر المولد سليمان شلبي:

«نور عجيب، ما الشمس إلا فراشته»، واصفًا الشمس بأنها فراشة تحوم حول نور رسول الله ﷺ، أي أنّ الجمادات أيضًا عاشقة له.

ويروي سيدنا علي رضي الله عنه قائلاً:

«كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا حجر ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله» (الترمذي/ ٣٦٢٦).



ولاء شجرة لرسول الله ﷺ، وشهادتها له...

وفي مظهر آخر للعشق والمحبة للنبي ﷺ من المخلوقات:

بينما كان رسول الله ﷺ في سفر أقبل أعرابي، فلما دنا منه دعاه أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فقال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: «**هذه السلمة (الشجرة)**» . فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض خداً حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت ثلاثاً ثم عادت بأمر من رسول الله إلى مكانها، فخر الأعرابي على الأرض من هول وعجب ما رأى وقال: ائذن لي أن أسجد لك. فقال النبيﷺ:

«**لَاْ يَسجُدُ أحدٌ لِأحد**». (انظر: سنن الدرامي، جـ١، ص١٦٦/ ١٦)

تَفَكُّرٌ...

السؤال الذي يطرح نفسه، إلى أي درجة يمكننا أن نتمتع بالتضحية والتسليم لرسول الله ﷺ مقارنة بتلك المحبة السامية التي أكنتها الجمادات والحيوانات له؟.

والأمر الذي علينا إدراكه، كم نحن بحاجة لروحانيته وبشكل خاص في أيامنا هذه؟... إنّ أفضل ما يعبّر عن زمننا المضطرب نداء الشاعر:

«قم يا سيد العالمين، فإنّ القيامة تقوم».

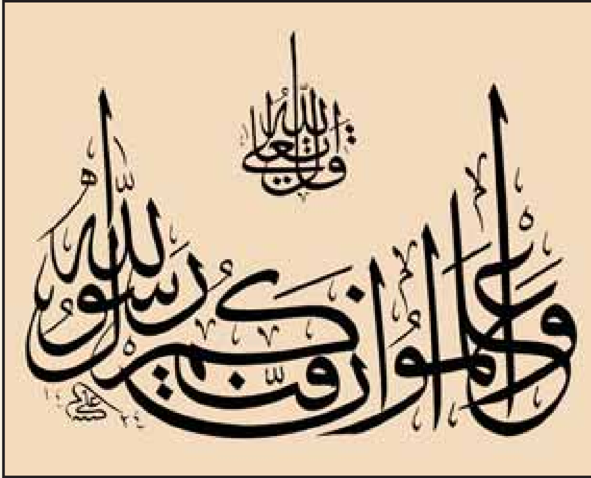
يا ربِّ، أنعم على قلوبنا التي يسكنها حب حبيبك الأكرم بمحبة عارمة جياشة له. وتكرم علينا جميعًا بنصيب من حال جذع النخيل الذي بكى لعشق نبيك ﷺ.

آمين!..



كم نحبه ﷺ ؟

إنّ تأدبنا مع رسول الله، واتباع سنته السنية، ومعرفته حق المعرفة، هو اختبار للتقوى في قلوبنا. وإنه لا يكون قلبًا ذلك القلب الذي لا يمتلئ بأحاسيس الشكر، لكفاحه ودأبه، على هداية البشرية وإنقاذها منذ لحظة تشريفه الوجود بقدومه إلى أن ارتقى إلى ربه.



قال الله تعالى:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ [الحجرات: ٧]

كم نحبُّه ﷺ؟

استخدام العقل والقلب...

لقد ميّز الله ﷻ ابن آدم، وخلقه في أحسن تقويم، وحباه شرف أن يكون أكرم المخلوقات. فضلاً عن تسخير ما في السماء والأرض لخدمته. لأولي الألباب...

هذا يعني أنّ مهمتنا الأكبر هي التفكر في النعم التي تفضل الله ﷻ بها علينا، واستعمالها وفق المقصد الذي مُنحت لأجله. وأننا مكلفون بشكل خاص باستخدام عقولنا وقلوبنا على النحو الأصحّ والأقوَم.

كيف نستخدم العقل؟

بأن لا يكون العقل منقادًا للنفس، وأن يكون على دراية بالحقائق الإلهية، وأن يكون مدركًا بحقيقة أنه يعيش في دنيا امتحان.

كيف نستخدم القلب؟

القلب هو الموطن الحقيقي للعشق الإلهي. وهو محل نظر الإله. لهذا يجب أن يكون مطهرًا من كل نوع من الذنوب وما سواها. وأن يكون عامرًا بالذكر والتوحيد. وأن يكون قلبًا يجدر به أن يرقى سليمًا إلى عظمة ربه في النهاية. ونحو ذلك الاتساق.



سيدنا النبي ﷺ، الأسوة المُثلى...

لقد أرسل الله تعالى نبيه ﷺ لإرشادنا وتحذيرنا، وفضلاً ومِنة منه. فقبل ١٤٠٠ عام من الآن بُعث ما يزيد عن ١٢٤ ألف نبي. فقد جعل الله النبي المعتنى والمستثنى خاتمَ الأنبياء والمرسلين. فكل رسول بعثه الله إلى قوم بعينهم. حيث أرشد كلٌّ منهم قومه وفق التركيبة الاجتماعية لهم. أمّا نبينا ﷺ فقد بعثه للبشرية كافّة. وسلّمها لتبليغه ودعوته إلى قيام الساعة.

لقد أنعم الله به وحده، كشمس مضيئة للبشرية في أكثر أزمنتها جاهلية وكفرًا. وأحسن على العالمين به نعمة وهداية.

أعظم المعجزات...

لقد تكرّم الله تعالى على سيدنا الرسول ﷺ بأعظم المعجزات، وهي القرآن الكريم. فالقرآن سيبقى شاهداً على كلام الله، ومصدقًا على نبوة محمد ﷺ إلى قيام الساعة. وستبقى هذه المعجزة التي مُنحت لسيدنا رسول الله ﷺ مرئية معروفة بينةً لكل من يأتي من بني الإنسان إلى قيام الساعة.

لقد بنى الرسول ﷺ من خلال معجزة القرآن ذلك المجتمع الذي بلغ من حسنه أن سُمي مجتمع عصر السعادة. ذلك المجتمع الذي لا نظير له في الدنيا. ففي ذلك الزمان ولد من رحم إنسانية الجاهلية، أي من أناس بلغوا في الجهالة ما هو أسفل من قيعان المحيط الهندي، أناس يرتقون في الحضرة قممًا تعلوا جبال هملايا. فقد أضحى ذلك المجتمع الذي كان يئد الوليدة حية، بفضل تعاليم النبي ﷺ وفيض روحانياته، مجتمعًا يفيض بأحاسيس الرحمة والشفقة، لدرجة عدم تحمل حتى أن يفترس ذئب شاة ضعيفة على شاطئ الفرات. إنّ هذا التوفيق الذي ناله رسول الله في تحويل ذلك المجتمع يكفي إثباتًا على السمو والعظمة في شخصيته، وعلى أنه الأسوة الحسنة المُثلى.



العميان يعيبون الشمس...

لا مناص من أن تراه العيون إن لم يكن بها عمى. ولا مناص من أن ترى كماله إن لم يكن بها رمد. والذين يحاولون عبثاً أن يُلِحقوا به نقصًا هم في الأصل يعبرون عن عجز وضعف أنفسهم ليس إلا. فالتاريخ يعج بالذنوب والمظالم القبيحة التي اقترفتها الأقوام بحق أنبيائهم. فبعض الناس، ولأنّ الحقائق الإلهية التي بلغها الأنبياء لم توافق أهواءهم الدنيوية، كانت صدورهم تضيق بما فيها من خيرات. فحاولوا وسم نقصهم وقباحاتهم بالأنبياء بغرض إضفاء المشروعية على حياة الأهواء التي كانوا يعيشونها. ولهذا، فإنّ حملات الافتراء القبيحة التي قامت اليوم ضد النبي ﷺ ليست إلا انعكاسًا لأخلاق أصحابها السيئة وسوء طالعهم. وكم هو جميل قول حضرة مولانا:

«إنّ تعييبي للشمس التي تضيء دنيانا، وإلحاق النقص بها، يدل على عمى وظلمة وطمس في عينيّ».

«إن أراد الله هتك ستر أحد، وفضح عيبه، زرع في قلبه الرغبة في ذم الأنقياء».

على الإنسانية أن تدع الذم، وأن تفكر في كيفية التعبير عن الشكر لرسول الله ﷺ. لأنه ليس بقلب، ذلك القلب الذي لا يفيض بأحاسيس الشكر، لكفاحه ﷺ وجهاده في هداية البشرية وإنقاذها، منذ أن ولج الدنيا إلى أن فارقها.

رأفة النبي ﷺ بنا...

انظروا كيف يعبر الله تعالى في سورة التوبة عن كفاح النبي ﷺ واستبساله لنجاتنا وسعادتنا:

﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

أي أنّ محبة الرسول ﷺ هي محبة تفوق حب الوالدين لأولادهم. فهو سيدنا النبي ﷺ الذي آلمه هو البلاء الذي تتعرض له أمته. فهذا النبي الرحيم الرؤوف بنا، وكما جاهد وكافح طيلة حياته من أجل نجاتنا وعفو الله عنا، سيخر يوم القيامة ساجدًا لربه باكيًا مطيلاً السجود والتوسل إلى ربه حتى يؤذن له بالشفاعة لنا. (انظر، البخاري، الأنبياء ٩،٣؛ مسلم، الإيمان ٣٢٧-٣٢٨؛ الترمذي، كتاب القيامة، ١٠).

وعلى هذا، أليس من المفترض بنا اليوم أن نشكر نبيًا يكافح من أجل الشفاعة لنا بأن نسعى لنجعل من أنفسنا أولئك المؤمنين الذين طمح إليهم، وأن نسعى لامتلاك قلوب مفعمة بعشقه، جاعلين منه أعزّ علينا من أرواحنا؟.

إنّ المحب لمن يحبَّ يتبع...

يقول النبي ﷺ:

«**المَرْءُ مَعَ مَنْ أحبَّ**» (البخاري، ٦١٦٨)

فإلى أي درجة نحب نحن سيدنا رسول الله ﷺ؟ علينا بالتأكيد أن نعيش فهم هذا الحب على أنه أمر يتبادله المحب مع من يحب. فالمرء مع حبيبه قولاً وفعلاً، وكذلك في التصرفات والسلوكيات، وفي الأحاسيس والأفكار، وفي المعيشة. فإن افتقر الحب إلى هذه المعية، واتخذ المحب سبيلاً مخالفًا لمحبوبه فإنه في هذه الحال لا يكون مع محبوبه، وذلك يعني أنه لا يحبه.

وعلى هذا، إلى أي درجة نحب نبينا اليوم؟ إلى أي حد نحن متمسكون بسنته السنية؟ إلى أي حد يمكننا أن نتحدث ونعرّف أولادنا، ومن يحيط بنا، بسيدنا رسول الله ﷺ؟.

التبعية له تتطلب تحصيلاً قلبيًا...

إنّ سعادتنا في هذه الدنيا المضطربة، وفي المحشر المهيب، تقتضي أن نجعل النبي ﷺ قدوة لنا في شتى مجالات حياتنا. فعلينا اتخاذه قدوة في الحياة الاجتماعية والحياة العائلية وحياة العمل. إنه الأسوة المُثلى لكل الناس من أدنى طبقاتهم إلى أعلاها. فكيف لنا أن نتخذه قدوة؟ أبالقراءة من كتاب؟ كلا، بل بتحصيل تلك القدوة من دنيا قلوبنا. ويبين الله تعالى لنا أصول هذا التحصيل في سورة الأحزاب.

إنّ أول شرط لهذا التحصيل: هو ارتقاب لقاء الله، وأن يغدو القلب في معية الله. إلى أي درجة من المعية؟ هذا ما يبينه الله تعالى في قوله:

﴿...فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ...﴾ [النساء: ١٠٣]

يعني معية مستمرة، والشعور الدائم بالوجود تحت مراقبة الكاميرا الإلهية. إنّ ربنا أقرب إلينا من حبل الوريد. فإلى أي درجة نحن منه قريبون؟ إنّ تحقيق هذا القرب يستوجب علينا أن نتخذ النبي ﷺ قدوة لنا.

الشرط الثاني لهذا التحصيل: ارتقاب لقاء الآخرة. فعلينا تجاوز إطار المفاهيم الفانية، وتخطي حدودها. وكم يعبر حضرة مولانا بشكل جميل عن ذلك فيقول:

«إنّ الحياة الدنيا عبارة عن رؤيا، وإنّ امتلاك الثروة في الدنيا يشبه العثور على كنز في الرؤيا، فما الدنيا يبقى فيها يُتداول من جيل إلى جيل».

ومن هذا المنطلق، فمن الضروري أن نعي أننا نعيش في دنيا امتحان. وبهذا الوعي، علينا التخلص من أهوائنا الدنيوية. وأن نجعل من قلوبنا سائحة في النهاية. وعلينا أن نكتسب هذه الماهية، حتى تغدو الآخرة بالنسبة لنا ساحة



لقاء. ومن أجل تحصيل ذلك، علينا أن نتخذ سيدنا رسول الله ﷺ قدوة لنا، وأن نستقي منه الدروس. عندها يتحقق وعد الله بالجنة. وأنه سيتفضل علينا بالنظر إلى وجهه الكريم.

أين نحن من مكانة النبي ﷺ...

لا يمكن التوجه إلى سبيل الله دون معرفة قدر سيدنا رسول الله ﷺ ومكانته. فالله تعالى يخبرنا بخصوصية القيمة التي منحها لنبيه ﷺ بقوله في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦]

إنّ الله تعالى يصلي على نبينا ﷺ. يصلي على أكرم من خلق. وإنّ إدراك الماهية الحقيقة لذلك غير ممكن بقلوبنا وأحاسيسنا وإدراكنا. فكيف يصلي الله تعالى على مخلوقٍ خلقهُ؟ ومع بعض الإيضاحات المتعلقة بذلك الأمر في بعض كتب التفسير، إلا أنّ الماهية الأساسية لذلك هي أمر مغيب عند الله تعالى. إنه سر إلهي. لكن ما ندركه جيدًا من ذلك أنّ رسول الله يحظى بمحبة وعناية استثنائية من الله تعالى. والله تعالى يطلب منا ويأمرنا أن نعي ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

لكن هذه الصلاة وهذا التسليم لا ينبغي أن يكون مقتصرًا على ألسنتنا. يجب أن نكون في ماهية صلاة وتسليم عليه في كل أحوالنا. وأن يظهر ذلك في إطار فهم يليق بالصلاة والتسليم على نبينا ﷺ في حياتنا الاجتماعية والعائلية، وفي معاملاتنا مع الناس، وفي كل سلوكياتنا. فعلى سبيل المثال، ينبغي التفكر على الشكل الآتي، هل سيقابل رسول الله بابتسامة الرضا، ما يعرض عليه من

تصرفاتي في حياتي العائلية وتجارتي ومعاملاتي مع الناس؟ هل سيقابل بابتسامة تربيتي لأولادي؟ هل سيقابل بالتبسم من عبادتي؟.

إن لم نسأل أنفسنا وقلوبنا اليوم هذه الأسئلة ونحاسبها بها، ونزنها عليها، سنكون أمام حساب وميزان عسير غداً في يوم المحشر. ومما لا شك فيه، سيقال لنا يوم القيامة عند الحساب:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٤]

إذاً، سنرى كل أحوالنا، ما ظهر منها وما بطن في كتاب أعمالنا. وسنشاهد شريط حياتنا. كيف أدينا صلواتنا؟ وكيف صمنا صيامنا؟ هل أدينا عبوديتنا بصورة شكلية، أم أننا استطعنا أن نؤديها بأرواحنا وقلوبنا؟ ما الذي فعلناه حيال نعم الله التي لا تحصى عندما كنا في الدنيا؟ كم استطعنا أن ننفق مما تفضل الله علينا به من روح وعقل وذكاء ومال وملك؟ وكم منها أذهبناه هباءً، كم أخرجنا منه إلى النفايات بالتعبير الشعبي؟ إلى أي حد أحببنا الله ورسوله وتمثلنا أخلاق رسوله ﷺ؟.

كل هذا سنراه غدًا في كتاب أعمالنا، وسنشاهده على شاشة الآخرة. لكن المسألة هي أن نقدر على مشاهدة أحوالنا ونراها هنا في الدنيا.

امتحان الحب والأدب...

إننا نعيش في دنيا هي عبارة عن مدرسة امتحان إلهي. وأحد أكبر امتحاناتنا واختباراتنا هو امتحان حبنا وطاعتنا لرسول الله ﷺ وتأدبنا معه.

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾

[محمد: ٣٣]



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[الحجرات: ٢- ٤]

هذا يعني أنّ تأدبنا مع رسول الله ﷺ واتباع سنته السنية، ومعرفته حق المعرفة، هي امتحان تقوى لقلوبنا. وهي وسيلة لتقييم عشقنا له. وهي في الوقت نفسه وسيلة للقرب من الله...

إحدى النتائج التي تظهر لنا من هذا، كيف نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا؟

كيف نسعى لوزن حياتنا على ميزان حياة رسول الله ﷺ؟ إنّ تعليمات القرآن البينة في هذا الخصوص هي:

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾

[النساء: ٨٠]

مقياس الحب له ﷺ ...

إنّ الحديث التالي، الذي يرويه عبد الله بن هشام، يزخر بالمعاني في تحديد السوية التي ينبغي أن تكون فيها محبة رسول الله ﷺ:

قال: كُنّا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ:

«لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»



فقال له عمر رضي الله عنه: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عُمر**» (البخاري، الأيمان، ٦٦٣٢)

إذًا ينبغي علينا أن نكون تابعين لسيدنا المصطفى ﷺ بمحبة مثل هذه. وأن نجعله سلطانًا متفردًا على عروش قلوبنا، ودليلاً وهادياً لحياتنا. فحبه فرض علينا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...**﴾ [الأحزاب: ٦]

أي أنه يجب أن يكون أقرب إلينا من أنفسنا ومقدماً عليها عندنا.

ومن هذا الاعتبار ذُكر حب النبي ﷺ في الحديث، شرطًا للإيمان:

«**فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**» (البخاري، الإيمان، ٨ / ١٤)

ولهذا كان الصحابة الكرام يسارعون ويتسابقون في تلبية حتى أصغر طلب للرسول ﷺ قائلين: «بأبي وأمي وأهلي ونفسي ومالي يا رسول الله». ويحاولون بأي وسيلة أن يثبتوا له حبهم.

إنّ عدم المبالاة بهذه المحبة، ولا سيما التصرف دون مراعاة حرمتها، هو من آثار الجاهلية. وإنّ التمسك بهذه المحبة هو وصفة النجاة.

علامة المحبة لهُ ﷺ ...

يتحدث الإنسان عمن أحبّ كثيرًا، ويعبر في كل مناسبة عن حبه الكبير لهذا المحبوب، ويتكلم في كل وقت في مواضيع تدور في فلك حبه الدائم له. فيتحدث رجل الأعمال الذي وهب نفسه لتجارته عن تجارته دائماً. فيقول ربحت كذا وخسرت كذا، وهذا فيه مكسب وذاك فيه خسارة، وما شابه.



ولا بد لوالد أُغرم بحب ولده أن يتحدث عن ولده هذا في كل مكان وفي كل وقت.

أمّا الصحابة الكرام وأولياء الله الكبار، فقد تحدثوا دائمًا عن رسول الله ﷺ، واكتسبوا من ذلك لذّة أبدية.

فقد كانوا يسيرون من الطرق التي سار منها سيدنا النبي ﷺ، ويشمون عبير الزهرة التي اشتمها. حتى أنّ الإمام النووي لم يأكل البطيخ، لأنه لم يجد في أحاديث النبي كيفية تقطيعه ﷺ للبطيخ.

وقد قال حضرة الشيخ أحمد اليسوي:

«لقد فارق رسول الله الدنيا وذهب إلى ربه في سن الـ ٦٣، فلن يكون لي بعد الـ ٦٣ شأن في هذه الدنيا».

واتخذ لنفسه مكاناً تحت الأرض وجعله معتكفا له إلى أن توفاه الله، وكان يتابع وعظه في ذلك المكان.

هذه الأحوال رغم أنها كانت مخصوصة لأشخاص بعينهم، إلا أنّ كلا منها يشكل مظهرًا من مظاهر المحبة العارمة الجياشة.

ويسأل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ابنته عائشة رضي الله عنها:

«في أي الإيام نحن يا ابنتي»

فتقول رضي الله عنها: «إنه يوم الاثنين يا أبتِ»

فيقول رضي الله عنه: «إن مت اليوم يا ابنتي فلا تؤخروني، خذوني وادفنوني جنب رسول الله ﷺ».

هذا هو العشق للنبي الذي يملؤه شوق اللقاء به، فنسأل الله تعالى أن ينعم علينا جميعًا بمعرفة نبينا ﷺ حق المعرفة ويرزقنا حبّه.



إنّ وصفه بما يليق به أمر صعب...

لقد طلب أحد رؤساء القبائل التي أسلمت بعد وفاة الرسول ﷺ من خالد بن الوليد رضي الله عنه:

«صف لي رسول الله ﷺ»

قال خالد رضي الله عنه:

«لا يمكنني وصفه»

قال الرجل:

«أجمل لنا على قدر ما رأيت وعلمت»

قال خالد رضي الله عنه:

«إنّ الرسول على قدر المرسِل، ومرسِله هو رب الأكوان، فقدِّر قدر المرسل إن استطعت».

نسأل الله تعالى أن يمن علينا بقبس من العشق الذي كان يكنّه الصحابة لرسول الله ﷺ، وأن يجعل حياتنا أجمل بحب النبي ﷺ.

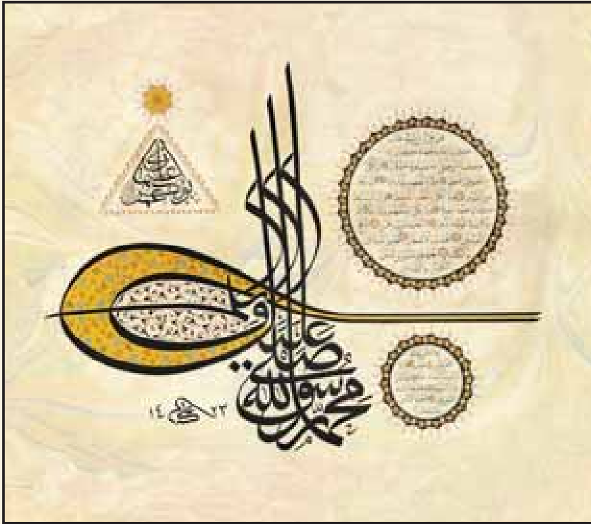
آمين!..



معرفته ، رؤيته ، سماعه ﷺ

إن عرفناه اليوم عرفناه غدًا في المحشر. وإن كنا أهلا لرؤيته، نظر هو أيضًا إلينا. إن سمعناه وأصغينا إليه، يسمع أنيننا. وموجز القول، لنكن تبعًا له فيكون هو شفيعاً لنا وشاهدًا علينا، كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]



معرفته، رؤيته، سماعه

لقد كان ذلك العبد والرسول الذي...

لقد كان مولد النبي ﷺ وتشريفه لهذه الدنيا قبل ما يزيد عن ١٤٠٠ عام من اليوم، هو في الحقيقة ولادة للإنسانية. فكما أضاءت الخليقة بنور محمد ﷺ، فقد أُحييت الإنسانية التي كانت ترزح تحت فساد روحاني في هذه الدنيا الفانية، بنوره عليه الصلاة والسلام.

لقد نُوِّرت البشرية منذ بدء تاريخها باسمه، ونالت به رحمة الله، ثم ولدت من جديد عندما شُرفت بمولده الكريم. فكل عين رأته بعشق، وعرفته بوجد، جعلت نفسها على مدار العمر فراشة تدور فلك شمسه الوضاءة بمحبة وعشق.

فهو حبيب الهدى، الذي حالت جميع المخلوقات عينًا ترقب رؤيته. وكل ما حولها آل نسمًا عليلاً في طريق جريها إليه. وصار من يرجون تقبيل يديه سيلاً جارفاً لا يتوقف.

هو العبد البدر المنير، الأقرب إلى الله بين عباده.

هو الرسول الذي أقسم الله بعمره.

ولم يكن لنا نصيب أن نعيش معه عصر السعادة فنراه. لكن علينا أن نحبه ونتبعه بما ينوب عن رؤيته. فالقلوب والعيون التي تعرفه وتحبه بهذا الشكل، تُكتب لها رؤيته.



وعلى هذا،

إن أسمى غاية لمعرفة النبي ﷺ ومحبته، هي رؤيته. لأنه لا يوجد عقل سليم لا يحبه ويقدره ويتقبله ويعشقه ويجن بعشقه، بعد أن يعرفه حق المعرفة ويراه. حتى أنّ أعداءه الشياطنة والمحكومين بأهوائهم الدنيوية، لم يسعهم بعد أن رأوا منه وعرفوا عنه القليل إلا أن يصفوه بـ **"الصادق الأمين"**.

ليس هناك عين إلا وهي مفتونة بنوره اللامتناهي. إلا القلوب السوداء التي انغمست في قيعان الظلام. وهؤلاء أيضاً هم بحاجة إلى التمسك بأجنحة وأذرع هدايته، كي يتمكنوا من السير على طرق الأبدية دون التردي في مهاويها.

وملخص القول أنّ البشرية بمجملها، محتاجة لمعرفته، والاقتداء به، ورؤيته والسير معه. وبما فيهم الأنبياء أيضًا. فالكثير من الأنبياء الذين بعثوا بعد آدم عليه السلام، لم يكتفوا بأن يبشروا به، بل تضرعوا إلى الله بلهفة أن يكونوا من أمته.

لهذا، فإنّ رؤيته ونيل معرفته لنا يوم القيامة، والتعرف عليه بخصوصيته السامية، هو بالنسبة لنا مقياس للإيمان والعشق. والحق أنّ التعابير والمعاني التي يمكن صوغها بالكلمات في موضوع وصف جمالياته وصفاته التي تحصى، لا يكاد يعد تمهيدًا لذلك. وهذا بعض ما قيل في تمهيد هذا الباب، عن خصوصيته ومكانته العالية السامية:

نبي الأنبياء...

روى قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنّ سيدنا موسى عليه السلام قال:

«ربِّ إني أجد في الألواح أمة هي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فلتجعلهم أمتي. قال الله تعالى: «تلك أمة

أحمد». قال موسى عليه السلام: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون، آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة، ربّ اجعلهم أمتي. قال الله تعالى:«تلك أمة أحمد». قال موسى عليه السلام: رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فروع الضلالة حتى يقاتلون الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي. قال الله تعالى: «تلك أمة أحمد». قال موسى عليه السلام: رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، رب اجعلهم أمتي. قال الله تعالى: «تلك أمة أحمد».

قال قتادة، فذكر لنا أنّ نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد». (الطبري، ٩/ ٨٧-٨٨؛ ابن كثير، التفسير، ٢/ ٢٥٩، تفسير الآية ١٥٤ من سورة الأعراف).

لقد حقق النبي محمد ﷺ الذروة والقمة في خصال الخير والأخلاق لما يزيد عن – بحسب إحدى الروايات- ١٢٤ ألف من الأنبياء المعروفين وغير المعروفين الذين بُعثوا من قبله، وتحلّى بصفات تفوق صفاتهم جميعاً. فهو علاوة على كل التطوير والتنمية التي أحدثها في فكر ومعيشة البشرية في زمن نبوته، هو الشخصية التي يُمتثل لتعليماتها لتلبية كل ما قد تواجهه البشرية من احتياجات إلى يوم القيامة.

لذلك أُرسل في آخر الزمان نبي للبشرية كافة. واجتمعت فيه كل خصال الخير. بل أُنعم على شخصيته السامية، بكل خصلة من خصال الخير التي تلزم الإنسان إلى يوم القيامة، لأنه لا نبي من بعده. وما من شأنه أن يقوله كل ناظر وقارئ في حليته الشريفة هو التالي:



أجمل الجميلين...

بكت فاطمة رضي الله عنها في مرض وفاة الرسول ﷺ وقالت:

«لن أرى وجهك بعد الآن يا رسول الله»

فدعا رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه وقال:

«اكتب يا علي حليتي، فرؤية أوصافي كرؤيتي».

وملخص ما جاء في عدة روايات كالتالي:

لقد أُوتي جمالاً استثنائيًا في هيئته، كالجمال الذي أوتيتْه روحه ﷺ.

وقد وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها نور وجهه بضياء البدر قائلة:

«استعرت إبرة من حفصة بنت رواحة كنت أخيط بها ثوب رسول الله ﷺ، فسقطت عني الإبرة، فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله ﷺ فتبينت الإبرة بشعاع نور وجهه». (رواه الأصبهاني في دلائل النبوة، وابن عساكر في تاريخ دمشق)

يوجد بين عظم كتفيه خاتم النبوة. وقد عاش كثير من الصحابة اللهفة والشوق إلى تقبيله. وقد كان زوال هذا الخاتم أثناء وفاته دليلاً على ارتحاله إلى عالم الغيب. (الترمذي)

ولأنّ جسده كان من عنصر نوراني، لم يطرأ عليه أي تغير عند وفاته. وقد نظر أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى " نور الوجود" مغموماً محزوناً دامع القلب والعين وقال:

«طِبتَ حيًا وميتًا يا رسول الله».

لقد كان لرسول الله ﷺ ملاحةٌ نورانية في وجهه، وسلاسة في كلماته، ولطافة في حركاته، وطلاقةٌ في لسانه، وبلاغة فائقة في بيانه.



لم يكن يقول كلامًا عبثًا، فقد كان كل كلامه حكمة ونصحًا. ولم يكن في كلامه ثرثرة وسفاسف. وكان يخاطب أي شخص بكلام يناسب عقله وإدراكه.

كان لطيفًا ومتواضعًا. وكان إذا ضحك تبسم دون مبالغة. وكان دائم التبسم ﷺ.

كانت الرهبة تعتري من يراه للوهلة الأولى. وكان من يألفه ويحادثه يصير عاشقًا محبًا له بقلبه وروحه.

وكان دائم اللطف مع من يخدمونه. وكان يطعمهم مما يأكل ويكسوهم مما يكتسي. كان صاحب كرم وإكرام، وكان رؤوفًا رحيمًا عطوفًا، وشجاعًا مقدامًا عندما تقتضي الضرورة شجاعًا، وعندما تقتضي الضرورة حليمًا.

كان ثابتًا عند عهده ووعده صادقاً في قوله.

كان يفوق الناس في حسن خلقه، وفي فطنته وذكائه، وكان جديرًا بكل مدح وثناء.

ومجمل القول، أنه كان حسن الصورة، طيب السيرة، مخلوقًا مباركًا لم يُخلق مثله.

أتقى الأتقياء...

خضعت لحكمه كل الأمصار طوعًا وحبًا. وصار حاكمًا لجزيرة العرب من أولها لآخرها. وكان بإمكانه أن يفعل ما يشاء. وبينما كان على هذه الحال تابع عيش حياة البساطة. وقال إنه لا يملك أي شيء. وكان يصرح أنّ كل شيء بيد القدرة الإلهية.

مر عليه زمان كان يتحكم بثروة هائلة. فقد تدفقت على المدينة المنورة ثروة من الكنوز عبر القوافل. فوزع هذا كله على المحتاجين وتابع عيش حياته الزاهدة. وكان يقول:

«لو كان لي مثل أحد ذهبا ما يسرني أن لا يمر علي ثلاث، وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين» (البخاري، التمني،٢/ ٢٣٨٩؛ مسلم، الزكاة، ٣١)

متواضع المتواضعين...

كان للنبي ﷺ قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال، فلما أضحوا وسجدوا الضحى أتي بتلك القصعة - يعني وقد ثرد فيها - فالتفوا عليها، فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟ قال النبي ﷺ :

«إن الله جعلني عبدا كريما، ولم يجعلني جبارا عنيدا» (أبو داوود، الأطعمة، ١٧/ ٣٧٧٣)

أرضى الراضيْن...

كانت تمر أيامٌ ولا يوقد في بيت الرسول ﷺ نار، وكان كثيرًا ما ينام خاوي البطن. (أحمد ٦/ ٢١٧؛ ابن سعد ١/ ٤٠٥)

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

دخلت على رسول الله ﷺ، وهو على حصير، قال: فجلست، فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع، وقرظ في ناحية في الغرفة، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال:

«ما يبكيك يا ابن الخطاب؟»

فقلت: يا نبي الله، ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى، وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك، قال:

«يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟»

قلت: بلى. (الطبراني المعجم الكبير ١٠ / ١٦٢؛ ابن ماجة، جـ٥ ص ٥٨٣ رقم ٤١٥٣)



ألطف اللطفاء...

لقد كان رسول الله ﷺ صاحب قلب رقيق وحساس ولطيف إلى درجة كبيرة، ففي يوم من الأيام، رأى رجلاً يبصق في الشارع فاحمرَّ وجهه الشريف فجأة، ووقف في مكانه. فسارع الصحابة إلى تغطية البصاق بالتراب، ثم تابع الرسول ﷺ طريقه.

إنّ الرسول ﷺ الذي أمر بحسن الهندام، ولا يريحه اتساخه وسوء مظهره، لم يكن يأمر مباشرة بتصحيح شعث الشعر واللحية. فعندما كان في المسجد وظهر أمامه رجل ثائر الشعر واللحية. فأشار له رسول الله ﷺ بيده أن يقوم بتصفيف شعره ولحيته. وعندما أذعن الرجل لهذا الأمر وصفف شعره ولحيته قال له رسول الله ﷺ:

«**أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان**» (الموطا، الشعر ٧، البيهقي شُعب الإيمان، ٥/ ٢٢٥)

دُرة الدرر...

لم يحدث أن تكلم رسول الله أبدًا بصوت عال. وكان يمر بالناس بتودد وتبسم. ولم يكن يخاطب الناس مباشرة إذا سمع كلمة استقبحها منهم. فكان مَن حوله يحتاطون في كلامهم وحركاتهم لأنّ تعابير وجهه كان تعكس موقفه. وكان حييًا فلا يقهقه في ضحكاته بل يكتفي بالتبسم. ووفق ما روى الصحابة عنه، كان ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها. فكان درة الدرر بأخلاقه وأدبه.

وقد قال ﷺ في الحديث:

«**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**» (البخاري، الايمان، ١٦)



وقال ﷺ:

«**الحياء والإيمان في قرن، فإذا سلب أحدهما اتبعه الآخر**» (الطبراني، المعجم الأوسط، جـ٨، ص١٧٤/ ٨٣١٣؛ البيهقي شعب الإيمان، ٧٣٣٠)

بطل الأبطال...

لا يمكننا أن نتصور أنّ هناك بطلاً مقدامًا أشد إقدامًا من رسول الله ﷺ. لأنه لم يُرَ وقد اعتراه خوف أو قلق أبدًا. فقد كان يبدي صبرًا وثباتًا في النوازل، ولم يعانِ الارتباك الذي يدفع إلى تصرفات غير مناسبة. فقد عبر بقرب من كانوا يتربصون به قتلاً بقراءة آيتين من سورة يس، دون خوف أو وجل:

ويقول سيدنا علي رضي الله عنه:

«لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا» (أحمد، مسند، جـ٢، ص ٨١/ ٦٥٤)

أسخى الأسخياء...

كان رسول الله ﷺ يصف نفسه بأنه عبد موكل بالإنفاق، وأنّ مالك كل شيء ومعطيه هو الله ﷻ. جاء في إحدى الروايات:

رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينا رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعما وشاء ورعاء، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟**». قال: نعم. قال: «**هو لك وما فيه**». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله! وأسلم مكانه.. (الواقدي، المغازي، ٢/ ٨٥٤-٨٥٥)



خير الأخيار...

لقد كانت النساء في الجاهلية تلقى معاملة تمتهن حقوق المرأة وحساسية موقعها. فكان كثير من أهل الجاهلية يئدون بناتهم أحياء خشية العار والرذيلة.

فكانوا بضمائرهم المتحجرة يدرؤون خوفهم من مصيبة سببها الجهالة بتلك الجريمة القبيحة. ويصور الله حالتهم هذه في سورة النحل في آيتها الثامنة والخمسين على الشكل التالي:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]

كانت النساء تُحقَّر وتُذل، باعتبارها أداة للمتعة وبشكل يمتهن الكرامة. وقد صينت حقوق المرأة بأمر من رسول الله ﷺ فغدت مثال العفة والحضرة في المجتمع. ونالت مؤسسة الأمومة تشريفًا عظيمًا. فنالت المرأة مكانة تليق بها، بالتشريف المحمدي لها في الحديث:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم، قال: «**فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها**» (النسائي، الجهاد،٦/ ٣١٠٤؛ أحمد، ٣/ ٤٢٩؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ١٢٥)

أسمح السُمحاء...

لقد كان عكرمة بن أبي جهل من الأعداء المعروفين للإسلام. وقد فرَّ بعد فتح مكة إلى اليمن. وكانت زوجته مسلمةً، فأحضرته إلى رسول الله ﷺ فقابله ببشاشة قائلاً: «**مرحبًا بالراكب المهاجر**» (الترمذي، الاستئذان، ٣٤/ ٢٧٣٥)

ولم يواجهه بما ألحق بالمسلمين من أذية، وعفا عنه. وكان رسول الله ﷺ يدعو دائمًا:

«**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» (ابن ماجة، المناسك، ٥٦؛ أحمد، ٤/ ١٤)

رحيم الرحماء ...

لقد كانت كل سلوكيات نبي الرحمة رحمةً ومحبة. فقد كان يتقرب من كل الخلق بمرحمة، ويلبي احتياج كل محتاج. وحتى الحيوانات نالت نصيبها من بحر رحمته الواسع هذا.

فالناس في الجاهلية كانت تتصرف بلا رحمة ولا إنصاف حتى مع الحيوانات أيضًا. فكانوا يقطعون أذيال الحيوانات، ويقتطعون ويأكلون - بلا شفقة- من لحومها وهي حية. وينظمون مسابقات لمصارعة الحيوانات بعضها بعضًا. فأتى النبي ﷺ على هذه المظاهر الخادشة للوجدان ووضع نهاية لها.

وقد مرَّ رسول الله ﷺ على حمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال:

«**لَعَنَ الله الذي وسمه**» (البخاري، الذبائح، ٢٥)

وقد قال لمن أخذوا من الطائر فراخها:

«**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**» (أبو داوود، الجهاد، ١١٢، الأدب، ١٦٣-١٦٤)

ومَرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال:

«**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**» (أبو داوود، الجهاد، ٤٧/ ٢٥٤٨)

وكم يزخر بالمعاني قوله في الرحمة:

«**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله**» (الترمذي، البر، ١٦/ ١٩٢٤)



أخ لأخوته...

عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا»

قالوا: أولسنا إخوانك؟ يا رسول الله قال:

«أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»

فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ يا رسول الله فقال:

«أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله؟»

قالوا: بلى يا رسول الله قال:

«فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا»(مسلم، الطهارة، ٣٩، الفضائل، ٢٦)

خُلاصة القول...

إنّ معرفة نور الوجود، وسلطان العالمين، نبينا محمد ﷺ، معرفة ترقى إلى رؤيته، والعيش بالاقتداء بخصاله السامية العالية التي أثنى الله عليها، هي بركة فريدة من شأنها أن تجعلنا ننال شرف ومزيّة أن نكون أخوة له في الآخرة. تلك بركة أُنعِم على كل البشرية أن تستظل بظلها وصولاً إلى سلامها الأبدي. وهي بركة ورحمة يلجأ إليها كل العاصين والمذنبين. إنها بركة ورحمة تشكل بابًا لنا لنيل الشفاعة والنجاة في الدارين.



لهذا، فإنه من الواجب علينا معرفته ورؤيته وسماعه ﷺ. فإن عرفناه اليوم عرفناه غدًا في المحشر. وإن كنا على أهلية رؤيته، سينظر إلينا. وإن سمعناه وأصغينا إليه سيسمع هو إلينا. وبذلك نغدو أيضًا انعكاسًا يعكس للبشرية أنه الأسوة الحسنة المثلى. فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً...﴾ [البقرة: ١٤٣]

نسأل الله أن يحشرنا معه في الدنيا والآخرة! وأن يجعلنا من أهل شفاعته الجليلة في أهوال القيامة.

ونسأله تعالى أن يمن علينا جميعًا أن نعرف نبيه ﷺ كأننا نراه، وأن نتخلق بخلقه العظيم من خلال سماعه والإصغاء إليه. وأن ينعم على قلوبنا بمزيد فيض ممّا غرسه في العالمين من رحمة وبركة وعشق لا نهاية له. وأن يضفي على ذرياتنا وأوطاننا ربيعًا من عشقه لا يصيبه ذبول.

آمين!..



دعاؤه ، ضحكه ، حزنه وبكاؤه من أجلنا

لقد كان ﷺ رسول العفو.

فقد عفا حتى عن هند التي لوّعت قلبه بعمه حمزة رضي الله عنه.

وعفا أيضًا عن المرأة التي اقترفت جريمة تسميمه.

وعفا عن الذين صنعوا له سحرًا.

فكم أحيا بعفوه من الأرواح الميتة حياةً أبدية



بكاؤه وضحكه
وحزنه ودعاؤه من أجلنا

لقد أمضى عمره كفاحًا من أجلنا...

لقد عاش ﷺ عمره وهو ينادي «**أُمتي، أمتي**»

وقد قال يومًا لصحابته:

«**ألا! إني لكم بمكان صدق حياتي، فإذا مت لا أزال أنادي في قبري: "يا رب أمتي أمتي" حتى ينفخ في الصور النفخة الأولى...** " (علي المُتّقي، كنزُ العمّال، جـ ١٤ ص ٤١٤)

كما أنه رحل إلى الرفيق الأعلى مناديًا: " **أُمَّتِيْ أُمَّتِي**".

وقد لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقول:

«**مَوْعِدُكمْ مَعيَ عِندَ الحَوْضِ**»، معبرًا عن محبته لنا، ورحمته بنا، ولهفته علينا.

ويبين قول الله تعالى في القرآن:

﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]

أنّ بكاءه ﷺ، وضحكه، وحزنه وفرحه، ودعاءه والتجاءه كان كله من أجلنا.

حتى أنه فكر وانشغل بنا في وقت له خصوصية كمعراجه...



اللهم احفظ أُمتي...

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄، أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷿ في إبراهيم ﵇: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي...﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وَقَالَ عِيسَى ﵇: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تغفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**»، وبكى، فقال الله ﷿: «يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله ﷿: «يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك». (مسلم، الإيمان، ٣٤٦/ ٢٠٢)

نعم لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ حريصًا على أمته رحيمًا بها إلى هذه الدرجة.

وعن أبي ذر، قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فلما أصبح، قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها وتسجد بها قال:

«**إني سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئا**» (أحمد، مسند، ٢١٣٢٨)

كم علينا عندما نتفكر في هذا الحديث أن نحاسب أنفسنا على ما أضمرناه ونميناه من المحبة له في قلوبنا.

فالله أنعم علينا بنبي كهذا، هو أرحم بأمته وأكثر شفقة عليها من رحمة وشفقة الوالدين بأولادهم. وهذا يعني أنه ﷺ صاحب الحق الأكبر علينا بعد الله تعالى. فرحمته ورأفته بأمته هي أكبر بكثير من أن تسعها الكلمات.

نِعم المربّي...

إنّ أهم نقطة في أسلوب تربية النبي ﷺ، هي السمو والرفعة التي ينالها المؤمنون بالتخلق بأخلاقه. فقد كان رحيمًا وأراد أن تكون أمته رحيمة. وكان كريمًا، ويتمنى على أمته أن تكون كريمة. لقد كان يسعد باشتماله على خصال الخير، لكن مما لا شك فيه أنه يكون أكثر فرحًا وسعادة إن تحلت أمته بتلك الخصال.

وقد قال رسول الله ﷺ يومًا:

«**لن تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على ما تحابوا عليه؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**أفشوا السلام بينكم تحابوا، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا**» قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة**» » (الحاكم، المستدرك، ٤،١٨٥/ ٧٣١٠)

غيض من فيض من أمثلة الرحمة...

مرَّ النبي ﷺ برجل أضجع شاة يُريد أن يذبحها وهو يَحِدُّ شَفْرته، فقال ﷺ:

«**أتريد أن تميتها موتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها**» (الحاكم، ٤، ٢٥٧،٢٦٠/ ٧٥٦٣)

و مَرَّ النبي ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ (من شدة الجوع)، فَقَالَ:

«**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**»

(أبو داوود، الجهاد، ٤٧/ ٢٥٤٨)

وقد قال ﷺ لمن أخذوا من الطائر فراخها:

«**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**» (أبو داوود، الجهاد، ١١٢، الأدب، ١٦٣-١٦٤)

يا ترى كم نلنا نصيبًا من تجليات الرحمة هذه؟



الرحمة حتى على غلاظ الطباع...

إن الواقع الذي يعيش فيه الإنسان يؤثر على تصرفاته، فكل شخص يتصرف بخيرية حين يكون بين الأخيار. ويكون من العسير عليه أن يسيء التصرف بينهم.

ولهذا، فإنّ الأمر الأهم، هو إبداء الصبر والسلوك الحسن، في الأوقات العصيبة وبين الناس الأفظاظ. وتزخر حياة سيدنا الرسول ﷺ بأمثلة لا عديد لها عن ذلك.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء» (البخاري، الخُمس، ١٩؛ اللباس، ١٨؛ الأدب، ٦٨؛ مسلم، الزكاة، ١٢٨)

من اللافت للنظر إلى درجة كبيرة، أنّ الرسول ﷺ قابل باللطف والتبسم ذلك التصرف الفظ الذي آذاه، وكم هو خلق عظيم عدم قوله للأعرابي الفظ «لماذا جرحت عنقي»، بل استمرّ بالتبسم في وجهه.

إنّ هذه هي القواعد السامية التي علّمها صحابته الكرام رضوان الله عليهم، وجعل منهم نجومًا لامعة في سماء الإنسانية. وهذا مثال جميل آخر عن هذا التعليم الروحاني:

عن سعيد بن المسيب أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه



أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ:

«**نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان**» (أبو داود، الأدب، ٤١/ ٤٨٩٦)

عليك سلام الله!...

كان رسول الله ﷺ دائماً يوصي بالصبر ضد غلاظ الطباع والسيئين والأشخاص المبتذلين، ويأمر بالمعاملة الحسنة معهم كما في الأمثلة آنفة الذكر، وكان لديه ﷺ أقصى درجة من الحساسية بهذا الشأن، وبذلك يظهر أنه دائماً يؤثر ما كان يوافق جانب الخير والسعادة الأبدية. هناك حوادث تختلف نتيجتها عما كانت عليها في البداية. فلذا المهم القيام بما هو رابح في الأخير. وهذا يتطلب بلا شك نضجاً عظيماً وكمالات نبوية أيضاً.

قال الله تعالى في عباده القائمين بهذا الخلق مثنياً عليهم:

﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣]

أصعب شيء هو تطبيق خلق القرآن على حياتنا. ولكن هذا هو الخلق المثالي الذي يريده منا نبينا محمد ﷺ الذي أدبه الله ﷻ بهذه التربية العظيمة.

نبي العفو والمغفرة...

كان النبي ﷺ في عمره كله ممتثلاً للأمر القرآني؛

﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]

فصار بذلك خير مثال لأمته يقتدى به من أجل تحصيل السعادة الأبدية.



فعندما فتح مكة المكرمة عفى وصفح عمّن آذاه وظلمه في الماضي وحتى عن الذين تسببوا لقتل بنته السيدة زينب رضي الله عنها؛ فعفى عنهم جميعاً. وقد أتى إليه ﷺ أولئك الذين أذاقوه كل أنواع الأذى والتعذيب والصعوبات بالأمس بأعناقهم الملتوية و قلوبهم المضطربة سائلين له:

ماذا لديك لنا يا أخي العزيز؟. فقال النبي ﷺ لهم كلمة واحدة:

«**العفو!..**».

لأنه كان نبي العفو والمغفرة. وبالفعل كان يعفو عن كل شخص حتى غفر لهند التي عضت كبد عمه سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه وعفى عن المرأة التي قامت بتسميمه والمرأة التي قامت بعقد السحر عليه. فكان يحيي كثيراً من النفوس الميتة بالحياة الأبدية. فهذا عمر بن الخطاب الذي جاء لقتل النبي ﷺ فبعد أن شرب من ترياقه النبوي ماء الحياة الأبدية صار عاشقاً عظيماً للنبي بوصفه الفاروق.

هذا يعني أن عفوه عن الناس كان مغيراً ومحولاً لهم، فكان منه هذا الخلق عفواً ومغفرة وفضلاً يخرجهم من الظلمات إلى النور. لدرجة أن الله سبحانه وتعالى قد جعله مثالاً يحتذى للبشرية جمعاء. وقد وعد الله سبحانه من يعفو ويصفح، كما يفعل النبي ﷺ، وعدهم بالعفو والمغفرة حيث قال:

﴿...**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢]

من منا لا يحب؟!..

لكن يشترط لهذا أن نكون مسامحين أولاً. بالعفو والمسامحة نرتقي لنكون مستحقين للعفو والمغفرة.

ونعلم أن أبا بكر رضي الله عنه استمر في عطائه على رجل قام بقذف أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك وعفى عنه بعد ما نزلت هذه الأية وكان قد قطع



عنه عطاءه. لأن الله سبحانه في الواقع هو صاحب العفو والمغفرة. وقد قضى أن يتصف بالعفو والمسامحة كل من يريد العفو والمغفرة له.

إذاً القضية هي قضية الرحمة والشفقة، بالطبع، هو الرحمة... وليست الرحمة مجرد رحمة لفئة معينة بل رحمته شاملة للجميع... باختصار:

رحمة للعالمين...

يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

كان رحمة حتى للمشركين في عهده، فقد كان حصانة و منعة لهم أيضاً، فلم ينزل عليهم في مكة المكرمة –رغم ظلمهم وشركهم وعصيانهم لرب العالمين– عذاب من السماء، حرمة للنبي ﷺ، فلم يقع عليهم من السماء نازلة، ولم يأتِ عليهم انتقام إلهي بسبب ما ارتكبوا من معاصي. لأنه كان فيهم رسول الله ﷺ. فيقول الله تعالى معبراً عن هذه الحقيقة:

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾ [الأنفال: ٣٣]

ومع ذلك، عندما هاجر سيدنا ﷺ من مكة إلى المدينة تغير الوضع. فبدأت تنزل على المشركين أنواع البلايا، فنزل بهم القحط والمجاعة فكانوا حينما ينظرون إلى السماء تتغير عيونهم حتى كأن الأرض تنقلب بهم وتدور رؤوسهم من الجوع.

هذا يعني أن من كان في قلبه حب النبي ﷺ فلا يعذب الله هذا القلب. وكيف لا، فهل الله الذي يرحم المشركين بحرمة نبيه ﷺ لا يرحم الذين يحبون نبيه ويتبعون سبيله ويتمسكون بسنته السنية فيعذبهم؟ كلا! إن من لم يحمل في قلبه حب النبي شمس الهداية فلن يفلح من العذاب.



هل هو في قلبنا؟...

لا شك أنه الواجب الأول لكل قلب متيم بمحبة النبي لكونه مكرماً بأن يكون من أمته ﷺ، أن يقابل بنفس المحبة والحنان ذلك النبي الذي لم يزل يذكرنا أمام حضرة الحق سبحانه مدى حياته بلسانه وقلبه.

إلا أن هذا الأمر لا يتم بأن نقول أو نفترض "أنه في قلبنا"، بل لا بد بحكم "المرء يكثر من ذكر من يحبه" من علامة تعكس حال النبي ﷺ في كل حركات المحبين للنبي وسكناتهم، ومن كثرة الصلاة والسلام عليه...

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله!...

إنّ الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وسيلة لمحبته والتأثر به. ويقول الله تعالى في الآية التي يكرم بها نبينا ويبين فيها لنا ما ألقي على عاتقنا من مهمة نغمر بها قلوبنا بفيضه وبركته:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦]

عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه»

قال أبي: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: **«ما شئت»**. قال: قلت: الربع، قال: **«ما شئت فإن زدت فهو خير لك»**، قلت: النصف، قال: **«ما شئت، فإن زدت فهو خير لك»**، قال: قلت:

فالثلثين، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها قال: «**إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك**» (الترمذي، القيامة، ٢٣/ ٢٤٥٧)

إنّ الصلوات الشريفة ذات أهمية كبيرة، فنحن في كل صلاة نقول: «السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله وبركاته». ومن بعد التحيات نصلي عليه أيضًا بالصلاة الإبراهيمية. فالصلاة عليه أمر إلهي عظيم. وقد فُرِضَتْ تأديته في الصلاة التي هي قلب وجوهر العبادات كلها..

وهي أيضًا وسيلة لغفران ذنوبنا... وفضل إلهي خاص...

إنّ الله ﷻ يفتح لنا أبواب العفو إسعادًا وإكرامًا لنبيه ﷺ الذي أمضى عمره حزنًا وقلقًا حرصًا على أمته بعيون دامعة.

وإنّ الصلاة والتسليم على النبي ﷺ هي أكبر وأعظم أبواب العفو هذه...

ما الذي يقع على عاتقنا إذاً؟

علينا المسارعة نحو تلك الأبواب ليل نهار... كما فعل الصحابة، وسلمان الفارسي رضي الله عنه...

سلمان مِن أهل البيت...

لقد كان سلمان الفارسي رجلاً من العجم. لكن شدة حبه واتباعه وتعلقه برسول الله جعلت رسول الله ﷺ يقول فيه:

«**سَلمَان مِنّا أهلَ البَيْت**» (أحمد، مسند، جـ ٢/ ٤٤٦-٤٤٧)

ويقول الحكيم الترمذي رحمه الله في هذا:

«هناك نوعان للانتماء إلى أهل البيت ، أحدهما من طريق النسب والآخر من طريق القلب». لهذا فإنّ كل أولياء الله هم من الأشراف الروحانيين.



وموجز القول، ينبغي أن تكون قلوبنا مرتبطة بعشق النبي والتبعية له كسلمان الفارسي، حتى يقول سيد العالمين ﷺ يوم القيامة عنا:

«هؤلاء مني»...

فقد نال الصحابة الكرام شرف الصحبة له ﷺ، لأنهم عاشوا عشق بشارة ومكافأة كهذه.

مسبب النصر...

عندما حلق رسول الله ﷺ شعر ناصيته في حجة الوداع قال له خالد بن الوليد رضي الله عنه متوسلاً إليه:

«اجعل شعر ناصيتك لي يا رسول الله، ولا تفضل به أحدًا علي، بأبي أنت وأمي».

فلما حلقها رسول الله وأعطاه إياها، جعلها في مقدمة قلنسوته، فكان لا يلقى جمعًا إلا فضّه (غلبه) ببركة هذه الشعرات العظيمة، ويقول خالد:

«فلم أشهد قتالا وهي معي إلا رزقت النص» (الواقدي، ٣/ ١١٠٨؛ ابن الأثير، أُسدُ الغابة، ٢/ ١١)

حتى أنه أضاع قلنسوته في إحدى المعارك فأمر الجنود أن: "ابحثوا عن قلنسوتي فقد فقدتها". فبحثوا في ساح القتال كلها ولم يجدوها، فأصر خالد رضي الله عنه على إيجادها قائلاً: «ابحثوا عنها مجدداً».

ولم يُحرك الجيش إلى أن عثر عليها. وعندما وجدوها فإذا بها قلنسوة قديمة بسيطة... فأصابهم الذهول؛ وقالوا:

«أ أوقفت جيشًا عرمرماً من أجل القلنسوة البالية هذه».



فقال خالد رضي الله عنه:

«إنها ليست بالبسيطة، ففيها شعر رسول الله المبارك».

فهذا نبي الرحمة الذي يحمل كلُّ أثر منه بركة وسعادة خاصة كالتي يحملها هو عليه الصلاة والسلام. وكل ما انتقل منه إلينا هو وسيلة فلاح. وإنّ لشعره ولحيته الشريفة بركة خاصة.

وقد لبى الله تعالى حبه لأمته وحرصه عليها وغمه وبكاءه وتضرعه من أجلها، بأن جعله هو وكل ما يُنسب له، وسيلة لنا لغفران الذنوب، والهداية، والنجاة، والسمو، والنصر والسعادة الأبدية.

فما هو حالنا معه؟ هل عشْقنا له هو مجرد كلمات جافة؟ إنّ التذكير الذي يفيد به سليمان شلبي في هذا الخصوص تذكير يفيض بالمعاني:

هو مذ كان طفلاً يقول أُمتي

وأنت إن كبرت بادرته بترك السُّنةِ

نسأل الله تعالى أن يبعدنا جميعًا عن غفلة كهذه. وأن يجعلنا مجتمعين عشقًا لنبينا ﷺ حول سنته، ومجاورين لكل خصال الخير فيه. حتى نستحق شرف أن يقول لربه: «يا رب هؤلاء مِنّي».

آمـين!...



الخُلُقُ العظيم للنبي ﷺ

كان في وجهه ملاحة نورانية، وفي قوله سلاسة، وفي حركاته لطافة، وفي لسانه طلاقة، وفي كلماته فصاحة، وفي بيانه بلاغة فائقة. كان همّه دائمًا، وتفكره لا ينقطع.



﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]

الخلُقُ العظيم للنبي ﷺ

أساس الشخصية العظيمة: الخلق الحسن...

إنّ أعظم شخصية شكلت حياتُها الأسوة الحسنة المُثلى، لكل ما سيأتي إلى الدنيا من أجيال إلى قيام الساعة، هو سيدنا رسول الله ﷺ.

ولا شك أنّ الأخلاق الحسنة كانت أساس شخصيته السامية العظيمة تلك، فقد جاء في القرآن الكريم في سورة القلم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

إنه معلم لم يقتصر في تعليمه القرآن على اللفظ، بل كان قرآنًا حيًا يمشي على الأرض.

ويقول فخر الكائنات في الحديث الذي رواه عنه جابر رضي الله عنه:

«إنّما بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق» (الموطأ، ٩٠٤؛ البيهقي، السنن الكُبرى، ١٩٢)

عن صفاته الحسنة...

كان في وجهه ملاحة نورانية، وفي قوله سلاسة، وفي حراكاته لطافة، وفي لسانه طلاقة، وفي كلماته فصاحة، وفي بيانه بلاغة فائقة.

لم يكن يقول كلامًا عبثًا، فقد كان كل كلامه حكمة ونصحًا. ولم يكن في كلامه ثرثرة وسفاسف. وكان يخاطب أي شخص بكلام يناسب عقله وإدراكه.



كان لطيفًا ومتواضعًا. وكان في ضحكه تبسم دون مبالغة. وكان دائم التبسم ﷺ.

كانت الرهبة تعتري من يراه للوهلة الأولى. وكان من يألفه ويحادثه يصير عاشقًا محبًا له بقلبه وروحه.

كان يولي من حضر مجلسه احترامًا يتبع درجاتهم. وكان يزيد أقرباءه إكرامًا واحترامًا. وكما كان يعامل أصحابه وأهل بيته معاملة حسنة، كان يعامل سائر الناس باللطف والرفق.

وكان دائم اللطف مع من يخدمونه. فيطعمهم ممَّا يأكل ويكسوهم مما يكتسي. هو صاحب كرم وإكرام، وكان رؤوفًا رحيمًا عطوفًا، شجاعًا مقدامًا عندما تقتضي الضرورة، وحليما عفوا حين يستلزم الموقف ذلك.

كان ثابتًا عند عهده ووعده صادقاً في قوله.

كان يفوق الناس في حسن خلقه، وفي فطنته وذكائه، وكان جديرًا بكل مدح وثناء.

ومجمل القول أنه، كان حسن الصورة، طيب السيرة، مخلوقًا مباركًا لم يُخلق مثله.

وكان وجَلُه ﷺ دائمًا، وتفكره لا ينقطع. ولم يكن يتكلم إلا عند الضرورة.

كان يطيل الصمت والسكون. فإن همّ بقول لم يسكت عنه حتى يتمّه. وكان يُجْمِل العديد من المعاني في قليل من الكلمات.

كان كلامه مفصلاً كلمة كلمة. ولا يزيد عن اللزوم ولا ينقص عنه. ورغم أنه رقيق بالفطرة كان في غاية الصلابة والهيبة.

إن غضب لا يبقى في مكانه. ولم يكن يغضب لاعتراض لا ينتهك الحقوق.



بل يغضب إن انتهك أحدهم حقًا دون أن يشعر، وغضبه يستمر إلى أن يعود الحق لمكانه. ويعود إلى سكونه بعد أداء الحق لأهله. ولا يغضب لنفسه أبدًا، ولا ينتصر لها، ولم يكن يدخل في سجال مع أحد.

ولم يكن ﷺ يدخل بيت أحد دون استئذانه. وكان عندما يمكث في بيته يقسم وقت مكوثه إلى ثلاثة أقسام؛ قسم يجعله لعبادة ربه، وقسم لأهله، وقسم لنفسه. وكان يخصص الوقت الذي جعله لنفسه لجميع الناس من العوام والخواص ولا يحرم أحدًا، فيحتل قلوب الجميع بمحبته.

وكان ﷺ ذاكرًا في كل أحواله وحركاته.

وإن قصده أحد في حاجة، لم يكن قلبه ليرتاح حتى يقضي له تلك الحاجة، سواءً كانت ذات أهمية أو لا. وإن كان قضاء أمره غير ممكن فلم يكن ليتوانى عن إرضاء صاحب الحاجة، ولو بكلمة طيبة على الأقل. وكان ﷺ في هموم الجميع وحاجاتهم.

كل الناس عنده سواسية، ويعاملهم بما يحفظ كرامة الإنسان في أي موقع أو مرتبة كانوا، بغنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم. وكانت كل مجالسه مجالسَ تسودها الفضائل، كالحلم والعلم والحياء والصبر والتوكل والأمانة.

لم يكن ﷺ يصارح أحدًا أو يلومه بعيبه أو نقصه، وإن اقتضت الحاجة إلى تنبيه أو تحذير أحدهم، حذره بأسلوب التلميح اللطيف الذي لا يجرحه أو يغضبه. وكان ينهى بشدة عن تتبع عيوب الناس وعوراتهم، كما لم يشغل نفسه بعيوب الناس التي لم تظهر إلى العلن. فتتبع العيوب والتجسس على الناس هو ممنوع أساسًا بالأمر الالهي.



التخلُّقُ بأخلاقِه...

إن كل شخصيات الذروة في تاريخ الإسلام منذ عصر السعادة حتى يومنا هذا، ارتقت القمم بقدر ما تخلقت بأخلاقه الحسنة. فكل القلوب العاشقة والعارفة، استطاعت أن تبلغ وصف الشدة، التي جاء ذكرها في الحديث (الذي يملك نفسه عند الغضب) بالقدر الذي استطاعت تحصيله من التخلق بأخلاقه الحميدة ﷺ. فهؤلاء كانوا لا يأبهون باللذات العابرة التي تكمن بين الحياة والموت من خلال إدراك المراد الإلهي الكائن بينهما. واقتصروا في حياتهم على التمسك بالأعمال الصالحة وحدها، فعاشوا حياةً مزدانة بالعلم والعرفان والعبادة والخدمة.

يعني أنّ الله سبحانه وتعالى رفع من قدر الذين تمسكوا بأخلاق ذلك النبي العظيم ﷺ. وأعمر نفوسهم بالحياة بها. فعمر بن الخطاب الذي كان في الجاهلية رجلاً يئد بناته صار بعد أن هداه الله ونشأ على التربية والأخلاق النبوية أميرَ المؤمنين الذي يُضرب المثل بعدالته ورحمته. حتى أنه وصل في هذا الأمر من الحساسية ألا يتحمل أن تُفترس شاة من قبل ذئب على شط دجلة الذي يبعد عن المدينة مئات الكيلومترات. يقول محمد عاكف على لسان عمر في هذا الموضوع:

إن نال ذئب على شط دجلة من شاةٍ وافترسها

سيأتي العدل الإلهي على عمر يسأله عنها.

إنّ الله لا يعفو عن امتهانه...

رغم ردود الفعل الخيرة الأبدية لأخلاق النبي ﷺ، وبركاته اللامتناهية، فإنّ الله تعالى يجعل الذين يعرضون عن سلطان القلوب هذا، في حرمان وخذلان دائمين. وجعل الذين يفرطون في عداوته محلاً للعقاب الإلهي.



يقول حضرة مولانا:

«لوى أحدهم لسانه سخرية باسم سيدنا النبي المبارك، فلوي ذاك الفم الخاطئ وبقي كذلك. فاستحى مما فعل وصار من النادمين؛

فنادى متوسلاً: أيا من نال كلمات الله والعلم اللدني، يا محمد أعفُ عني... لقد كان استهزائي بك نتيجة لجهلي... والحق أنّ من يستحق الاستهزاء هو أنا...».

«إنّ ذمَّ الشمس التي تضيء دنيانا وإلحاق العيب بها، ما هو إلا ذم الإنسان نفسه قائلاً: إن في عيني عمى وظلمة وعور".

إنّ سبب هذه التصرفات المعادية للنبي ﷺ، ناجم عن نقص وضعف شخصية من يجنح إليها، ويسقطه في هاوية سخط الله ﷻ. ويوضح حضرة مولانا هذه الحقيقة قائلاً:

«إن أراد الله هتك ستر أحدهم، وفضح عيبه، زرع في قلبه الرغبة في ذم الأنقياء».

من أجل نيل القيمة عند الله ﷻ...

اعتباراً مما سبق، إنّ نيل المكانة عند الله إنما يكون بانشغالنا بعيوبنا ونقصاننا، وعدم تتبع عيوب الآخرين ونقصهم مهما كان هذا العيب والنقص. يقول حضرة مولانا أيضًا:

«إن أراد الله ستر عيب أحدهم، جعله لا يرى عيوب الناس الذين ابتُلوا بالمعاصي وتلطخوا بالذنوب بفعل أهواء النفس، ولا يتحدث عنها».

«إن أراد الله العون لنا، منح قلوبنا الرغبة في البكاء والأنين والتوسل. فكم سعيدة هي تلك العين التي تبكي عشقًا لله، وكم مبارك هو ذلك القلب الذي يتقد ويحترق بعشق الله».



«إنّ الضحك نهاية لكل بكاء. لذلك فإنّ الإنسان الذي يرى نهاية الأحداث هو عبد سعيد مبارك. فالخضرة تتراءى حيثما يجري الماء. وحيثما تجري الدموع، تحل الرحمة، وتكمن المرحمة».

«أطلق أنينك، واذرف الدموع كناعورة البستان لتكسو الخضرة مزرعة روحك. إن رُمت الدمع تألم على من يذرفونه ألمًا. وإن رغبت بنيل الشفقة والمرحمة، ارحم الفقراء والضعفاء والمساكين؟».

وما أجمل قول الشاعر:

إن أردت البهجة، فحاول إبهاج المغمومين

وأسعد قلوب الحزانى، إن رمت أن تكون من المعتَقين

فهذا الأمر كان أثمن وأعظم الأخلاق الحميدة لرسول الله ﷺ، يعني إيلاء الأهمية للفقراء والغرباء.

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«لقد كان كلام رسول الله ﷺ القرآن. وكان كثير الذكر، يقصر من خطبته ويطيل في صلاته. وكان لا يستكنف أن يسعى في حاجة فقير، بل يسره ذلك».

إنّ جوهر الأمر، هو إمكانية زيادة الأعمال الصالحة التي نختزنها في العنبر الإلهي على كتفنا الأيمن بأن نجعل من ليلنا ونهارنا عمرًا من العبودية في الليل والنهار، والمداومة على هذه الأعمال قليلة كانت أو كثيرة.

الفأر وعنبر القمح...

إنّ جهلنا بقيمة الأفضال الإلهية التي تكمن في المواسم المعطاءة، كشهر رمضان الكريم، وتضييعنا لهذه الأفضال الإلهية، يعرضنا إلى خسران كبير. فنحن لا نستطيع أن نجني الفائدة من الأعمال الصالحة التي تفعل بقلب غافل



ساه. ويجب علينا ألا نلطخ أعمالنا الصالحة بالأخلاق السيئة كالغفلة والحسد والحقد والغيبة والنميمة والكذب والشبهات والمحرمات وعدم النهي عن المنكر، وألّا نذيبها كالشمعة فنكون في الآخرة من المفلسين.

ومن هذا المنطلق، فإنّ الأمر الذي ينبغي علينا مراعاته في تلك المواسم، هو ألّا نقوم بصرف أعمالنا الصالحة مثل أعمال رمضان التي امتلأت بالبصيرة والإخلاص، في الأزمنة الأخرى، كما نصرف النقود من جعبها شيئًا فشيئا. فكما أنّ الحياة مليئة بفرص القيام بالأعمال الصالحة، هي أيضًا مليئة بخطر الشهوات والغفلات التي تأكل تلك الأعمال وتنهيها عن بكرة أبيها.

ويوجه حضرة مولانا في هذا الصدد التحذير التالي:

«إننا نجمع القمح في عنبر هذه الدنيا. لكننا نفقد ذلك القمح الذي جمعناه. ولا يأتي علينا يوم نُحكم فيه عقولنا، فنستطيع أن نفهم أنّ سبب تناقص القمح ونفاذه، هو تلك الفأرة التي دخلت العنبر وما قامت به من حيل».

هنا شُبّه ما نجنيه من عباداتنا من ثمرات الثواب وراحة القلب، وانشراح الصدر، بالقمح. وشُبهت جعبتنا الروحانية بالعنبر. وكانت الفأرة رمزًا للنفس وأهوائها.

ونخلص من هذا التعبير المجازي إلى النتيجة التالية:

إن لم نحصل على أي لذة معنوية روحانية من عباداتنا، فلنعلم أنّ الفأرة حلت في عنابر قلوبنا. فالنفس والشيطان يعيثان فسادًا في أعمالنا الصالحة ويمحقانها حتى لا يبقى لنا منها لذة أو فيض روحاني. ولهذا السبب فإنّ العديد من الناس يقومون بالعبادات لكنهم لا يجنون سلام القلب وراحته، ويُحرمون من الفيض واللذة الروحانية لأنهم أسرى لأهواء النفس.



ويتابع مولانا واصفًا هذه الحال:

«لقد قرضت الفارة عنبرنا، وأصبح بفعل حيلها خرابًا. فيا أيتها الروح القاصدة للحق، جدي حلاً للتخلص من الفأرة التي دخلت العنبر أولاً، ثم اسعي بعدها في جمع القمح».

وتذكري حديث عظيم العظماء وسيد القلوب:

«لا تتم الصلاة إلا بقلب مطمئن. فابدئي صلاتك بطمأنينة القلب حتى تسلمي من النفس والشيطان».

«أين كانت لتذهب عبادتنا سنين طويلة، لو لم يدخل عنبرنا فأرة سارقة؟ لماذا لا تشعر قلوبنا بالراحة والطمأنينة المتأتية مما قمنا طوعًا، ومن صميم القلب من عبادة ومعروف، رغم أنها تنقص ببطء؟».

«كان بعض الشرار يتطاير من حديد الصهر، فأخذه القلب المحترق بعشق الإله».

«لكن لصًا خفيًا كان يكمن في الظلمات. يضغط بيديه على البصيص ليطفأه. كان يطفئه لئلا يوقَد في الدنيا سراج روحي».

الحيلة في مواجهة النفس والشيطان...

إنّ الطريق الأوحد لامتلاك القدرة على تحصيل الأعمال الصالحة، والتحلّي بخِصال الخير والحفاظ عليها، هو القيام بالعبادات اقتداء بكعبة القلوب سيدنا النبي ﷺ. ولهذا يجب أن لا نخطّ على القلوب اسم ممالك الدنيا العائدة لملوكها، بل علينا أن نخط بمداد العشق الذي لا يمحى اسم ذلك السلطان المتربع على عرش الأبدية، حتى نحفظ له القيمة العظيمة التي مُنحت له.

فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:



﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ...﴾ [الأنفال: ٣٣] وهذه الآية نزلت ردًا على المشركين.

ويشير المعنى هنا أنّ ثمة مكافآت وبشارات كبرى للمؤمنين الذين يحملون في قلوبهم نور الكائنات ﷺ. وهذا يعني أنّ المؤمن يكون بعيدًا عن العذاب الإلهي بقدر ما يمتلئ قلبه من حب للنبي ﷺ. ويؤول ينبوعًا عميقًا للفيض، كفضلية مولانا بهاء الدين النقشبند.

وهذا الفضل هو وعد من الله تعالى. يعنى إن سكن رسول الله المعظّم قلوبَنا فإنّ الله سيعاملنا بلطفه ولن يهلكنا أو يعذبنا.

إنّ الله تعالى إن حفظنا بمحبتنا لرسول الله ﷺ، والتخلق بأخلاقه، فلن يهمنا إن قلبت هذه الدنيا الفانية رأسًا على عقب. أمّا إن كانت قلوبنا مجافية له، فذلك أعظم الخسران. يقول كمال أديب كوركجو أوغلو:

وآ أسفاه! على غافلين لم ينالوا مدحك

يكفيهم هذا خسارة في الدنيا والآخرة

"يكفي الغافل خسرانًا أن يكون بعيدًا عن مدح النبي ﷺ".

نسأل الله تعالى أن يجعلنا أمة لائقة به، متعلقة بمحبته. وأن يقسّم لنا نصيبًا من شمس أخلاقه العظيمة المشرقة في آفاق الرحمة والمرحمة، والتي لا يمكن بلوغها، فيجعل قلوبنا ووجوهنا نيرة كالبدر.

آمين!..



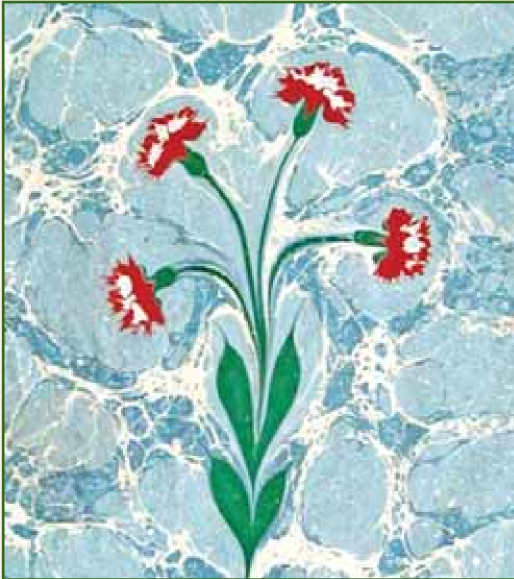
القسم

٣

قراءة الكون

تعني قراءة كل شيء

على العبد أن يدرك أولاً عدميته، خلال التقرب من الله. وبعد العدمية تبدأ مرحلة العرفان. عندها تبدأ جميع حُجبِ الأسرار عن الكون وعن نفسه تتكشف لقلبه وإدراكه حجابًا تلو الآخر. وموجز القول أنّ إدرك جوهر الكون يكون قدر إدرك جوهر نفسه. ومن عرف نفسه فقد عرف ربه.



قراءة الكون
تعني قراءة كل شيء

ماهية أمر " اقرأ "...

لقد فسر أهل الحال وأهل القلب كون أمر "**اقرأ**" هو أول ما أنزل على رسول الله ﷺ على الشكل التالي:

"اقرا، اقرأ كل شيء! اقرأ كتاب الله! اقرأ آيات الله! اقرأ كتاب الكون! اقرأ دائمًا! اقرأ لبلوغ الهداية واجتناب الضلالة! اقرأ ليبلغك الله تمام الإيمان! اقرأ بسم الله! اقرأ باسم ربك الذي خلق! خلق الإنسان من علق! اقرأ باسم ربك الأعظم الذي تكرّم على الإنسان بالقدرة على قراءة كل شيء، والتبصر به، ووعيه بالإدراك، وإحياء نفسه بها وعاه وأدركه. اقرأ باسم الله الذي تفضل على الإنسان بأعظم فضل إذ أنعم عليه بالقراءة! اقرأ لتتعلم!اقرأ لتتقرب من الله! اقرأ مسبب الأسباب بالنظر إليها! اقرأ المؤثر الإلهي بالنظر إلى الآثار! اقرأ البديع بالنظر إلى ما أبدع! اقرأ كل ما خطته كلمة القُدرة في هذا العالم سطرًا سطرًا! اقرأ باسم ربك الذي علم الإنسان ما لم يعلم!".

وقد عبر حضرة مولانا عن الأطوار الروحانية بقوله: " كنت نيئًا " عن طور قراءة الكتاب ظاهريًا، و "لقد نضجت" عن طور قراءة أسرار الكون، "ولقد توقّدت واحترقت" عن طور الاحتراق بالأسرار الإلهية.



وإنّ أمر "اقرأ" في الآية الكريمة أمرٌ شديد الأهمية، لكن كون القراءة باسم الله يحمل نفس أهمية الأمر "اقرأ"، ويبين كيفية تنفيذ هذا الأمر.

الأسرار والحِكم الكائنة في الكون....

يلفت القرآن الكريم في كثير من المواضع إلى الأسرار والحكم التي يحتويها هذا الكون. فقد جاء في الآية الكريمة:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]

يشار بكلمة "**الآفاق**" إلى العالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان، وبكلمة "أنفسهم" إلى الكيان الروحاني والبيولجي، وما فيهما من حكمة وأسرار وعبر. وتعبر آية أخرى عن هذه الحقيقة كما يلي:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]

في أحد الأيام رأى الإمام الجنيد، وهو من أولياء الله الكبار، جمعًا غفيرًا من الناس يتراكضون بلهفة وحماسة فقال لهم:

«إلى أين تذهبون، مع كل هذه اللهفة والحماسة؟»

فقالوا له:

«قيل إنه قد جاء عالم من المكان الفلاني، وإنه يبين وجود الله ووحدانيته بألف دليل ودليل! فنحن ذاهبون للاستفادة من أدلته المبيّنة تلك، إن شئت تفضل أنت بالمجيء معنا».

عندها نظر إليهم الإمام الجُنيد متبسمًا ببسمة حائرة آسفة، وقال لهم:



«إنّ في الكون ما لا يحصى مما يصدح بالشهادة لله والدلالة على وجوده، للأعين التي تبصر والآذان التي تسمع. ولله شهادات كثيرة شهد بها بنفسه لذاته. فيا قوم، إن كان لأحدكم في ذلك شبهة رغم كل تلك الدلائل فليتفضل ويذهب! فليس في قلبنا نحن أي ذرة من شك أو شبهة».

النظر إلى المسبِّب...

دعا الله الناس إلى عالم التفكر بتكرار قوله في القرآن الكريم: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾. وقد بين رسول الله ﷺ، أهمية استخدام العقل في بحر الحكمة والمعرفة قائلاً: «**تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة**». فالعقل ترجمان في طريق نيل الوصال الإلهي.

ويلفت حضرة مولانا العيون والقلوب إلى هذا الأمر من خلال فتح أبواب التفكر قائلاً:

«ما دمت ترى حركة حجر الطاحون، فأمعن النظر أكثر، لترى ماء الجدول الذي يحركها!».

«قد رأيت التراب والغبار في الهواء، فانظر أيضاً إلى النسمة التي حملتهم إلى الهواء...».

«أنت ترى وعاء الفكر يغلي، فانظر إلى النار التي سببت غليانه».

«هل المعقول أن يكون لتلك الصروح والقصور وكل تلك المنازل، بنّاءٌ أم المعقول أن لا يكون، يا فاقد العقل؟!».

«هل المعقول أن يكون لما تراه من كتابات كاتب خطّها، أم أنّ كل تلك الكتابات التي تزين الصحائف والجدران هي من غير كاتب يا غلام؟!».

«أيها الإنسان، هل بإمكانك أن ترينا شيئًا جاء إلى هذه الدنيا بنفسه؟ انزع النبت الذي أعشب ونبت بنفسه وكبر، من ترابه لنرى، هل نبت بنفسه؟!».



وكم هو جميل قول الشاعر:

إن كان المكان هذا جاء هنا من العدم بنفسه
يا بنّاءُ، كان بإمكان هذا البناء أن يرتفع بنفسه!...

المداخن التي نصبتها على السطوح تقول لك
هل يتصاعد الدخان من دون نار بنفسه؟

انظر إلى الأمر العظيم يأمر الكروية بالدوران
أيستطيع العالم أن يدور دونما زلل بنفسه.

ليطلق البستاني يومًا بستانه عاطلاً
أينفصل التبن عن القمح بنفسه؟ (سيري).

الكون يُقرأ بعين القلب...

إنّ قراءة الكون بتلمس الأسرار الإلهية فيه؛ لا يمكن أن يتم إلا بالقلب أي ببصيرة الروح. ولهذا فإنّ الأسوأ هو عمى القلب، وليس عمى العين. لأنّ القلب الذي يكون أعمى في هذه الدنيا هو أعمى يوم القيامة. لذلك يقول الله تعالى منبهًا العباد إلى الاستيقاظ من غلفتهم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

وانطلاقًا من هذه الحقيقة يقول حضرة مولانا:

«أصلح نفسك قبل أن تقرأ القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ. فإن لم يبلغك عبير الورود في الحديقة فابحث عن العيب في أنفك وقلبك، وليس في الحديقة...».



«لا يفهم معاني القرآن الكريم، إلا من تخلص من شهواته وأهواء نفسه، فذاب أمام القرآن جاعلاً نفسه فداء له، ورهن روحه له».

سر القراءة: معرفة نفسك...

يعبر حضرة يونس أمره عن هذه الحقيقة قائلاً:

العلم، أن تعلم علماً

العلم، أن تعلم نفسك

إن لم تعرف أنت نفسك

فما الفائدة مما تقرأ؟

إنّ معرفة الإنسان لنفسه هي في النتيجة معرفته بالله. ولهذا كان على العبد من خلال اقترابه من الله أن يعلم منذ البداية أنه لا شيء. ثم بعد ذلك تبدأ رحلة العرفان، بعدها تتكشف له حُجُبُ الأسرار الكائنة في الكون وفي نفسه، حجابًا تلو الآخر. لهذا فإنّ العارف ينظر بنظرة مختلفة للكون ولكل الموجودات فيه. فيعيش مع أسرار تعظيم أمر الله، والشفقة بخلق الله.

حتى جرح النملة ممنوع...

عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال:

«**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**».

ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «**من حرق هذه؟**» قلنا: نحن. قال:

«**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**» (أبو داوود، الجهاد، ١٢٢؛ الأدب، ١٧٦/ ٢٦٧٥)



ويروى أن السلطان سليمان القانوني طلب من شيخ الإسلام أبي السعود فتوى بقتل النمل الذي قرض شجرة الإجاص في حديقة قصره، فقال الأبيات التالية:

إن عاثت نملة في الشجرة ضررًا

أيحق لنا بالنملة ضررًا

فأجابه حضرة الشيخ أبو السعود بحرص يفوق ذلك الحرص:

غدًا عندما تحضر في ديوان الله

تقتص النملة من سليمان شاه

ومن الأمثلة الأخرى على هذا الحرص:

كل شيء يذكر الله...

خرج يوماً حضرة الشيخ أفتاده برفقة مريديه إلى مرج من المروج من أجل الصحبة والوعظ. فأمر المريدين أن يتجول كل منهم في أرجاء المرج، ويأتيه بباقة من الزهور ففعلوا.

لكن مريده القاضي محمود لم يكن في يده سوى زهرة ذابلة، مكسورة الساق. وبعد أن قدّم الآخرون ما في أيديهم من الزهور ببهجة، أتى القاضي محمود مطأطئ الرأس وقدم زهرته الذابلة المكسورة للشيخ أفتاده.

فسأل حضرة الشيخ أفتاده مريده بنظرة ملؤها الفضول والاستغراب:

" يا محمود، يا ولدي، لم جلبت زهرة وحيدة ذابلة مكسورة الساق، بينما الآخرون أتوا بالزهور باقات باقات؟".

فأجاب القاضي محمود مطأطئ الرأس أدبًا لمعلمه:



«مهما قدمت لكم يا سيدي فهو قليل بحقكم! لكنني كل ما مددت يدي إلى زهرة أريد قطفها وجدتها تذكر ربّها قائلة: "الله الله". فلم يطب لقلبي أن أكون مانعًا لها من ذلك الذكر. فاضطررت، بعد أن ضاقت حيلتي، أن أحضر الزهرة التي في يدي والتي لن تتمكن من الاستمرار بالذكر!...».

فرد عليه حضرة الشيخ أفتادة، راضيًا عن إجابته الزاخرة بالمعاني وفرِحًا بها:

«يابني، أنت الهدائي، أنت الهدائي! منذ اليوم فصاعدة ليكن اسمك الهدائي... فيا أيها الهدائي أنت الوحيد الذي نلت نصيبًا من جولة المروج هذه».

وبذلك صار القاضي محمود الهدائي. لأنه صار على دراية بالأسرار الإلهية في الكون وبجريان القدرة الإلهية. وصار الكون بالنسبة له كتابًا حيًا يكشف له ما بداخله من أسرار.

وتقديرًا للمرتبة الروحانية الاستثنائية التي نالها القاضي، الذي أصبح اسمه منذ ذلك الوقت حضرة القاضي محمود الهدائي، أضيف إلى اسمه لقب " عزيز " فصار اسمه، حضرة القاضي عزيز محمود الهدائي.

الكون يحكي الإنسان...

وموجز القول أنّ من يدرك جوهر الكون يكون قد أدرك جوهر نفسه. فالإنسان هو جوهر الكون. وكم هو جميل قول الشيخ غالب:

انظر إلى ذاتك بحسن فإنك زبدة الكون

إنك أنت سواد عيون هذا الكون

«انظر يا أيها الإنسان بجمال لوجودك حتى تكون جوهر الكون وبؤبؤ عينه».



كما يقول حضرة مولانا:

«صديقي العزيز، أنت لست شخصًا واحدًا، أنت عالم بأكمله، أنت بحر عظيم الاتساع والعمق!».

«أيها الإنسان الكامل، ربما تكون حقيقة وجودك تسع مائة ضعف ما ترى، قد تكون بحرًا لا يُعرف عمقه واتساعه. مئات العوالم غرقت في هذا البحر وضاعت فيه».

إنّ سلطان العارفين حضرة مولانا اعتبر أنّ الإنسان في حقيقة الشمس، وأمضى حياته يبحث عن الشمس أو إنسان مثلها. وقال عن ذلك في آخر عمره:

«سأرحل مع حسرة إيجاد الإنسان الذي بحثت عنه».

وقد لخص حضرة مولانا، الإنسان الكامل في هذه الدنيا الفانية بالحكاية التالية:

«خرجت من منزلي ليلاً. وكنت أتنزه في المروج. فرأيت رجلاً يتجول وفي يده فانوس فسألته:عمّ تبحث في عتمة الليل هذه؟.فقال الرجل مجيباً: ابحث عن إنسان. فقلت له: للأسف، إنك تبحث عبثًا... أنا تركت وطني ومع ذلك لم أجده.. اذهب إلى منزلك، وابحث عن راحتك. إنك تبحث بلا جدوى. إنك لن تجده في أي مكان!. فنظر الرجل بألم وقال: وأنا أعرف أني لن أجده؟. مع ذلك أجد متعة في البحث».

هذا الجواب هو ما يبحث عنه الإنسان الصامت بمثالية مطلقة.

وفي المحصلة، إنّ الإنسان هو زبدة تجلي إدراك بشريته، الذي نزل إلى هذا العالم الفاني من مصدر الحقائق العظيمة لربه المعظم، تلك الحقائق التي سعى لإدراكها فقط من خلال الانتقال من الأسباب إلى مسببها، ومن الآثار إلى



مؤثرها، ومن البدائع إلى مبدعها. ومع بلوغ ذلك يكون الإنسان كونًا بتجليات فريدة، ومرشحًا لنيل مزية أن يكون قرآنًا حيًا.

اللهم امنن علينا بعيون وقلوب تقدر على قراءة صفحات الكون. ولا تعمي عيوننا القلبية! واكتب لنا أن نرى نور جمالك اللامتناهي، من نافذة الأسرار المبثوثة في الكون وفي أنفسنا!.

آمين!..



اغتنام الحياة بالشكل الأفضل

كما يستحيل على الشمس أن لا ترفع من الحرارة، فإنه يستحيل على الأرواح الخيرة القوية التي تقدر على اغتنام الحياة بأفضل الأشكال ومن خلال أفضل خصال الخير، أن لا تكون ذات نفع لها وللمخلوقات التي تحيط بها.

ويستحيل عليها أن لا تنشر الخير.



اغتنام الحياة بالشكل الأفضل

حتى الموت...

لقد كان رسول الله ﷺ دائمًا ما يدعوا ملتجئاً إلى ربه:

«**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت،...**» (أبو داوود، الأدب، ١٠٠-١٠١، ٥٠٩٠)

لقد كان سلطان القلوب ﷺ ورغم تحليه بما لا يمكن لأحد أن يبلغ مقامه في العبودية، كان يغتنم نهاره أحسن الاغتنام، ويقضي ليله بالصلاة حتى تورمت أقدامه. وعندما سألته السيدة عائشة رضي الله عنها عن حاله هذه، أجاب تلك الإجابة الزاخرة بالمعاني قائلاً:

«**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**» (مسلم، تفسير سورة المنافقين، ٧٩/ ٢٨١٩)

هذا يعني أنه مهما بلغ الإنسان من درجة في سبيل الحق، لا يمكنه أبدًا أن يتجرد من مسؤولياته في العبودية، ولا يمكنه أن ينقص من أعماله أو يعفي نفسه منها بأي شكل من الأشكال. يعني أنّ الفرائض والواجبات والسنن والحرام والحلال والمباحات، وكل ما سواها مما في الدستور والتكاليف الإلهية، هي أمر يقع على عاتق كل سائر على طريق العبودية، ولا تُرفع عن عاتقه حتى آخر نفس من أنفاسه. ومن أجل ذلك يقضي العارفون أعمارهم؛ مجتهدين في الخضوع لأمر الله تعالى:

﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٨- ٩٩] فيجعلون من أنفاسهم تسبيحًا لله.



سبب منح الحياة...

إنّ السبب الرئيسي لمنح الإنسان نعمة الحياة هي العبودية.

فعلى هذا، يجب أن يكون اغتنام هذه الحياة المؤقتة المحدودة بفترة من الزمن، بأعلى الأحاسيس، وأقصى درجات العرفان، هو جوهر كل غاياتنا ومطامحنا. فالحياة هي مادة خام مُنحت لنا. فنحن نجعلها جميلة حسنة بقدر ما نفعل فيها من الخيرات والحسنات، ونجعلها سيئة ذميمة بقدر ما نقترف من السوء والشرور، ونكون فيها في عطالة بقدر ما نصرف النظر عن أهميتها. فالنجار إن لم يحسن استغلال جذع شجرة الجوز الذي في يده آل إلى قطعة من الحطب ينبغي حرقها، وإن أحسن استغلالها، آلت أثاثًا جميلاً يحتل مكانًا مرموقًا في البيوت والقصور والمساكن. وما الإنسان إلا كمثل هذا النجار، وما الحياة إلا كمثل جذع الجوز.

وعليه، فإنّ على الإنسان لاغتنام حياته أن يتعلم إنجاز ما سيقوم به من عمل بشكل جيد، ثم من بعدها يبدأ بتنفيذ مهمته. لكن هذا لا يكفي. لأنّ هناك نوعين من المهارة. النوع الأول ينتج منتجًا عشوائيًا، والآخر ينتج منتجًا بديعًا. والأمر الأهم هنا هو القدرة على تشغيل مقومات الحياة، بأدق معايير الإبداع، وبأفضل الأشكال. فهل هناك نحلة تهمل الدقة أو الدأب في عملها، أثناء صناعة العسل؟ أبدًا لا تفعل، فلو فعلت لكان ما تعطينا من عسل سمًا لنا لا شفاء.

على هذا، ألا ينبغي على الإنسان الذي هو مخلوق أكثر تكريماً من النحلة، أن يبدي حرصًا أفضل وأحسن وأكمل ممّا عند النحلة، ويغتنم حياته بشكل أفضل منها، فيجعل إيمانه وعرفانه وتقواه ودنياه وآخرته وشخصيته وأخلاقه، أحلى من العسل الذي تنتجه تلك النحلة؟.

ما الذي يتوجب عليه حتى نفعل ذلك؟



اقرأ كتابكَ!...

الحياة بالمقام الأول: تبدأ من اللحظة التي يأخذ فيها أمر "اقرأ" مكانه الصحيح. فالعبد الذي لا يقرأ هو شجرة يابسة ميتة. وعندما نذكر القراءة ينبغي ألا يقتصر الفهم على قراءة المعلومات المحدودة الكائنة في صفحات الكتب. فقراءة السطور في الكتب هي إشباع للذهن.

ولدينا أيضًا حاجة لقراءة تشبع أفئدتنا. ومن أجل ذلك، ينبغي علينا قراءة الكون برمته، بجباله وحجارته وأزهاره وسمواته السبع، والأهم من ذلك هو قراءتنا لأنفسنا. حتى أنه ينبغي علينا أن نقرأ كيفية قراءتنا لأنفسنا. وهذا سيُعرض علينا في المحشر. وسيضع في أيدينا كتاب أعمالنا ثم يُقال لنا:

"اقرأْ كِتَابَك".

وستتمكن في الآخرة أن نقرأ في كتاب أعمالنا، كل ما كتبناه في حياتنا الدنيا، وبأي معنى كتبناه. وهناك سنعرف أنفسنا على حقيقتها. وهناك سنرى كم وقعنا في برك الماء الضحل. وهناك سندرك كيف وقعنا حتى في أصغر الحفر التي حفرتها لنا النفس. لهذا، فمن الواجب علينا أن نملأ كتاب حياتنا بالخيرات بما من شأنه أن يبيض وجوهنا من السلوكيات الحسنة.

المحاسبة...

نظراً من زاوية أنّ الحياة الحقيقية المثمرة هي عبارة عن عيش الحقيقة. فقد كان رسول الله ﷺ يوصي بمثل هذا العيش. ويشير عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى كيفية قيامنا بضبط هذا العيش بقوله:

«حاسِبُوا أنْفُسَكُم قبلَ أن تُحَاسَبُوا!...».

فالإنسان يموت على ما عاش عليه. ولا شك أنه سيُحشر على ما مات عليه.



يقول الهيثم بن ربيع:

«كنت بجانب رجل حضره الموت، وبدأتُ ألقنه الشهادة. ولم يكن يسمعني. لأسمعه كلمة الحق. لأنه عاش حياته يعد النقود...».

إنّ هذه الحادثة فاجعةُ حياة عيشت خِلوًا من الغُنم الأبدي، فكانت مليئة بالخسران. وإِشارةٌ إلى دخول شتاء الآخرة دون الإعداد له مثلما تفعل حشرة الصرصار. ومدعاةٌ للتعاسة من خلال وثنية المال. لهذا يشترط عيش حياة مليئة بالسعي والحرص على الإعداد لشتاء الآخرة، كما تفعل النملة. وعلى هذا، فإنّ استراحة حياة الإنسان وعطلتها هي ما بعد الموت. لأننا مقبلون على نوم في القبور، ربما يمتد لعصور.

إنّ هذه الدنيا هي رحلة محطتها الآخرة. وتقوية الذهن والقلب أمر واجب. يعني يجب أن تُغتنم الحياة بأفضل ما يمكن.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

«إذا لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل».

ويلفت حضرة حاجي بيرم إلى عدم منطقية استغلال الحياة بشكل خاطئ بقوله:

«الكبر وما شابهه من الصفات الذميمة هي كالحجارة المربوطة على الخصر. وبوجودها لا يمكن السباحة، ولا يمكن الطيران...».

إنّ أهم أمر في هذه الناحية، هو معرفة الإنسان لنقصه وعيوبه بشكل جيد، والعمل على التخلص منها، أي:

«لا عرفان يوازي معرفة الإنسان بنقصه».



المخاطر...

لنعلم أنّ المنافع الشخصية والأهواء هي سمٌ تُباد به أرواحنا. وكل واحد منهما هو نير يقيِّد حياتنا الروحانية. فلا يمكن الاتجاه لوجه الله بقلب أسير المنافع الدنيوية. ولا سيما بوجود آفة التقرب من النمط الفكري لغير المسلمين. لأنّ مثل هذا التقارب يُحدث لنفسه أُلفة في الذهن. ومع الزمن يألفها القلب فيهلك المؤمن.

لذلك، فإنّ اغتنام الحياة يجب أن يرتبط بحماية القلب والعقل.

وإن عرفنا بماذا وكيف نستفيد من الحياة ونستثمرها حق الاستثمار عندئذ نكون قد اغتنمناها الاغتنام الأمثل.

أسس اغتنام الحياة...

إنّ اغتنام الحياة هو أمر يتم القيام به حول ثلاثة عناصر رئيسية، وهي البدن والمال والقلب. يعني تغذية الجسد بالمطعم الحلال، واستعماله في التوجه نحو الله. وجعل المال والممتلكات رهنًا لله، وتزيين القلب بالخصال السامية والخيّرة. وهي الخطوات الوحيدة التي تحفظ الإنسان في موقع المخلوق الذي خُلق في أحسن تقويم، وتم تكريمه على سائر المخلوقات. كما أنّ هذه الأمور تمر من امتلاك الصفات التالية:

- تحصيل العلم الظاهر والباطن.
- الأخلاق الحسنة: التخلق بالخُلُق العظيم لرسول الله ﷺ.
- أن يكون الإنسان نموذجًا لعصر السعادة.
- التأثر بالقرآن.
- أن يكون الإنسان صاحب وجهة واستقامة.
- رعاية العهود، والوفاء بالعقود.



- التعلُّق بالعبادة.
- عبادة الليل، والتفكر في الموت.
- صحبة الصالحين.
- إنماء المحبة للإخوان في الدين، وتجنب الغيبة.
- الاستخدام الجيد للمال، الإنفاق والتصدق، تجنب الإسراف والبخل.
- التحلي بغنى القناعة.
- التحلي بالشفقة والمرحمة.
- رعاية حقوق العباد.
- توخي المطعم الحلال.
- أن يكون الإنسان من أهل السعي والدأب.
- الخدمة في سبيل الله عزّ وجلّ.
- العيش بمعايير الإخلاص والتقوى.
- أن يكون الإنسان كما يظهر، وأن يظهر كما يكون.

أن يصبح الإنسان ندًى لسلطان الورود...

كل خصال الخير المذكورة أعلاه، هي القواعد الفريدة التي يمكن أن يكون الإنسان من خلالها لطيفًا، رقيق الروح، حساسًا، جميلاً حسنًا. وإنّ القلوب التي تمتلك هذه الخصال تتحول إلى مستقرات للسلام والطمأنينة. فيحيا لديهم ألف جمال وجمال، كحدائق الورود...

والوردة هي رمز للنبي ﷺ، يعني أنّ سلطان الورود هو سيدنا النبي ﷺ، وكم سنكون سعداء إذا تمكنا من أن نكون قطرات ندى لتلك الوردة في تصرفاتنا!.



يروي الشيخ سعدي في كتابه كلستان أي "حديقة الورود" الحكاية التالية:

«يذهب أحدهم إلى الحمام. فيعطيه أحد الأصدقاء الموجودين في الحمام طيناً ذا رائحة طيبة من أجل أن ينظف نفسه، فتفوح من الطين رائحة عطرة تداعب روحه، فيسأل الطين: يا أيها المبارك، لقد سُحرت برائحتك، هيا أخبرني، هل أنت مسك، أم أنك عنبر. فرد عليه الطين قائلاً: لست مسكًا ولا عنبرا. إنني من التراب العادي الذي تعرفونه. لكنني كنت أعيش تحت غصن من الورد، وكل يوم أجني من قطرات الندى المتساقطة من أكمام وروده. وإنّ هذه الرائحة التي تشرح الصدور التي أحسستموها، ترجع لتلك الورود».

انعكاس الجمال على البيئة...

كما أنه يستحيل على الشمس أن لا ترفع من الحرارة، فإنه يستحيل على الأرواح الخيرة القوية التي تقدر على اغتنام الحياة بالشكل الأفضل، ومن خلال أفضل خصال الخير، ألا تعو بنفع لها وللمخلوقات التي تحيط بها. ويستحيل عليها ألا تنشر الخير. يعني أنّ تنشئة الإنسان نفسه على اغتنام حياته بالشكل الأفضل، وأن يكون مُشهرًا للخيرات بحاله وقاله وفكره، هو الأمر الأهم الذي من شأنه أن يحفظه من إسراف الناس في المجتمعات...

وإنّ الذين يغتنمون حياتهم يكونون على حرص للنجاة بمن حولهم كما نجوا بأنفسهم. وهم يقرون أنهم مسؤولون عن كل السلبيات والأخطاء، وهذا كان مشرب سيدنا عمر رضي الله عنه:

إن نال ذئب على شط دجلة من شاةٍ وافترسها

سيأتي العدل الإلهي يسأل عنها عمر.

لا شك أنّ هذا وعي سامٍ، وقوام قلب راقٍ.



الانتصار على أنفسنا...

إنّ غاية تربية النفس وتزكيتها في التصوف، أن يتحلّى القلب بقوام ووعي فريد كهذا. ولا شك أنه يتوجب علينا، لنيل هذه التربية والتزكية، الخضوع أولاً للإرادة الإلهية، ومحاولة الحيلولة دون نزعات النفس وشهواتها. ويتوجب على المؤمن أن يعرف ربه، بكل قدرته وعظمته، مدركًا ضعف نفسه ونقصها وعجزها وعدميتها. وأن يوجه أفعاله بناءً على هذا الإدراك. فإن استطاع أن يقوم بذلك فإنّ النفس التي قيل فيها ﴿...**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**...﴾ (يوسف : ٥٣). تتنقى بالتربية القرآنية من الصفات المذمومة وتتحول إلى حال مقبولة.

وبناءً على أهمية وصعوبة العمل على تزكية النفس والدخول في سير وسلوك جدي في سبيل ذلك، عرف بالـ "الجهاد الأكبر".

فرسول الله ﷺ عبرّ عن ذلك بقوله لأصحابه عند العودة من غزوة تبوك التي كانت شديدة الوقع عليهم:

«**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» (المستدرك على مجموع الفتاوى، جـ١، ص٢٢)

في حين أنّ السفر الذي كانوا عائدين منه كان غزوة من أكبر الغزواتِ. وذلك لأنهم لم يعدموا فتن المنافقين ووساوس الشيطان في سفرهم من بدايته إلى نهايته.

فقد سيطر على تلك السنة حر وجفاف شديدين. والطريق طويل للغاية. ولم يكن يتيح لهم السير مشاةً. وكان قد اقترب موسم قطاف الفاكهة.

وكان تلقيهم خبرًا أنّ جيشًا عرمرمًا من الروم بانتظارهم، قد جعل تلك الغزوة سفرًا شاقًا، حيث سار جيش قوامه ثلاثون ألف رجل، لمسافة ألف كيلومتر ثم عاد. وعندما اقتربوا من المدينة كانت قد تغيرت هيئتهم. فطالت شعورهم ونحلت أجسامهم واسمرت جلودهم.



فأصاب بعضَ الصحابة الفضولُ من كلام رسول الله ﷺ وهم على هذه الحال فسألوا باستغراب:

«يا رسول الله أيوجد جهاد أكبر من حالنا التي كنا فيها»

فقال:

«نعم لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وهو مجاهدة العبد هواه».

فالله تعالى قال مخاطبًا نبيه ﷺ:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾ [الفرقان: ٤٣]

مشيرًا إلى أنّ من يُهزم في صراعه الداخلي ينحرف ويتردى في مهاوي الضلالة والغفلة، لدرجة تجعله يؤله هواه. ومن هنا، كان جوهر كلمة التوحيد، يبدأ بنبذ جميع الآلهة من القلب، ثم من بعد ذلك الإقرار بتوحيد الله بقلب نظيف خال من الكدر. يعني التوجه إلى الله بشكل كلي. والرضا عن ذلك.

إنّ رضا العبد عن ربه، وقدرته على الصبر على ابتلاءات الدنيا، ومداومته الإعداد لآخرته طوال عمره دون كلّ أو تعب، مرتبط في الحقيقة بالنصر الذي يحققه على نفسه. لأنه سيأتي زمان يتوجب فيه أن يقال:

كل ما أتاني منك حلو،

إن كان عبق الوردة، أو شوكها،

إن كان حُلَّة أو كفنًا،

فقهرك حلو. ولطفك حلو.

و يأتي زمن يتوجب فيه قول ما قاله يعقوب عليه السلام:

«فصبر جميل». يعني ما يتوجب علي هو الصبر الجميل فقط.



ويأتي زمان أيضًا يتوجب القدرة على قول ما قاله إبراهيم عليه السلام للملك الذي أتاه وهو يُلقى في النار:

«أمّا إليك فلا حاجة لي، فحسبي من سؤالي علمه بحالي».

النتيجة...

يعني أنّ جوهر المسألة هو وجوب عيشنا حياة تكون نتيجتها بلوغ أعلى درجة من الوصال المبشر به في الآية:

﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٨]

اللهم يسر لنا بلوغ درجة كهذه! واكتب لنا اغتنام هذه الحياة الفانية بأفضل شكل في ظل بركة لا نهاية لها! ولا تجعلنا من الواقعين في الخسران بانجراف العشق العابر والانخداع به!

آمـين!...



المهم أن تكون عبدًا صالحًا

إنّ قدرتنا على أن نكون عبادًا صالحين هي انعكاس مدى تمثلنا لخيريات وجماليات الإسلام على شتى مجالات حياتنا. وأن لا ننسى الإسلام في أي مجال من مجالات حياتنا، في تجارتنا، وفي حياتنا العائلية، وفي علاقاتنا الاجتماعية.



المهم أن تكون عبدًا صالحًا

حكمة العمر...

الشهور الثلاثة...

الفرص الذهبية للتقرب من الله في أيام وليالي هذه الشهور المباركة.

فضَّل الله تعالى بعضَ الشهور على بعضها، وتكرم في داخل الشهر بليالٍ وأيام فضلها على سائر أيام وليالي الشهر، وهي التي ندعوها بالأيام والليالي الحضرة. وذلك من أجل أن يلتجئ العبد إلى ربه في هذه الليالي، ويتقرب منه وينال رضاه. ومن أجل أن ينال العبد العفو الإلهي ويفوز في النتيجة بتجليات الطمأنينة الإلهية.

إنّ أول شرط لنيل مظاهر هذه التجليات، هو استقرار ورسوخ التوحيد في القلب. وثانيهما هو العبودية على أساس التوحيد.

فالحكمة من العمر الذي منحنا الله إياه هي في الحقيقة ما يلي:

التمكن من أن نكون من عباد الله الصالحين، وأن نبلغ في العبودية سوية معينة.

حتى أنّ النبوة التي هي أعلى درجات البشرية، كانت رتبة منحها الله تعالى في إطار هذه العبودية. ولهذا كان حقًا على العباد:



العبودية الصالحة...

ما ذا يعني كون المرأ عبدًا صالحًا؟

هي انعكاس مدى تمثلنا لخيريات وجماليات الإسلام على شتى مجالات حياتنا. وأن لا ننسى الإسلام في أي مجال من مجالات حياتنا، في تجارتنا، وفي حياتنا العائلية، وفي علاقاتنا الاجتماعية. وهي القدرة على أن نؤدي عبادتنا في إطار من الوجد الإلهي، وفي حماس واستغراق.

إنّ التعليمات الإلهية التي يفيض بها القرآن الكريم، تُظهر لنا دائمًا سبيل تحقيق العبودية الحقة لله، وتبين لنا قواعده. فنحن نرى هذه الحقيقة بالنظر في البيان الإلهي الكائن في سورة الإسراء بين آيتها الثانية والعشرين، وآيتها الأربعين. ففي الآيات المذكورة يوجه الله تعالى للأمة جمعاء تنبيهات، ويرسل لها رسائل من خلال شخص النبي ﷺ. والسمة الأساسية لهذه الرسائل، أنها واحدة في جميع ديانات الحق. يعني أنه من الممكن أن يكون في الأديان التي نزلت على البشرية، اختلافات في التفرعات، تتبع للتركيبة الاجتماعية للمجتمعات. إلا أنّ هذه الرسائل كانت واحدة في جميع أديان الحق.

الرسائل الإلهية...

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ [الإسراء: ٢٣]

الرسالة الأولى في الآية:

العبودية الخالصة لله ﷻ، لا تكون لأي فانٍ مما سواه، بل تكون لله وحده، والتسليم يكون لله وحده، والمغفرة تُرجى منه، والعبادة تؤدى له...

الرسالة الثانية في الآية:

الإحسان إلى الوالدين وبرهما، ومعاملة الأب والأم اللذين كانا سببًا في قدومنا إلى الدنيا معاملة حسنة، فالله تعالى يقول:

﴿...إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ...﴾.

فالإنسان عندما يكبر يدخل في طور من الطفولة. فتضعف قواه. وهو كما يفقد قواه الجسدية، فمن الممكن أن يفقد أيضًا مع الزمن ملكاته الذهنية. فربما يقوم الوالدان في هذه الحال بتصرف يثير في النفس تأففًا.

لكن الرسالة الإلهية في مثل هذه الحالة، واضحة جلية:

﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾.

ثلاث لعنات...

عن كعب بن عجرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**احضروا المنبر**» فحضرنا فلما ارتقى درجة قال: «**آمين**»، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال: «**آمين**» فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال: «**آمين**»، فلما نزل قلنا: يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه قال:

«**إن جبريل عليه السلام عرض لي فقال: بعدا لمن أدرك رمضان فلم يغفر له قلت: آمين، فلما رقيت الثانية قال: بعدا لمن ذكرت عنده فلم يصل عليك قلت: آمين، فلما رقيت الثالثة قال: بعدا لمن أدرك أبواه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت: آمين**». (الحاكم، المستدرك، ٤/ ١٧٠/ ٧٢٥٦)

وفي هذا الحديث ثلاثة تنبيهات جاء بها جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل.



التنبيهات الثلاثة...

أولها، هو تنبه للسعي نحو اغتنام رمضان الكريم، الشهر الذي يزخر من أوله إلى آخره بالبركة والرحمة والعفو الإلهي، بأفضل ما يمكن من خلال فعل الخيرات لعلها تكون وسيلة لنيلنا الغفران.

وثانيها، السعي لمعرفة قَدْرِ سيدنا النبي ﷺ، نبينا الذي كان فضلاً كبيراً من الله على أمة محمد، وهو الأسوة الحسنة، والمثال الأعلى...

فقد مر على رسول الله من كل ما سيمر على ابن آدم سواءً من عطايا، أو من بلايا، وهو ﷺ نبي رؤوف بأمته، رحيم بها إلى أبعد حد.

وله على رقابنا ديون كثيرة، وأكبرها بلا شك هو الصلاة والتسليم عليه من صميم القلب والروح...

أمّا الرسالة الثالثة التي يوجهها الحديث، فتتعلق بكيفية معاملاتنا لوالدَينا حين يبلغان الكبر. فخدمتهما وطاعتهما حق علينا. لكن إن كانت طاعة الوالدين سببًا في معصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لأنّ الشرط الذي يعلو ويسبق كل شيء هو طاعة الله...

لكن الله تعالى يأمرنا أيضًا بضرورة أن يكون موقفنا اتجاه الوالدين العاصين لله، رغم كل شيء، في إطار الإحسان والمعروف.

ويبين الله تعالى ماهية حسن التصرف مع الوالدين وبرهما على الشكل التالي:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾

[الإسراء: ٢٤]

هذا يعني أنه من الواجب الاعتناء بالوالدين العاجزين من جهة، ومن جهة أخرى الدعاء لهما وفاءً لما لهما من دين وفضل. وبهذا تُنال رحمة الله ويُنال رضاه.

فعلى الذين يدخلون بيوت الزوجية أن ينتبهوا بشكل خاص إلى أمرين هما:

أ. أن لا يقصروا في حرمة واحترام وحق والديهما الكبيرين.

ب. أن يسعوا إلى تربية ذرية حسنة صالحة مصلحة.

وهذا ما يتوجب على كل شاب وفتاة خطوا خطوة نحو الزواج. ففي النهاية، هما سيكونان يومًا ما في مثل حالة والديهما.

الشباب والجمال الزائل...

يتحدث الله تعالى عن مراحل العمر كلها، فليخص العمر كله بقوله:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]

يعني من نعطه عمرًا طويلاً يفقد شبابه وجماله، أفلا يعقلون إلى أين تسير تلك الرحلة.

أول ما يدخل الإنسان الدنيا يدخلها بعجز وضعف. ويكبر على حنان والديه وبين أذرعهما. وهنا دور مهم للوالدين. فعليهما أن يملآ عمر ولدهما بالخيرات والحسنات.

الله تعالى يمنح الإنسان القوة والقدرة في سنين شبابه. بعدها تنقلب قوته وقدرته على خلقته هذه، فينحني ظهره، وتفقد بعض الوظائف والأجهزة في الجسم قوتها، ويمكن أن تفقد الملكات الذهنية قوتها بالتزامن مع ذلك. فيقل تحمل الإنسان.

ويسأل الله تعالى الذي يجلّي هذه الحقيقة على الدوام:

أَفَلَا يَعْقِلُونَ أي أفلا يتفكرون إلى أين تسير هذه الرحلة.



الرحمة: التوبة...

إنّ جوهر المسألة هو إدراك الرحلة، والتمكن من إصلاح النفس. والله تعالى يقول في هذا المعنى:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٢٥]

إنّ الله ﷻ وهو الأعلم بما يكمن في القلوب، وهو يخبر عباده أنه لعبده:

﴿...أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]

ويعلمهم بحقيقة أنه:

﴿...يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]

إنّ الله عالم بأحاسيسنا أكثر منا. لكنه يفتح لنا أبواب الرحمة والنجاة بشكل دائم. وما يريده منا هو أن نتمكن من التوبة إليه بالإعراض عن السيئات.

لكن التوبة بالكلام هي أمر غير كافٍ. فالتوبة تبدأ بالإعراض عن السيئات، أي كرهها والنفور منها. وإنّ توبة كهذه، أو التوبة الصادقة التي نسميها التوبة النَصوحَ، هي المفتاح الوحيد لجميع أبواب الرحمة وأبواب الجنة.

لكن الله تعالى يريد أن لا يخدعنا الشيطان أثناء سلوك طريق التوبة إليه فيقول:

﴿... وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]

يعني يجب أن لا تقتصر التوبة على اللفظ، وإنما ينبغي أن تتجلى أيضًا في القلب.

والرسالة الإلهية التالية:



واجباتنا الاجتماعية...

ورد في الآية الكريمة:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ [الإسراء: ٢٦]

وهذا يعني أنّ أول من يجب علينا العناية به، وأداء حقه، هم الأقارب بالدرجة الأولى.

وبعدهم يأتي المساكين ثم ابن السبيل الذي واجهته بعض المصاعب في طريق سفره.

يعني أنّ الله تعالى يحملنا المسؤولية عن غيرنا. فهو يعطينا من ملكه كأمانة. أمّا الحقيقة، فإنّ الملك لله. فالعبد هو مجرد متصرّف ومؤتمن، وهو مسؤول عن تصرفه. يعني أنّ العبد الثري مؤتمن على الفقير والمسكين. ومكّلف برعايته. وليس له أن يتكبر عليه.

فالله تعالى يقول في الآية نفسها:

﴿... وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ [الإسراء: ٢٦]

أي لا تعش في بذخ يعود على نفسك، لأنّ الملك أمانة لك. فانظر إلى المساكين، وإلى المظلومين، والمحتاجين، وخذ العبرة من ذلك.

ويقول تعالى أيضًا عن المبذرين:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ [الإسراء: ٢٧]

إذًا ما هو المقياس الذي نعتبره هنا؟.

إذا ألقينا نظرة على المجتمع نجد صاحب الإمكانيات يقول: «المال مالي»، ويتصرف فيه كما يريد. ويقول: «لن آتي إلى الدنيا مرة أُخرى»، فيبذر المال ويبدده. ويخضع لإغواء النفس.



فالمقياس مقياس الأنبياء والصحابة.

لقد كان من بين الأنبياء الذين أرسلهم الله، من وقع في أوضاع غاية الحرج. وكان منهم من هو في غاية الثراء. لكن الأنبياء الأثرياء لم يجعلوا من قلوبهم صناديق للثروة، بل كانوا يحملونها دائمًا خارج قلوبهم. ولم يكونوا أسرى للمال، بل يعرفون التصرف به على الوجه الذي يرضي الله باعتباره أمانة.

وإذا نظرنا إلى أجدادنا العثمانيين نجد أنهم عاشوا استقامة كهذه في القرون الثلاثة الأولى. فالعثمانيون عرفوا كيفية التصرف في ثروة الله، فجعلهم الله في القرون الثلاثة الأولى حكامًا على ٢٤ مليون متر مربع.

المهم هو العبودية لله، وإدراك لمن هو الملك. ومن أجل ذلك يشترط عدم وجود شراكة مع الشيطان. لأنّ شراكة الشيطان أكبر العوائق عن دخول الجنة. وكم هو خسران عظيم البقاء خلف هذا العائق.

كلمة تجبر الخاطر...

نحن والملك مُلكٌ لله. لذلك يجب علينا أن نكون جابرين لخواطر الغرباء سواءً بمالنا، أو بحسن أحوالنا. ويعلمنا الله تعالى عن اللطافة والرقة في هذا الأمر:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾

[الإسراء: ٢٨]

لقد كان الغرباء والمنعزلين، والذين لا معين لهم يقتربون من رسول الله ﷺ. آملين بعطاء أو صدقة تُعطى لهم. ففي بعض الأحيان، لم يكن في يد رسول الله ﷺ ما يعطيهم إياه. وهو أصلاً كان كثيرًا من الوقت يمشي وهو جائع. فكان رسول الله ﷺ يخجل من طلب المحتاجين حين لا يكون لديه ما يعطيهم إياه.

فكان يعرض بوجهه عنهم بأناة، لأنه لا يستطيع إعطاءهم، دون أن يعلمهم بعدم قدرته. لذلك قام الله تعالى بتنبيهه:

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾. أي لا تعرض عنهم بوجهك بل واسهم».

وبذلك عاش النبي ﷺ حالة إنفاق دائمة، فعندما لا يكون في يده ما ينفقه، كان ينفق التبسم، والكلام الجميل.

لقد كان رسول الله ﷺ في كل أحوال الحياة، عطوفًا، محتضنًا، مواسيًا متوازنًا. فمثلاً، عاش المسلمون بلاء ثقيلاً في غزوة الخندق، لدرجة أنّ الشبهة وقعت في قلوبهم فقالوا: هل سيأتي نصر الله؟. عندها قال رسول الله ﷺ:

«اللهم إن العيش عيش الآخره...» (انظر: البخاري، ٢٨٣٤)

ومن بعدها كان على الحال نفسه عند النصر العظيم والفتح المبين في فتح مكة. فدخل مكة ساجدًا على جمل. ولم يكن يشير بإشارة النصر. ويقول لمن حوله:

«اللهم إن العيش عيش الآخره».

لأنّ كل النجاحات والانتصارات في هذه الدنيا أمر نسبي. فكل ما في الدنيا من نصر، تجلى به الله بعونه ومدده.

لهذا يجب أن يكون العبد في حالة التجاء دائمة إلى الله ﷻ. وأن يكون في حالة انفاق دائم، بماله وحاله وقوله وفعله. وأن يعيش متبسمًا متواضعًا.

وأن يعكس الوجه المتبسم للإسلام.

وبذلك يجب أن تكون البيئة الاجتماعية دائمًا مؤنسة مُرغِّبة. أفلا نتحمل نحن المسؤولية اليوم عن شباب جيل يرزح تحت وطأة التشتت العائلي، وعن المتروكين لأحكام الشوارع، والهاوين في المخدرات، والقاضين على أنفسهم بالفواحش؟.



فكم هو جميل قول الملا جامي: «اجبر خاطرًا، فيكون لك حج أكبر».

إنّ مستقر التجليات الذي أنشأهُ الإنسان هو الكعبة. إلا أنّ قلب الإنسان هو مستقر تجليات أنشأهُ الله تعالى. ومن هنا كان إرضاء القلوب هو العبادة الأكبر. وأكبر المصائب هو إيلامها وجرحها.

ويقول حضرة مولانا أيضًا في هذا الموضوع:

«كن مرهمًا، وإياك أن تكون شوكًا».

لا بخلٌ ولا إسراف...

إنّ أول خطوة ليصبح الإنسان مرهمًا هي مشاركة الآخرين. فعلينا أن نسعى لنكون مرهمًا لمن حولنا بكل ما أوتينا، بالعلم الذي تعلمناه، والمال والملك وحتى الوجه البشوش. وأفضل السبل لتحقيق ذلك تجنب البخل والإسراف. يقول الله تعالى:

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ [الإسراء: ٢٩]

لا يمكننا أن نعيش دائمًا كما نريد. وأن نكون متعالين على من حولنا. ولذلك مُنع الإسراف والبخل. لأنّ الإسراف هو صرفنا للمال كما نريد، والبخل هو اكتنازه لأنفسنا. وليس لواحد من هذين الأمرين وجهة اجتماعية، أو مكان في الإيثار. وكلا الوصفين هما من أنانية الإنسان وأثرته نفسه. لكن الله تعالى لا يريد عبدًا أنانيًا، وإنما يريد عبدًا مؤثرًا لغيره. في هذه الحال لا نستطيع أن نكون بخلاء ولا مسرفين. بل ينبغي أن نكون من أصحاب الإنفاق الدائم. ما هو المقياس في الإنفاق؟ المقياس يبينه الله تعالى بقوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. أي ما يزيد عن الحاجة.



امتحانان مختلفان...

يجب المحافظة على التوازن بشكل جيد. ولله تعالى تنبيه في مسألة الاقتصاد:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ [الإسراء: ٣٠]

في كلتا الحالتين، أي في بسط الرزق وقدْرِه، امتحان. هل سيجعل هذان الامتحانان العبدَ سائرًا إلى الجنة، أم – لا سمح الله– هاويًا إلى جهنم؟ هل سيكون العبد في كلتا الحالتين في عبودية لربه ورضا عنه، أم أنه سيهوي في العصيان؟.

لقد مرت على سيدنا النبي ﷺ، أوقات لا يملك فيها شيئًا، ولم يكن في بيته شيء سوى الماء. ومرت عليه أوقات جاءت فيها الغنائم فأصبح أغنى أغنياء مكة والمدينة. وفي كلتا الحالين لم يعطِ أهمية لمال الدنيا، فوزعه وأنفقه في سبيل الله على النحو الذي ينبغي له.

الثروة مسألة حظ. فالله يعطي من يشاء ويمنع عمن يشاء، وهذا أيضًا مسألة حظ. وإنّ عطاءه امتحان، وكذلك منعه امتحان.

فعلى العبد أن يكون راضيًا عن الله في كلتا الحالين. إن أعطاه شكر، ولم يسرف. وإن منعه عاش سر قوله تعالى:﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فينجح في امتحان الصبر.

فالذي ورد أصلاً في الآية الكريمة:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَّ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

يعني أنّ المال والأولاد وكل شيء سيبقى هنا. ولذلك، فإنّ قولبة الإنسان حياته على مفهوم يستند إليهما، يجعله مفلسًا.



الهواجس والجرائم المالية...

نحن نسمي العصر الذي سبق الإسلام بعصر الجاهلية، ونشعر محقين بالغضب اتجاه الناس الذين عاشوه جراء ما كانوا يفعلونه. ففي ذلك الزمان كانوا يقتلون أولادهم خشية على معيشتهم ورزقهم. لكن الله تعالى منع جريمة قتل الأولاد قائلاً:

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١]

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩] مبيناً بذلك أنه سوف يكون في الآخرة حساب وعذاب على قتل الأطفال.

ما الذي سنقوله عن عصرنا هذا؟

كانت البنت في عصر الجاهلية تُدفن حية في التراب. واليوم ملايين من الأمهات يقطّعن ما في أرحامهن من الأولاد على يد جزاري الإجهاض. فيقطع ذراع الولد ورأسه ورجله، قبل أن يلج الدنيا، وعلى مرأى من أمه.

وأمه تضحي به، كي تعيش براحة في هذه الدنيا. فلربما كان من شأن هذا الولد الذي ضحت به أن يكون لها غدًا سندًا في الحياة. وإلى جانب جريمة الإجهاض هذه، يشكل الأطفال الصغار الذين يُقتلون بلا عدد في الحروب من أجل غايات ومطامع قذرة، مأساة إنسانية أُخرى...

فصل الخطاب أننا نعيش تماماً اليوم في عصر جاهلية جديد.

وعلى هذا الاعتبار، علينا في هذه الأيام بشكل خاص، أن نقيس أنفسنا في ميزان كوننا عبادًا صالحين لائقين بعبادة الله، من عدمه. يا ترى ما هو تقصيرنا في



هذه المآسي والكوارث التي تحدث؟ في أي قوام من العبودية يجب أن نكون من أجل سلام وسكينة المجتمعات؟ لندعو بكثرة لكل العالم الإسلامي اليوم، مع لوم أنفسنا بمثل هذه الأسئلة وما شابهها؟ ولنكثر الالتجاء إلى ربنا وخاصة في نفحات فيض السحر، من أجل وطننا وشعبنا.

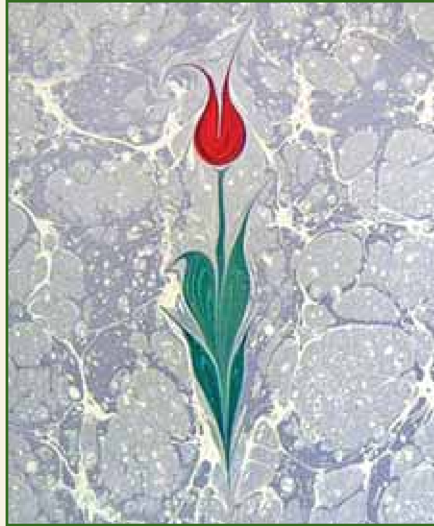
نسأل الله أن لا يصيب بلدنا بالزوال. وأن يخمد شرارة الحروب، قبل أن تصبح الدول والأبرياء أكثر تعاسة. وأن يتكرم على العالم بالعناية والطمأنية بحرمة الشهور الثلاثة الحضرة التي نعيشها. وأن يجعلنا من العباد الصالحين النافعين للإنسانية الذين ينشرون بشكل دائم، الرحمة والبركة.

آمـين!...



الشخصية المثالية

إنّ الإنسان مفطور على الإعجاب ببعض الشخصيات وتقليدها. وقد كان سلاطين القلوب عبر التاريخ نموذج للشخصيات الأكثر تأثيرا لأنهم حافظوا على الحيوية الروحانية وشموخ الإسلام ووقاره في المجتمع من خلال شخصياتهم الفاضلة. والله تعالى أحبهم بما امتلكوه من الإيمان القوي والأخلاق العالية، فحبّب بهم من يأتي من المؤمنين إلى قيام الساعة.



الشخصية المثالية

شرف الإنسان...

إنّ ابن آدم الذي خلقه الله ﷻ بوصفه خليفة له في الأرض جاعلاً منه أفضل الكائنات وأكرمها، عليه أن يتمتع بخصال وخصائص السمو التي تناسب مستواه، من أجل الحفاظ على موقعه المكرّم هذا. فإن لم يفعل فقد تهوي به نفسه في دركات أسفل السافلين.

لهذا، فإنّ على العبد أن يزدان بالأوصاف الربانية السامية التي تنجو به من دوامة الهوى وتتقدم به إلى الآفاق التي لانهاية لها، وتبلغه الفجر الأبدي. يعني عليه أن يعيش ضمن معايير شخصية فاضلة سامية، تناسب فطرته. فالذين يُوفقون لذلك ينجون بأنفسهم من جهة، ويقدمون العون لمن يتأثر بهم من الناس من جهة أُخرى.

الوجود معجب بالشخصيات المثالية...

مما لا شك فيه أنّ البشرية في هذه الدنيا في حاجة دائمة في الظاهر والباطن، للشخصيات السامية ذات القلب اللطيف الرقيق، والروح الدمثة، وللشخصيات النموذجية. وقد جذبت هذه الشخصياتُ الإنسانيةَ كلها وأهل السماوات والأرض منذ بدء الخلقة وحتى يومنا هذا؛ وقد حاولت العقول والقلوب تقلديهم بما أوتيت من قوة.



فالانسان يُعجب بالشخصيات والطباع الفاضلة ويقلدها. لأن "التقليد" هو واحد من أكثر النزعات تجذرًا في فطرة الإنسان.

فالطفل يتعلم لغته الأم بالتقليد. ويتقدم على طريق اكتساب شخصيته، تحت تأثير مَن كبر بين أيديهم كأبيه وأمه ومحيطه العائلي والاجتماعي. يعني أنّ تطور الإنسان منذ ولادته على الصعيد المادي والمعنوي، الإيجابي منه والسلبي دائمًا ما يبدأ بالتشكل في إطار الأشخاص الذين قام بتقليدهم. فالولد الذي يولد لأبوين مسيحيين ويتربى بين أظهر المسلمين، يكتسب شخصيته كمؤمن. وفي المقابل إن تربى طفل وُلد لأبوين مسلمين، بين المسحيين يكون تابعًا للمسيحية.

وما تبينه هذه الحقيقة، هو أنّ الإنسان يتقدم دائما وبشكل مباشر من خلال اتخاذ من يراهم حوله قدوة له، وذلك لأن تركيبته تتيح التقدم المستمر. ومن هذا المنطلق؛

كان الانبياء نماذج للشخصيات المثالية...

لقد بعث الله تعالى الأنبياء شخصياتٍ نموذجية، لسد حاجة الإنسان إلى القدوة بأفضل أشكاله، ولتأمين سير الإنسان على الصراط المستقيم.

وعند النظر في حياة سيدنا فخر الكائنات ﷺ، نرى تَنَزُّلَ الوحي الإلهي على قلبه بالدرجة الأولى؛ وتعبر عن ذلك الآيات الكريمة:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]



الشخصية المثالية مصدر للسعادة...

إنّ القرآن الذي ينزل على القلب، كان وسيلة لتجسيد شخصية وسلوكيات النبي ﷺ القرآن بشكل حي.

وقد أعجب الصحابة الكرام بهذه الشخصية وتلك الطباع، ولذلك نهلوا شخصية الإسلام وطباعه من القلب النبوي في المقام الأول.

فهؤلاء الناس الذين عاشوا قبل الهداية عصرًا شبه وحشي، ارتقوا ذرى اكتمال السلوك بالاستمداد من فيض ما انعكس عليهم من رسول الله ﷺ. وهذا الذي من أجله؛

سمي عصر الصحابة بـ"**عصر السعادة**" للإنسانية.

وأصبح أهل ذلك العصر أهل مجتمع "المعرفة".

واكتسب ذلك العصر، صفة موسمٍ للتفكر العميق.

وكان ذلك العصر عصر معرفة الله ورسوله ﷺ حق المعرفة.

لقد اجتث الصحابة الكرام أهواء النفس من مركز الفكر. وجعلوا من قلوبهم مقرًا للتوحيد. وتحرّوا الرضا الإلهي في كل مكان وزمان جاعلين من المال والروح وسيلة لذلك. ولهذا ذهبوا إلى الصين وإلى سمرقند ووصلوا إلى إسطنبول، ولم تصبهم تلك الأسفار بالتعب.

لأنّ المرحمة والهداية كانت متعمقة في قلوبهم.

وتحولت خدمتهم لدينهم إلى لذة إيمانية.

لقد جسَّد هؤلاء الصحابة دائمًا هوية الإسلام، التي تتمثل في الشخصية السامية والتضحية العظيمة.



الصحابة هم الذين كان أحدهم يقطع المسافة الشاسعة طوعًا وحبًا، من أجل تلقي حديثٍ من أحد الرواة. وقد استقرت في قلوب ذوي الحظ العظيم هؤلاء، هوية وشخصية إسلامية، لدرجة أنهم لم يأخذوا بحديث رواه رجل يخدع خيله بكيس علف فارغ. ووجدوا في ذلك الشخص الذي خدع حيوانه ضعفًا في الشخصية.

وقد تحولت طبيعة الحال فيهم إلى الزهد. فالاستهلاك الجائر، والأطعمة الجاهزة، والرفاهية، والتباهي السائد في هذا المجتمع، لم يكن نمط حياة عرفته بيئة الصحابة.

وبعد أن امتدت حدود دولتهم في عشر سنوات من المدينة إلى فلسطين، لم يغيروا من عوالمهم القلبية. ورغم انتقال الثروات إلى أيديهم، لم تتغير معايشهم، ولا هندسة بيوتهم، ولا أشكالهم ولا تركيبتهم الروحانية.

وبذلك دخلوا تاريخ العالم باعتبارهم " أناساً في ذروة الحضرة".

فعلى المؤمنين الذين جعلوا خدمة دين الله غاية لهم، أن ينالوا نصيبًا من هذه الأسرار العلوية، وأن يسعوا إلى الاستقاء من فيض القرآن، جاعلين من أحوال الحضرة للصحابة الكرام نموذجًا لهم.

المفتاح الذي يفتح أبواب القلب المقفلة...

يوم ما نزل مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة في سبيل دعوة أهل يثرب إلى الإسلام. وقصد مصعب وأسعد ذلك اليوم دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر.

وفي ذلك الوقت، لم يكن أسيد بن حضير وسعد بن معاذ قد أسلما بعد وكان أسيد وسعد سيدا القوم في دار بني عبد الأشهل. فطلب سعد بن معاذ من أسيد بن حضير في هذا اليوم أن يذهب إلى مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة



ويحذرهم من الاقتراب من دار بني عبد الأشهل وأن يتعرضا لضعفاء دار بني عبد الأشهل.

فأخذ أسيد بن حضير حربته وذهب إلى مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة وشرارة الغضب تتطاير من وجهه. وعندما علم مصعب وأسعد بقدوم أسيد بن حضير قال أسعد لمصعب: إنّ هذا الرجل من أسياد قومه، فقرر مصعب أن يدعوه إلى الإسلام، والإيمان بالله. دخل أسيد بن حضير عليهما وتوجه إليهم بالحديث الغاضب قائلاً ما حملكما على أن تتعرضا لضعفاء بنى عبد الأشهل، وطلب منهما صائحاً أن يذهبا ويتركا هذا المكان إن كانا يريدان لنفسهما الخير. فتلطف مصعب بن عمير مع أسيد بن حضير وسأله أن يجلس فيتحدث معه، فإن رضي الحديث فليقبله وإن لم يرضه فليفعل ما يشاء، فوافق أسيد بن حضير على ذلك. وعند جلوس أسيد بن حضير ترك حربته وتلا مصعب بن عمير القران الكريم على مسامع أسيد بن حضير فأعجبه ما سمع، وسأل مصعبَ بن عمير عن كيفية دخول هذا الدين. فأخبره مصعب إنه يجب أن يتطهر ويغسل ثيابه ثم يشهد شهادة الحق ويصلى ركعتين لله تعالى، فما فرغ مصعب من كلمته حتى فعل أسيد بن حضير ذلك. وبعد أن انتهى أخبر أسيدٌ مصعب وأسعد إنه يعرف رجلاً لو اتبع دين الله فلن يتخلف أحد من قومه عن الدخول في الإسلام وهو سعد بن معاذ، فقرروا الذهاب اليه. فأخذ أسيد حربته وتوجهوا إلى منزل سعد بن معاذ.

وعند وصولهم إلى منزل سعد بن معاذ دخل أسيد بن حضير وحده، فسأله سعد بن معاذ عما فعل، فأخبره إنه التقى الرجلين، فدخل رجل من قوم سعد بن معاذ قائلاً له إنّ رجلاً من بني حارثة أراد أن يقتل ابن خالته أسعد بن زرارة، فخرج سعد غاضباً وهو يحمل حربته، فالتقى مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة.



فالقى اللوم على ابن خالته، فطفق مصعب يتحدث قائلاً سوف نتحدث إليك حديثاً إن رضيت فهو خير، وإن كرهت افعل ما شئت، فقرآ عليه من القرآن، فطلب سعد بن معاذ أن يتعلم كيف يدخل الإسلام. فأخبره مصعب أن يغتسل ويطهر ثيابه ويشهد شهادة الحق ويصلي ركعتين، ففعل ودخل في الإسلام.

لا شك ولا ريب أنّ هذه القصة هي نموذج يبين كيف وصل الصحابة الكرام الذين نشؤوا على التربية الروحانية لرسول الله ﷺ، إلى ما وصلوا إليه من وعي ونضج عظيمين.

لقد كتب ذوو الحظ العظيم هؤلاء ببركة الإسلام الذي هو إحياء للإنسان قاعدة:"**من جاء لقتلك، فليحيى بك!**" على صفحات تاريخ البشرية بحروف من ذهب.

ذروة العفو والمرحمة...

حول هذا الموضوع، كان رسول الله ﷺ قد عفا عن كثير من المجرمين الذين يستحقون الموت، وحتى عن وحشي الذي قتل حمزة رضي الله عنه، وعاملهم بحلم. فقد سبقت الرحمة والمرحمة التي سكنت قلبه وكيانه غضبه. فكم خمد في كوثر الحقيقة عنده من نيران الضلالة والغفلة التي أحرقت البشرية. وصارت أرض ورود تُنبت من أكمام الورد ما لا مثيل له.

فالعصر الذي عاش فيه: تخلص الناس فيه من وحشية وجهالة عبرت عنها مقولة الشاعر: «من لم يكن له ناب أكله إخوانه»، وتحولوا إلى شخصيات مؤثرة لأخوانها، يعطي جريحهم بعد القتال والموت يدركه من الظمأ، ونفسه تواقة إلى قطرة الماء، فيعطي ما أحضِر له من الماء لجريح آخر قائلاً: «خذوها له»، مانحًا ما لديه وما تحرّقت نفسه عليه في آخر نفس لأخيه.



أن يكون في الصدارة حتى في عيون أعدائه...

إنّ الركب الإلهي، الذي شكله النبي ﷺ والذي ارتقى بالإنسانية إلى ما لا يمكن بلوغ كعبه من القمم الروحانية، كان دائمًا في الصدارة.

فقد اجتمع في مدينة لاهاي في هولاندا القرن المنصرم مجلس من العلماء والمفكرين، واختاروا أعظم مئة رجل في العالم، حيث وجد أعضاء المجلس الذين كانوا جميعًا من المسيحيين، أنفسهم مرغمين على إعلان رسول الله ﷺ أعظم وأفضل رجل في العالم، في إطار معايير الأخلاق التي قاسوا عليها.

ومن الأمور اللافتة، أنّ ٩٠ في المائة من الصحابة اختاروا الإسلام لمجرد إعجابهم وذهولهم بشخصية الرسول ﷺ، وما عُبِّر عنه بالأُسوة الحسنة، من طباعه الراقية وأخلاقه العظيمة، وأوصافه الفُضلى.

وحتى أولئك الذين أمعنوا في عدائه، لم يستخدموا في وصفه كلمات سلبية كالـ" الكاذب " أو " الظالم " ولم يستطيعوا حتى بنية الإساءة إليه، أن يقولوا عنه سوى كلمات المديح.

الشخصية المثالية ليس من الممكن اتهامها...

في عام ٦٢٨ وصل إلى هرقل إمبراطور الروم، رسالةٌ من رسول الله ﷺ يدعوه فيها إلى الاسلام. وكان في تلك الفترة قد عاد إلى الشام منتصرا في حربه مع الفرس.

إنّ إمبراطور الروم الذي أصابه، علاوة على غضبه من هذه الرسالة، فضول حولها، وبشكل خاص معرفة ما يكون هذا التبليغ الذي جاءه، أمر بأن يحضر إليه بعض أهل بلدة النبي ﷺ حتى يسألهم بعض الأسئلة.



وكان أبو سفيان، وهو من ألد أعداء النبي ﷺ في ذلك الوقت، على رأس قافلة تجارية من مكة في سورية، وكان ذلك في السنة السادسة قبل الهجرة، وكانت قريش في قطيعة مع رسول الله ﷺ. وقد صادف رجال هرقل تجار مكة، وذهبوا بهم إلى قصر الإمبراطور.

وكان هرقل ورجاله في تلك الأثناء في إيلياء، في بيت المقدس، وعندما حضر مجلسه عدد من وجهاء الروم. أُذن بدخول تجار مكة إلى القصر، وأمر بترجمان، فسأل الترجمان بأمر من هرقل:

أيكم أقرب نسبًا إلى الرجل الذي يقول: "أنا نبي"؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبًا إليه.

فقال هرقل: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره.

ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه.

فقال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟.

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟.

قلت: لا

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟



قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: «قل له: سألتك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجلٌ يتأسى بقولٍ قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلتُ رجل يطلب مُلك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على



الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً: فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه».

وسيلة للهداية...

وبينما عبر الكثيرون على شاكلة هرقل عن إعجابهم بالشخصية الكاملة السامية لرسول الله ﷺ، فإنّ كثيرًا من ذوي الحظ السعيد الذين شهدوا وعاصروا نور الوجود، ورأوا شخصيته العظيمة وخصاله الفضلى ووجهه المبارك، تاقت أنفسهم بابتهاج إلى جو نفحات الإيمان.

فعبد الله بن سلام الذي كان حبرًا من أحبار اليهود، سأل عن النبي ﷺ عند هجرته، وحين رأى وجهه المبارك قال: «هذا الوجه لا يكذب»، ودخل في الإسلام.

ويقول ابن أبي رمثة التميمي:

«دللتُ على رسول الله ﷺ، فلما رأيت نوره المبارك قلت: هذا الرجل العظيم، نبي الله ورسول الحق».

فقد كان يملك من الجمال والهيبة والنورانية واللطافة، ما لا حاجة له معه لمعجزة أو دليل أو برهان يثبت نبوته.



لوحة الشرف...

كم هو جميل قول مولانا:

«سأبقى خادماً تابعًا للقرآن وترابًا على سبيل محمد ﷺ ما دامت هذه الروح في هذا الجسد.... وإن كان لأحد أن ينقل عني غير هذا الكلام، فإني بريء منه ومن كلامه».

إنّ النبي والإنسان الوحيد الذي سُجلت وأثبتت حياته كاملة وبأدق تفاصيلها في التاريخ، هو محمد المصطفى ﷺ.

وبتسجيل كل أفعاله وأقواله، دخل التاريخ وساماً على لوحة شرفه.

الشخصية المثالية والتربية الإلهية...

إنّ حياة رسول الله ﷺ هي نموذج وقدوة لما سيأتي الدنيا من أجيال إلى قيام الساعة. وقد قيل عنه في القرآن الكريم في سورة القلم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

وإنّ الله تعالى الذي خلقه بهذه التركيبة من الأخلاق العظيمة وتولى تربيته بنفسه، يبين في قرار إلهي أنه نال مرتبة الأسوة الحسنة والهادي النموذجي للإنسانية بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَّ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]

لقد بلغ في الأسوة عظمة وعلوًا، جعل من يقتدي به يغدو قدوة للعالمين.

ومن أجل ذلك، يجب أن يكون الاقتباس من أخلاقه الحسنة وشخصيته العظيمة مقدمًا على كل شيء.



لأنّ الناس يُعجبون بالشخصيات المستقيمة والنموذجية والوقورة، ويتخذونها قدوة يتبعونها.

وتاريخ الإسلام مليء بما لا يُحصى من البراهين على هذه الحقيقة.

حالة تأثير الشخصيات الضعيفة والمنحطّة...

لقد اتسعت حدود الدولة في عصر العباسيين اتساعًا هائلاً، ونُقل مركز الدولة وجميع ثرواتها إلى بغداد.

وبالتزامن مع ذلك، كثرت وبشكل كبير أبواب الترف والبذخ والمتعة، وبشكل خاص لمن يجنح إلى الدنيا من أهل الطبقات العليا. فقد استمر زفاف الوزير حسن بن سهل الذي تزوج ببنت الخليفة المأمون، لتسعة عشر يومًا، وتم بقمة البذخ والإسراف. وقد ساد تصرفٌ كيفيٌ في خزائن الدولة، وانغماس في الملذات. ووقعت قلوب الكثيرين في أسر عظمة الثروات التي امتلكتها الدولة.

ولا شك أنّ الذين ضعفت قوبهم واضمحلت شخصياتهم بالوقوع بأسر كهذا، لم يكونوا أبداً قدوة حسنة لمن حولهم، ولم يتركوا لمن خلفهم أي أثر لا يمحى أو ذكرى خير.

قوة تأثير الشخصية السامية المتينة...

وفي المقابل، كان في ذلك العصر أناس من أولياء الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل الله، وعاشوا حياة التقوى، يدعون الناس في بغداد إلى الحق، ويعملون على تزكية النفوس، ويحيون القلوب ويرشدونها إلى طريق القرآن الكريم والسنة السنيّة. ومن أمثالهم عبد الله بن المبارك، وسفيان الثوري، والفُضيل بن عياض، وجنيد البغدادي، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي...

وكانت هذه الذوات القيّمة، على عكس غيرها من الذين سقطوا وانحلّوا في الأهواء والشهوات، يجسدون أخلاقًا سامية، وفضلًا، ولطافة، وخدمة فياضة لدين الله. وبذلك لم تستطع تلك الممالك الدنيوية بترفها، أن تشتري قلوب أولياء الله كهؤلاء. ولم يستطع أي موقع أو منصب في الدنيا أن يفرقهم عن غاياتهم المباركة، ومهامهم المقدسة.

وكان هؤلاء ملجأً وملاذًا للذين كانوا على وشك الغرق في طوفان المادية. فكان الأمراء والوزراء ورجال الدولة يحكمون أجساد الناس، أمّا أولياء الله هؤلاء فتربعوا على عرش القلوب.

هؤلاء، كانوا يخدمون الشعب ببسالة وتضحية، دون أن ينقادوا إلى أي منفعة مادية، وكانوا بأحوالهم الإيمانية الزاخرة بالوجد، يفرضون تأثيرهم حتى على غير المسلمين.

كان الخليفة العباسي هارون الرشيد، في ظل رفاهية وترف الملك في الرقة. وفي يوم من الأيام، وصل إليها الإمام عبد الله بن المبارك. فخرج الناس إلى خارج البلدة لملاقاته. وبقي الخليفة وحده تقريبًا في تلك المدينة الكبيرة.

فسألت إحدى جواري هارون الرشيد وكانت تشاهد هذا المنظر من الشرفة:

«ما هذا؟ ما الذي يحدث»

فقال لها الناس: «جاء عالم من خرسان، اسمه عبد الله بن المبارك، والناس خرجوا لملاقاته».

فقالت الجارية:

«هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط وأعوان».



خلاصة القول...

حقاً، إنّ هؤلاء العباد الصالحين حافظوا على الحيوية الروحانية وشموخ الإسلام ووقاره في المجتمع من خلال شخصياتهم الفاضلة.. وأحبهم الله تعالى لما امتلكوه من الإيمان القوي والأخلاق العالية، وحبّب بهم من يأتي من المؤمنين إلى قيام الساعة. جاء في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم: ٩٦]

اللهم اجعلنا من العباد المصلحين، ذوي الوقار والثبات، والحظ العظيم، والشخصيات المتينة، الذين بلغوا الآفاق باقتفاء آثار أقدام النبي ﷺ.

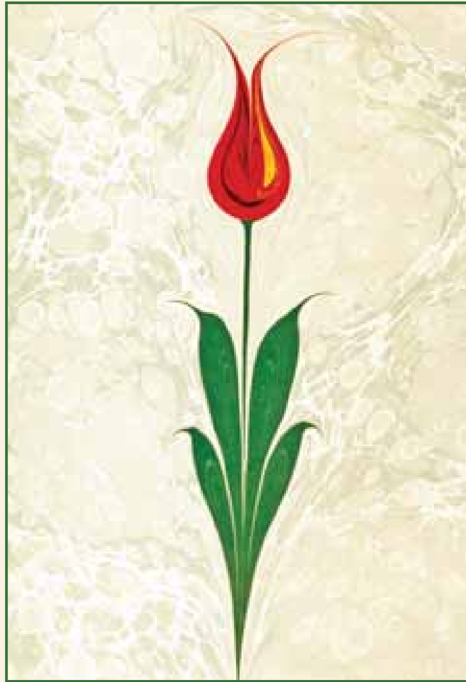
آمـين!...





أن يصبح المرء إنساناً ذا قلب

إن كنت إنساناً ذا قلب فهذا يعني أنك شمس تضيء جميع القلوب. فتنعكس عنك مناظر عميقة رسمتها كثير من الأنوار الصادرة عنك. وكم من الملوك يأتون إلى هذا العالم الفاني ثم يزولون. ويُنسَوْن ويبقى ما ترك ملوك القلوب قائماً إلى قيام الساعة.



أن يصبح المرء إنساناً ذا قلب

كعبة الله...

إنّ جميع الخيرات التي تجعل الإنسان إنساناً تربو وتنمو في تربة القلب. وليس للعقل شأن في ذلك إلا بقدر ما يخدم تلك التربة. لأنّ القلب كعبة الله ومحط نظره.

من هذا المنطلق، فالذين يجلون مرايا القلب ينالون الخيرات اللامحدودة، ويصبحون محل تجليات الله تعالى اللامتناهية. لذلك فحتى صمت أهل القلوب ينطق بالكثير ويحكي الكثير...

كلام بلا حروف...

عندما صعد سيدنا عثمان المنبر ليخطب خطبته الأولى في الناس بعد اختياره خليفة خطب في الناس صامتاً.

ويحكي لنا حضرة مولانا الحكمة البالغة في ذلك الموقف فيقول:

«لما صار سيدنا عثمان ﵁ خليفة أسرع إلى المنبر ليخطب في الناس.

كان منبر رسول الله ﷺ الذي تشرّف الكون بوجوده مؤلفاً من ثلاث درجات. وكان سيدنا أبو بكر ﵁ قد جلس على الدرجة الثانية منه. وجلس سيدنا عمر ﵁ على الثالثة. أمّا سيدنا عثمان ﵁ فصعد إلى الدرجة الأولى التي



كان يجليس عليها النبي ﷺ، وجلس عليها. فقال رجل لا يعرف قدر نفسه جاهل بالحياء والإيمان الرفيعَين لدى ذلك الخليفة العظيم: لم يجلس الخليفتين من قبلك مكان رسول الله. فلماذا آثرت أن تعلوهم ولست بأعلى منهم؟.فقال سيدنا عثمان:

لو جلست على الدرجة الثالثة لوهم الناس أني أتشبه بعمر ﷺ، ولو جلست على الثانية لقال الناس إنه يتشبه بأبي بكر ﷺ. أمّا أعلى المنبر فهو مكان رسول الله ﷺ، وبذلك لا يوهم أحد أني أتشبه بسلطان الأنبياء.

بعد ذلك، جلس سيدنا عثمان ﷺ حيث ينبغي أن يخطب، فما فتح شفتيه حتى اقتراب وقت العصر، حيث صمت وصمت وصمت...

ولم يكن لأحد أمام صمت الخليفة ضمن بحر الروحانية أن يقول له "هيا انطق"، أو أن يخرج من المسجد.

وغشيت الناسَ هيبة، شملت ذوي العلم والشهود، وأهل الحال، وحتى محرومي العلم والشهود، وعبق المسجد داخله وخارجه بتجليات نور الله ﷻ.

وكان الذين يشاهدون من خلال نوافذ قلوبهم ما وراءها يرون ذلك النور الإلهي. وكان عميُ القلوب المحرومين من تلك الرؤية يشعرون أيضاً بحرارة تلك الشمس».

يظهر من هذا المثال أنّ الذين لا يُحصرون بين سطور الكتب، ولا يعيشون كالصحراء الظمآنة بين العلوم الجافة، أي جنود القلوب وعساكره؛ عندما يصمتون يقولون كلمات أعمق تأثيراً من آلاف النصائح. فكلماتهم التي بلا حروف تحمل معانٍ أوسع من حروف الكلمات...

وعليه، فالأمر هو أن تقدر على أن تكون إنسان قلب!



إن كنت إنساناً ذا قلب...

إن كنت إنسان قلب فهذا يعني أنك شمس تضيء جميع القلوب. فتنعكس عنك مناظر عميقة رستمها حزم الأنوار الصادرة عنك.

إن كنت إنسان قلب تمتد رحابة قلبك إلى جميع الكائنات. وتشاهد الله والحقيقة في هذا الكون من الذرة إلى الكرة الأرضية.

إن كنت إنسان قلب تصبح روحاً ومحبوباً في كل سلوكك وعباداتك.

إن كنت إنسان قلب فهذا يعني أنك بؤبؤ عين العالمين وجوهرهم وخلاصتهم.

إن كنت إنسان قلب فستنال جمالاً وسمواً عُلْوِيَّيْن حتى يتعدى نقشك للإتقان والفن الفاخر الذي فيك على القلوب إلى غيرها فيتعداها لتنقشها على الحجارة وعلى الورق... فتغدو حصىً نقشتها أثمن من الماس، وتكتسب ورقة رقيقة بانعكاس روحك عليها قيمة لا يمكن أن تقدر بثمن.

إنّ سر هذا الزهو والتألق الكامنين في نتاجات معمار سنان -الشخصية الخالدة في تاريخنا الفني- وكذلك في نتاجات قره حصاري -شمس فننا في الخط التي لا تغيب- وحافظ عثمان؛ يكمن في هذه الحقيقة، أي يكمن في كون كل واحد منهم إنسان قلب.

المُلْكُ الحقيقي...

إن مُلك الملوك الذين غدوا أناس قلوب مختلف جداً. لأنّ أصل المُلك مُلك القلب. فالقلب المتوجه إلى الله تعالى هو محط نظر الإله. وكم من الملوك يأتون إلى هذا العالم الفاني ثم يزولون ويُنسَوْن ويبقى ما ترك ملوك القلوب قائماً إلى قيام الساعة. أولئك لا يبقون في الماضي، بل يعيشون من بعد حياتهم الفانية.



فالسلطان ياووز سليم خان الذي هو أحد هؤلاء السلاطين. قد قضى عمره وبإحدى يديه السيف وبالأخرى القلم، وفي قلبه مخافة الله.

وهكذا، فقد انعكس قلمه وشعره، أي رقة قلبه، على انتصاراته، فرأى نفسه خادماً لا حاكماً، ففي يوم الجمعة الموافق لـ ٢٠ شباط عندما وصفه الخطيب في جامع الملك المؤيد بأنه "حاكم الحرمين الشريفين" قاطعه بعينين حمراوين باكيتين، وقال له: «لا، لا، بل خادم الحرمين الشريفين».

ثم أزال السجادة التي أمامه، وسجد على التراب لربه شاكراً، وحتى يعبر عن خادميّته للحرمين الشريفين جعل ريشة على عمامته على شكل مكنسة.

وعاد إلى العاصمة، وقد غشاه ارتعاش مدهش، بعد أن حاسب عالمه الداخلي عقب الانتصارات العظيمة. واستحيا من أن يستعرض أمام الناس الذين أرادوا استقباله باحتفال بهيج وقال:

«فليظلم الليل، وليعد الجميع إلى بيوتهم، ولتفرغ الطرقات، ثم أدخل إسطنبول، فلا يغرينّنا تصفيق الفانين وبهجة الانتصار ومدح المادحين، فتعجب نفوسنا فتردينا...».

وبذلك لم يجعل ياووز أبداً من نفسه وشهواته حجاباً أمام عينيه، بل كان صاحب نظرات عميقة تجاوزت القرون، واستطاع أن يخطو وفق هذه النظرات.

وكذلك كان والده السلطان بايزيد خان الثاني.

بصيرة القلب والسليمانية...

لقد كان بايزيد الثاني إنسان قلب كبير مبتكرًا للأفكار الصائبة التي انعكست نتائجها إلى يومنا هذا بشكل إيجابي وباهر. فهو إلى جانب ما أنشأ من أوقاف ومجامع ومشافٍ وخدمات خيرية، كان قد أولى العلوم الإسلامية والثقافة اهتماماً



كبيراً. وذكر التاريخ عهده بالعهد الذي وضعت فيه أسس الثقافة والحضارة العثمانيتين. فقد أرسل المعمار والرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دافنشي كتاباً لبايزيد الثاني يعرض فيه عليه أن يضع هو بنفسه مخططات ومشاريع المساجد والصروح الأخرى في إسطنبول، فأثار ذلك السرور بين وزرائه.

أما بايزيد خان الثاني صاحب الشعور والإحساس الصوفي العميق الدقيق فقد رفض ذلك العرض، وقال:

«إذا قبلنا بهذا فسيحكم في بلدنا من ناحية الأسلوب والروح العمران المقلد لعمران الكنيسة، ولا يمكن حينها لعمراننا الإسلامي أن يتطور، ولا أن ينشئ شخصيات معمارية...».

إنّ هذه الرؤية تعبر عن أفق مسلم عاقل ذي فراسة ومن أهل القلوب، فكما بلغت رقعة العالم الإسلامي من بعد بايزيد الثاني أربعة وعشرين مليون كيلو متراً مربعاً بلغ الفن الإسلامي كذلك ذروته. وبفضل هذا الفهم نُقشت روح الإسلام هندسياً، وأُنشئت سلسلة الرموز والصروح التي تستطيع حماية قيمته إلى يوم القيامة، مثل السليمانية وأمثالها.

كما أنّ المرشد الدائم الظاهري والباطني لأناس القلوب الحقيقيين كان رسول الله ﷺ سلطان القلوب. وحسب الرواية، لما همَّ السلطان سليمان خان القانوني ببناء مسجد السليمانية جاءه رسول الله ﷺ في المنام فأرشده إلى مكان المسجد، وأوصاه بعدة توجيهات حول مواصفات المسجد الداخلية والخارجية، وأفاد بذلك بشكل مفصل على شكل: "اجعلوا المنبر هنا، والمحراب هنا، ومجلس الدرس هنا".

استيقظ القانوني الذي غشيه حماس وسرور عظيمان وصلى على سيد العالمين وشكر الله تعالى باكياً.



وكان أول شأن له في اليوم التالي هو أن يذهب فوراً إلى المكان الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، وبعث إلى رئيس المعماريين الكبير سنان، وصارحه ببناء مسجد شريف في المكان، فقال له سنان الكبير، وكأنه كان ينتظر هذا الطلب:

"معالي السلطان نبني المسجد في هذا المكان على هذا المنوال، ويكون محرابه هنا ومنبره هنا ومجلس الدرس هنا"، مكرراً العبارات المباركة التي قالها رسول الله ﷺ للقانوني في المنام. فنظر القانوني إلى سنان متبسماً وقال له:

«كأنك على علم يا رئيس المعماريين...».

حنى سنان رأسه وقال له بأدب كامل في صدد إخباره بأنه رأى ذات الرؤيا الصادقة: «لقد كنت وراءكم مباشرة يا حضرة السلطان...»

حينها أصدر القانوني الذي بلغت فيه السعادة والحماس مبلغهما أمراً على الفور مفاده: "فليبدأ بناء المسجد الشريف على الفور".

وهكذا نُقِشَ مكنوزُ جوهر إنسانية القلوب وفن جمال الشعر وروح التقوى التي هي جمال العبادة على الحجارة بشكل دقيق. ولم يُشيد بناء مادي بل قصر معنوي وصرح من صروح القلوب. وفي النتيجة، أثرٌ بارع الجمال وباهر الصنعة من جهة الروح والشكل. وما أجمل ما وصف به الشاعر يحيى كمال هذا الصرح فقال:

هو ذا شكله الحقيقي الذي تخيله المعمار
حتى يكون أجمل بيت عبادة لآخر الأديان
حمل طينه الأبطال مع قائدهم
ما أوهنت الحجارة آلاف العمال مع معمارهم
فتحوا باباً أخروياً من هنا إلى السماء
في هذا الوطن الحر الفسيح في ليله ونهاره
حتى تمر منه جيوش الأرواح إلى الرحمة الأزلية
هذا هو النصر



القلب المرتقي بالتواضع...

مزج سنان الكبير صرحه بفنّه الظاهر، ووضع بصمته التي تشير إلى قلب عظيم بلغ فيه الذروة. وهذه البصمة صفحة قلب متواضع مليءٍ بالولاء لله، ومشاعر تقوى كامنة في روحه. كما أنه اجتنب أن يوقّع توقيعاً ظاهرياً على صرح السليمانية العظيم على الرغم من أحقيته بذلك. وبنى قبره المتواضع خارج مجمع السليمانية وقريباً منه بمثابة توقيع متواضع موقَّعٍ في الزاوية السفلى لوثيقة صرح تاريخي جليل، وخلّدَ بذاك تواضعه كما خلّد صرحه.

يقول عارف نهاد آسيا تحت تأثير هذه المشاعر العظيمة:

لما عزَّ صرحه عن الحساب
انزوى معماره عن الأنظار...
هو ذا النجاح والتواضع
صرح من عظمة وتوقيع بنقطة

أرسلْ لنا رباه رجلين
مثل ما أرسلت من بطلين
مثل سليمان ومثل سنان
حتى يكونا أسوتين

حتى لا تصير كما بعد خراب البصرة...

لنقل آمين من قلوبنا على دعاء الشاعر أعلاه. لأنه إن لم ينشأ لدينا إنسان قلب بقمة توازي سنان وأقرانه فلن يُعنى أحد بحق بالآثار الموجودة فضلاً عن إنشاء صروح جديدة مثل السليمانية.

إنّ إيذاء صور الاستغلال والإهمال المتعلقة بكثير من تراثنا التاريخي، والتي نشهدها كل يوم، لأرواح أجدادنا العزيزة، وبالأخص روح سنان الكبير؛ لحقيقة



مؤلمة. وما ترتب على عدم عنايتنا بهذه الأمانة من خسارة وربح أمر جلي. ولا ننسى أيضاً أنّ بعض الخسائر يستحيل تلافيها حتى لو عاد الإنسان إلى رشده وندم. ويصدق هنا المثل الذي يضرب في مثل هذه الحال، والذي تعاقب على ألسنة الناس:«بعد خراب البصرة افعل ما تشاء...».

وما أجمل ما يشرح به المرحوم محمد عاكف هذه الحقيقة إذ يقول:

أيمنح الهدم الناس قيمة كالبناء؟
فهو بمقدور أكثر الناس عجزاً
قم فقط وقل " هذي هي القبة "
عاملان فقط يجعلان السليمانية أرضاً...
أما إذا قيل تعال لنرفع، هيهات حينها
سليمان من جديد يلزمنا وسنان!...

حتى نرى هذه الحقيقة ونشعر بها وندركها ينبغي أن تكون أعين قلوبنا مفتوحة ومتيقظة دائماً. ومما يستحق منا التفكير أننا نرى حتى السائح الأجنبي يريح روحه في ظل هذا البناء.

عين القلب...

يقول حضرة مولانا:

«كم من الناس في هذا العالم عين رأسه يقظة وعين قلبه نائمة، لكن صاحب القلب اليقظ حتى لو أغلق عين رأسه تنفتح في قصر قلبه مئات العيون البصيرة».

«إن لم تكن من أهل القلوب فكن يقظاً، يقظاً على الدوام، واطلب من الله قلباً واعمل لذلك وجدّ في السعي».



«إن كان قلبك يقظاً فلا تخف، فلن يغيب عن عينك بعد هذا لا سبع طباق ولا ست جهات، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي"».

«اعلم أنّ هاتين العينين الفانيتين اللتين تراهما في رأسنا هما ظلٌّ لعيننا الأصلية التي هي عين قلبنا، فكما ترى عينُنا الأصلية الأشياء تراها كذلك عينانا الفانيتان عاجلاً أو آجلاً، وتصبحان لها مرآة».

«ولا يستطيع أن يعرف هذه الحقيقة أولئك الذين يصنعون الإصطبلات، إنما يعرفها العارفون أهل القلوب بقلوبهم لا بعقولهم».

«أيها الغافل، أتعلم أنك عندما تموت لن يبقى أي من مشاعرك هذه، ألدى روحك نور حتى يصفى قلبك».

«في القبر تمتلئ هذه العين بالتراب، ألديك نور روحاني، ألديك عين قلب حتى تضيء القبر، فعندما لا يبقى في الجسد روح حيوانية يجب عليك أن تضع بدلاً عنها روحاً خالدة لا تموت».

«إنّ شرط الحصول على تلك الروح الخالدة ليس فقط العمل الصالح بل هو إيصال ذلك العمل الصالح إلى الله تعالى. وهذا ممكن بالإخلاص، لأنّ الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ..**﴾ [التوبة: ١٠٤]».

«وطريق إيصال العمل الصالح إلى الله تعالى يمر من القلب، فإن كان لديك بصيرة فطف بكعبة القلب. فالمعنى الأصلي للصندوق المصنوع من الطين (الكعبة) هو القلب».

«لقد فرض الله تعالى عليك الطواف حول الكعبة الصُوَريَّة المعروفة التي نراها حتى تحصل على كعبة قلب نقي نظيف من المعاصي».



عجين الإيمان...

لقد عجن أجدادنا أنفسهم ونتاجاتهم الفنية بعجين الإيمان الذي هو في القلب كتجلٍّ من تجليات كعبة القلب. فها هو سنان ولأنه بنى السليمانية بالمقاييس العميقة لحقيقة كهذه ترك لنا صرحاً خالداً لا يموت. فخلال بناء الأثر اهتمّ بألا توضع حجارته في مكانها بلا وضوء، وأن تُراح الحيوانات التي تحمل الحجارة والمعدات، وأن تُشبَع. وإن هذه الكلمات المنتشرة على ألسن الناس تعبير تام عن الحقيقة:

"صاحب السليمانية السلطان سليمان ومعماره سنان وعجينة الإيمان".

إيمانٌ كل صفحة فيه مليئة بصور الفضائل التي لا تموت، ففي مراسم افتتاح مسجد السليمانية سجل القانوني نبله من جديد، وقال معترفاً بالفضل لأهله:

«ليفتتح هذا المعبدَ الجليلَ سنان، لأنّ الجهد الأكبر كان جهده».

فقال سنان للسلطان:

«سيدي السلطان، لقد فقد الخطاط قره حصاي بصره أثناء تزيين المسجد بخطه، فلنمنحه هذا الشرف».

فجعلوا الخطاط قره حصاري يفتتح المسجد إكراماً له.

والنتيجة، إنّ مسجد السليمانية أصبح الوجه المادي لروح الإسلام. إذ إنّ منظره من بعيد يبدو كرجل رافع يديه إلى السماء يدعو ربه. فقد مزجوا روحانية العبادة في هذا البناء، وعكسوا المعنى على المادة بروعة لا يدرك كنهها. فداخله في ظليل لا ظلام فيه، يذهب بالمؤمن إلى عالم باطني يملأ القلب حماساً، فهو كالماء الذي قرئ فيه. وقد اكتسبت حجارته وطينه معانٍ. فهذا المعبد هو عكسٌ للإسلام على المادة بأسمى أسلوب. وهو كإنسان صامت

يحكي بصمته كثيراً من الأمور. ففي أرضيته آثار سجود عمرها خمسمئة عام، وفيه خيالات المجاهدين الذي راحوا وغدوا فلم يعودوا. فهو صرح سامق لدرجة أنه لا يمكن الإحاطة به، جُبِلت طينته من الروحانيات. فهو محل الدعاء بالانتصارات المجيدة طوال التاريخ، وما أجمل ما يجسد به يحيى كمال روحانية هذا المعبد في شعره إذ يقول:

على أبوابه تداعوا، بعضهم من الأرض وبعضهم من السماء
يدخلون الصرح الإلهي تباعاً مردفين
...
عندما يذكر الجميع الله الكبير بفم واحد
تغدو آلاف التكبيرات المائجة صوتاً واحداً

اللهم اجعلنا كأجدادنا نبني صروحاً كهذه، وأهلَ قلوب نبني كعبات قلوبنا، وامنح صروحنا العمرانية التي هي توقيع عن وجود الشعب المسلم- التركي في وطننا الجنة هذا، عمراً إلى يوم القيامة...

آمين!...



توازن العقل والقلب

العقل كوخ خرب يعج بالشبهات، والقلب قصر ملؤه الإيمان والإخلاص. يقول حضرة مولانا وفق حاليهما:

" يمكنك أن ترى البحر في القطرة والشمس في الذرة...

لكن الغافلين للأسف لا يستطيعون رؤية النور حتى أمام القنديل الذي هو أكثر ضياءً من ضوء القمر...".



توازن العقل والقلب

التوازن والتناسق...

لقد أقام الله جميع الكائنات ضمن قانون التوازن والتناسق. فما نراه من اصطفاف آلاف الكائنات المعقدة التي لا حصر لها على مسرح الكون طوال ملايين السنين، بتناسق دقيق رائع دون وجود أدنى عيب فيها، هو أثر للميزان الإلهي الحساس الدقيق. فالشجر والتراب، والورق والأغصان، والنوى والفاكهة، والأبيض والأسود، والليل والنهار، والأرض والسماء، كلها مليئة دائماً بتيارات وزخارف قدرة التناسق العظيم لدرجة تذهل العقول.

إنّ الحكمة والقاعدة الوحيدتين اللتين تجعلان ابن آدم عزيزاً كريماً تكمنان في هذه الحقائق. أي أنّ كل شيء يتجلى في الإنسان الذي هو جوهر الكون بالإرادة الإلهية، مثل عمل القلب والعقل الظاهري، ومثل آلية عمل الجسد الخالية من العيوب، ومثل وظيفة الروح في الجسد؛ يسير ضمن كمال مدهش. أمّا في الأمور المتروكة لإرادتنا بمقتضى الامتحان العظيم، فإنّ مهارة الإنسان تتغير قدر النصيب الذي يناله من التوازن والأوامر الإلهية، وقدر عمق تفكره.

إذا أسس الإنسان في هذا المضمار تناسُقَ قلبه وعقله وفق محور الإيمان والعرفان والعشق ارتقى قلبه وعقله إلى آفاق لا يمكن بلوغها من جهة العطاء والإحسان والكمال.



وهذا أمر شديد المشقة، ولا بد فيه من تربية علمية وروحية حقيقية.

لأنّ العقل والقلب لهما ميول مختلفة بموجب جبلّتهما. فأحدهما يتحرك بالشعور والآخر بالمنطق. وفي غالب الأحيان لا يتوافق المنطق مع الشعور ولا الشعور مع المنطق. لأنّ العقل أقرب للمادة والنفس في حين أن القلب أقرب للروح والمعنى. ومن هذا المنطلق:

ميول العقل والقلب...

العقل مقصده الأنانية، بينما القلب مقصده الإيثار.

العقل يجري خلف الغرور، بينما يحب القلب أن يكون متواضعاً.

العقل كوخ خرب يعج بالشبهات، بينما القلب قصر ملؤه الإيمان والإخلاص.

العقل عبد للمصلحة، بينما القلب سيد التضحية والروحانية.

يجتهد العقل للوصول إلى مصلحته دون أن يفرق بين الخطأ والصواب، بينما القلب يطلب التوفيق المستقيم بشكل يذوب فيه.

العقل لجوج، بينما القلب هادئ.

العقل قطرة، بينما القلب محيط.

العقل حارقٌ، بينما القلب مُنَمّ.

العقل مقود، بينما القلب قائد.

إذا غلب العقل على القلب وظهر عليه اختل توازن حياة الإنسان وانقلب عالي عالمه سافله. لأنه لا يليق ولا يصلح تماماً لأن يكون سلطاناً في قصر الإنسان لديه. لأنه إذا أخذ المقود مكان السائق فستكون العربة في كارثة. لذلك، فإنّ



القلب في الإنسان بمثابة المدير، والعقل بمثابة المساعد والداعم له. أي أنه يجب على العقل أن يتبع القلب على كل حال، حتى يستطيع كلاهما السير في الاتجاه الصحيح...

ويمكن مشاهدة الحقيقة التي تجعل ذلك ضرورياً على أجمل حال وأكملها حيوية؛ في التوازن والتناسق العظيمين الماثلين في جميع الكون:

أجمل مثال على التوازن: الكون...

إنّ التوازنَ والانتظام المحيّرين للعقول، المعجزين لها في هذا الكون الذي لا رأس له ولا عجز، حقيقتان جليّتان. وإنّ هذا التوازن والانتظام قائمان بلا خلل منذ خلق الكون ضمن اتزان أبدي للحسابات المحكمة والدقيقة والحساسة للغاية، ولا يزالان مستمرين. وكتجلٍّ من تجليات التوازن اللامحدود في هذا العالم معلوم أنه لو كان ثمة انحناء بدرجة ٢٣,٥ على محور الأرض لما كانت الفصول، ولكان المكان الذي فيه الصيف صيفاً أبدياً، والمكان الذي فيه الشتاء شتاءً أبدياً. ولو كانت المسافة بين عالمنا والشمس أكبر من المسافة الحالية لانقلب كل مكان كالقطبين. ولو كانت المسافة أكثر قرباً لاحترق كل شيء.

يُثبت هذا وما شابهه من الكيفيات حقيقة أنّ جميع الأجسام السماوية مبرمجة على صيغة تجعلها قابلة للحياة.

إنّ وجود آلية حساب محكمة ومعقدة ودقيقة كهذه لعلامة عُلْويةٌ على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعظمته من وجه يليق بمجده سبحانه. فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]



﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤]

لو نهض صاحب بستان فاكهة صباحاً فوجد بعض شجيراته قد انقلبت بشكل غير منتظم لاعتقد أنّ ذلك وقع نتيجة عاصفة أو كارثة طبيعية. لكنه لو وجد في انقلاب الأشجار حساباً وانتظاماً كأن يجد شجرة من كل ثلاث أو خمس شجرات قد انقلبت وحدها فلن يعتقد أنّ ذلك كان بفعل كارثة طبيعية. وسيدرك أنّ كائناً قادراً على الحساب قد سبب هذا الضرر. ويمكن أن يكون أحد أعدائه.

إذاً، يا لها من غفلة عجيبة أن يدّعي ذو إدراك وعقل أنه لا يمكن ربط حادثة انقلاب خمس أو عشرة أشجار بمسببات لا وعي لها، أنّ الكون ظهر من تلقاء نفسه نتيجة تصادف محض على الرغم من هذه الدقة الحسابية الهائلة الماثلة فيه.

وينادي الشاعر نجيب فاضل من وقع في مثل هذه الغفلة فيقول:

كيفما قلبت طرفي وجدت الاتجاهات تلفني
أيُعقل أن يكون مضمومًا ولا يكون ضامم؟
مَن هذا الرسام البارع الذي رسم هذا الوجه
ألا من يقف أمام المرآة ويسأل؟

ويقول حضرة مولانا رحمه الله في صدد إبراز التجليات العُلويّة في منظومة الكون هذا الذي تضم كل ذرة فيه أسراراً لا محدودة:

«يمكنك أن ترى البحر في القطرة والشمس في الذرة... لكن الغافلين للأسف لا يستطيعون رؤية النور حتى أمام الشمعة التي هي أكثر ضياءً من ضوء القمر...».



سلسلة الأسباب وشراك الشيطان...

إنّ كل قلبٍ سليم لم تفسُد فطرتُه لَيلاحظ بوعي سلسلة الأسباب المبثوثة في كل زوايا الكون، ويدرك ويؤمن أنها جميعاً تعود إلى مسبب الأسباب، أي إلى الله تعالى. لكن الشيطان، وحتى يُضل تفكير البشر، دبّر ألف مكيدة ومكيدة ونصب ألف شِراك وشراك لابن آدم عند كل زاوية. وحتى لا يسقط أحد في الشراك التي سقط فيها كثير من الغافلين يقول مولانا منبهاً القلوب ومذكراً بدسائس إبليس:

«لا يخدعنّك الشيطان في شأن الإيمان هذا، فهو لصٌّ يتحيّن الليالي المظلمة، وعندما يجد الفرصة يأتي إلى بابك، ويطرقه فتخرج إليه وفي يدك القنديل تريد أن توقده لترى مَن على الباب، لكنك وفي كل قدحة على الزناد يمسك اللص الزناد ويخمده، فتخرج أنت عن الحقيقة عندما لا تراه بسبب الظلمة، وتقول: "لقد برد الزناد". وهكذا يبقى اللص الذي يطفئ الزناد مجهولاً لك خفياً عنك، وأنت تغفل عنه.

بهذا يدخل الشيطان في ظلمة الغفلة على قنديل إيمانك، فيعزلك عن المؤثر الحقيقي، ويسرق جميع الفضائل من أكنان قلبك، ويحيلك في النهاية مفلس آخرة. وإذا بقيت على هذا فإن عينك وقلبك لا يبصران الأثر ولا المؤثّر، ولا يشعران بالصانع الإلهي، ولا بعجائب الصنعة التي في المخلوق...».

الخالق لا يلعب النرد...

ما أبلغ عبارة أينشتاين عندما قال:

«خالق الكون لا يلعب النرد. وليس ثمة شيء خلقه عشوائياً وبلا حساب. ومن هذا المنطلق، فلا أعتد بعالِمٍ لا يملك إيماناً عميقاً. لأنّ الدين بلا علم أعمى، والعلم بلا دين أعرج».



إنّ الإنسان ذا العقل السليم يشاهد وجود الله وعظمته أينما اتجه في هذا الكون. وإنّ التجليات، مثل إرسال الرسل والوصول بالناس نحو الكمال بلغتهم وعلمهم وأخلاقهم، هي دائماً آثار الفضل الإلهي. ومن جانب آخر، فإنّ نتيجة جميع العلوم التي خدمت الإنسان وقدمت له آلاف الفوائد هو إظهار وجود الله وعظمته، وتعريف البشر بعجزهم ومساعدتهم على إدراك مقام عبوديتهم.

عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى الكون بعينين مبصرتين مدركتين يدرك على الفور أنّ عدم الإيمان أمام القدرة والسلطان الظاهرين أمر مضحك وعجيب. وما أجمل قول الشاعر إذ قال:

تُستخرج كثير من المعاني من النظام اللامحدود
وليس ينقص التجلي من مرآة آدم.
يا لها من حقيقة كبرى أن تكون السماوات والأرض بلا عمد
وليس في الكون الفسيح من ذرة بلا ميزان.
فوقك فضاء بلا حد، وتحتك تراب أسود
أيها العبد، إن ما يليق بك، هو السجود.

لا بد من النظر بعين القلب...

في هذا الكون الرحيب بلا شك علامات لا تنتهي على وجود الله وعظمته. ونور إيماني عظيم لابن آدم. لكن وحتى يستطيع رؤية الحقائق والأسرار في الكون فعليه أن يرمق العالم أجمع بعين القلب ونور البصيرة. وكما قال الشيخ سعدي:

«إنّ كل ورقة من أوراق الأشجار الخضر هي دفتر من معرفة الخالق الجليل في نظر أرباب العقول "لكنها لا تعني شيئاً للغافلين"».



ولذلك يقول حضرة مولانا عن المرحلة التي كان فيها مدرساً في مدارسه السلجوقية عالماً بكثير من العلوم الظاهرية "كنت نيئًا"، ويستعمل عبارات "نضجت واحترقت" عن المرحلة التي بدأ فيها بقراءة صفحات الكون في عالم القلب، ومشاهدة الخوارق الإلهية. لأنه قرأ أسرار العشق في كتاب الكون غير الموجودة في السطور وقال:

«ألقيت الفراشة في النار في سبيل العشق، وكانت تخفق بأجنحتها داخل اللهب وتحترق، وكانت تقول بلسان حالها: " أنت أيضاً كُن هكذا».

«قنديل وضِع زيته وأُشعل فتيله كان بعنقه المكسور يحترق ويقول لي في الوقت نفسه بهدوء ونعومة: "أنت أيضاً كن هكذا"».

«كانت الشمعة تحترق وتبكي في الوقت ذاته. وقد سلمت نفسها للنار والصبر. لكنها وبينما تذرف دموعها كانت تضيء ما حولها، وتقول لي: كن مثلي! تجرد من نفسك واحترق هكذا وذب هكذا. وكانت تلك الشمعة تقول لي أيضاً:ماذا ينفعك لو نثرت الذهب والفضة حتى تربح في هذه الدنيا؟ فإذا رمت أن تربح ربحاً معنوياً فاحترق مثلي وذب مثلي».

«ملأ البحر رداءه بالجواهر وانزوى بعيداً، وأراد أن يخفي جواهره، وقال لي: تجنب المظاهر، خبّئ جوهرك داخلك وكن مثلي».

«نقَّت الزهرة في الحديقة خدَّها من الأوساخ، ومزقت قميصها، وتبسمت. صبرت على آلام الأشواك وعلى الأكدار. كأنها كانت تقول: يا ابن آدم كن مثلي، لماذا أغتمُّ لوجودي مع الشوك؟ ولماذا أترك نفسي للهموم؟ فأنا التي حصلتُ على التبسّم لتحمّلي صحبة الشوك ذي الطبع السيء. وبواسطته تمكنت من تقديم الجمال والروائح العطرة للعالم. ومعاشرتي الأشواك بالمعروف أكسبني الكثير الكثير...».



«لقد تضرع سيدنا آدم وتوسل لربه بالتوبة أربعين عاماً. وبكى وناح حتى يُغفَر ذنبه. وكان يقول لأبنائه: "وأنتم أيضاً كونوا مثلي"».

«اصمت واصبر وانظر إلى الصخرة في ذلك الجبل واعتبر منها، هي تبقى صامتة ولا تقول أي شيء، هي فقط صامتة وتبكي بصمت. وكأنها تريد أن تقول: " يا ابن آدم اصمت وابكِ».

«إذاً يا أيها العاقل ذو البصيرة، اقرأ درس العشق في الكون جيداً، واحترق أيضاً وذب وفجّر ما بصدرك ونُح على غفلتك وابكِ، أو فادفن نفسك في الصمت كالصخور التي في الجبال، واذرف دموعك على صدرك...».

كانت هذه بضعة سطور قرأها حضرة مولانا من كتاب الكون!

ومن هذه الناحية، عرّف العارفون هذا العالَم الذي هو معرض الحِكَمِ والعِبَرِ بأنه النظر في البدائع للعاقلين، وبأنه طعام وشهوة للحمقى.

إنّ الحياة الدنيا التي يعيشها المرء بأهوائه وشهواته تكون مليئة بالدسائس والحيل التي تودي بصاحبها نحو الهلاك.

الزخرفة الأخيرة في المرآة...

يحكي لنا حضرة مولانا رحمه الله من خلال الأمثلة الآتية شباب الإنسان ومواسم عنفوانه ونشاطه وما يعقب ذلك من لهو المفاجآت وكثير المغامرات، فيقول:

«أنت يا من عضَّ شفته أمام الربيع إعجاباً بجماله، عليك أن تنظر أيضاً إلى اصفرار الخريف وبرده».

«عندما ترى شروق الشمس الجميلة وقت الشفق تذكر وقت الغروب تذكر غروبها الذي يعني الموت».



«أيها السالك، انظر إلى آخر زخرف في المرآة وتفكر بقبح الجميل إذا شاخ، وبحال البناء بعد خرابه، ولا يخدعنك الكذب الذي في المرآة».

يبلغ ابن آدم تناسق قلبه وعقله بمقدار إدراكه لهذه الحقائق. ونتيجة لذلك يغلب نفسه ويوفق في تزكيتها. وإلا فسيسحق بين فكّي الغفلات اللامحدودة التي سيقع فيها بين مشاعر النفس الوحشية والخطيرة.

خميرة الأدب...

إنّ أهمّ أمر ينبغي على العبد أن ينتبه له في سبيل الله هو تناسق العقل والقلب. وإنّ أبرز تجلٍّ ونتيجة له هو بلا شك التدثّر بالأدب الإلهي. ويلخص حضرة مولانا هذه الحقيقة بهذا الشكل:

«سأل عقلي قلبي، ما هو الإيمان؟، فانحنى قلبي وهمس في أذن عقلي، أنّ الإيمان هو الأدب».

الحيلة في حماية العقل والقلب...

إذا لم يكن ثمة تناسق بين العقل والقلب يُنال به بركة الإيمان المعجون بخميرة الأدب فسيحترق إدراك ابن آدم في هذا العالم الفاني، وكذلك عقله. وينفجر قلبه، ويتصدع أمام تجليات الامتحانات اللامحدودة في عالم الدنيا من ابتلاءات ومصائب وآلام ثم الموت في آخر المطاف. وكما قال ضياء باشا:

لا يحتاج هذا العقل الصغير إدراك هذه المعاني
فهذا الميزان لا يحمل هذا الوزن...

فيعيش حالة أشبه بهذا الشعر. لكنه إذا أمكن تحقيق تناسق القلب والعقل ضمن دائرة الأدب الإلهي حينها تخمد الحرائق التي في الإدراك، وتنتهي



الانفجارات التي في القلب، ويعيش الإنسان حال الحب الإلهي فقط ضمن مناخ السكون والسكينة والطمأنينة الأبدية، ويسبّح الله تعالى وينزهه مرتدياً ثياب العجز فيقول:

سبحان من تحيرت في صنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجِز الفحول

اللهم! أجرنا من أن نصير لغزاً محيرًا، أو عقلاً محروماً من القلب. ومن أن نصير سجناً ضيّقاً، أو قلباً محروماً من العقل. وبلّغنا " معرفة الله " وقلوبنا وعقولنا متناسقة. واجعلنا من عبادك السعداء النائلين للطمأنينة والسكون الأبديين في دار عظمتك.

آمين!...





حاجة العقل والقلب للعلم والتربية

العلم هو التعمق في الحكمة وحل ما أشكل. وتلقي رسائل الله تعالى الموجود في كل شيء. أما التربية فهي مهنة الأنبياء، وحتى تكون مربياً فيجب أن تكون عاشقا، وأن يكون إحساسك وشعورك عميقاً.



حاجة العقل والقلب للعلم والتربية

رب زدني علماً!...

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿... **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤]

لأنّ هذه الزيادة هي زيادة في قيمة الإنسان وشرفه. وهذه القيمة والشرف هما قيمة تجعل الإنسان مرموقاً في كلا الدارين. لأنّ العلم مرآة إلهية توفر للإنسان معرفة نفسه ومحيطه وربه. وهو فوز أبدي كونه وسيلة لرفع درجات الإنسان بعد الموت.

يقول رسول الله ﷺ:

«**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» (مسلم، الوصية، ١٤/ ١٦٣١)

العلم النافع...

ركب عالم نحوٍ سفينة. فجلس أثناء الرحلة يحادث الربان معجباً بنفسه. وكان يسأل الربانَ بين الحين والآخر أسئلة مختلفة، فكان يجيبه الربان بـ "لا أعلم"، فسخر منه، وقال له مفتخراً:

«يا للأسف، لقد أضعت بجهالتك نصف عمرك هباءً».



رغم انكسار قلب الربان ذي القلب الطيب جراء هذا التصرف الساقط الوضيع، إلا أنه أبدى نضجاً ووقارًا، فصمت ولم يجب النحويَّ. فما لبث أن هبت عاصفة ودفعت بالسفينة نحو دوامة مريعة.

وفي ذلك الاضطراب الذي غطى فيه الجميعَ الذعر التفت الربان إلى النحويّ وسأله: «أيها الأستاذ، أتعرف السباحة؟».فقال له بصوت مرتعش وقد شحب وجهه: «لا، لا أعرف». فقال له الربان رداً على ما سبق منه بأسف:

«قلتَ بأنّ نصف عمري قد ضاع لأني لا أعرف النحو، أمّا أنت فقد ضاع عمرك كله، فلا يمكن لسفينتنا أن تنجو من هذه الدوامة. أيها النحوي، ألم تكن تعلم أنّ علم السباحة هو أنفع وألزم من علم النحو في هذا البحر؟».

إن المقصود من علم النحو في هذه القصة هو العلوم الدنيوية والظاهرية فقط، أما العلم النافع الحقيقي هو العلم الذي يلبي الحاجة. وإنّ أعظم حاجة للبشر هي تأمين النعيم الأبدي للروح مع الجسد، وهذا مرتبط بنيل رضا الله. ورضا الله ﷻ إنما يُنال بالإيمان الكامل مقروناً بالأعمال الصالحة.

ومما يفهم من القصة: عندما تتخبط سفينة هذا الجسد الفاني في دوّامة الموت، أي عندما يقترب الأجل الذي هو لحظة الوداع الكبير لهذه الدنيا، لن تنفع العلوم الجافة التي لا تلبي الاحتياج الحقيقي لروح الإنسان، وتخاطب النفس بشكل محض لأنها لا تعاش ولا تتحول إلى عرفان.

إنّ المحروم من التحلي بالعلم النافع، إن كان مثلاً قد درس القانون، فربما يتحول إلى جلاد حيث ينبغي أن ينشر الحق والعدل، وإن كان قد درس الطب، فقد يتحول إلى قصّاب بشر حيث ينبغي أن يحارب الداء ويجلب الشفاء. ويسقي الإداري المحروم من الرحمة والحب رغم كفاءته العلمية السمَّ لمن هم تحت إمرته.



أناس كهؤلاء ربما يوقعون بسهولة خسائر أشد وأكبر من الخسائر التي يمكن أن يوقعها جاهل بجهله، مستخدمين العلم أداة لمصالحهم الشخصية.

فعلاً، إنّ العلم الذي يجر الإنسان نحو الغرور والكبر، ويغرقه في النهاية في دوامة الهلاك، ما هو في الحقيقة إلا وبال على صاحبه، ولو بدى في الظاهر أنه ليس إلا أشياء جميلة ونافعة. ولذلك طلب رسول الله ﷺ من الله تعالى أن يعيذه من العلم الذي لا ينفع، فقال:

«... **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**،...» (مسلم، ٢٧٢٢)

وعليه، فالعلم هو التعمقُ في الحكمة، وحلُّ ما أشكل منها، وتلقي رسائل الله تعالى المركوزة في كل شيء. فعلم الطب مثلاً يُعنى بالقواعد العظيمة التي أودعها الله سبحانه في جسم الإنسان، ولكنه يجب ألا يقتصر على هذا الاهتمام ويقف عنده، بل يجب أن يتعداه خطوة أخرى، وعليه أن يرى الصنعة الإلهية المخبوءة في القواعد التي في جسم الإنسان.

لأنّ العلم ليس مجرد الملاحظة، إنما كشف الأسرار.

غاية العلم...

يعبر حضرة يونس أمره عن غاية العلم الحقيقية بقوله:

العلم، أن تعلم علماً
العلم، أن تعلم نفسك
إن لم تعرف أنت نفسك
فما الفائدة مما تقرأ؟

ما المغزى من القراءة؟
أن يعرف المرء ربه



لأنك إن قرأت ولم تعرف
فياله من جهد ميت...
لا تقل قرأت وعلمت
لا تقل أكثرت من الطاعات
فإنك إن لم تعرف الله
فيعني أنه كلام ميت.

ومن قول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]

نجد أنّ إدراك عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته بحق هو قبل كل شيء شأن العلم.

باختصار، إنّ غاية العلم الأساسية أولاً معرفة الله، ثم تلقُّفُ العلوم اللازمة من أجل سعادة الدنيا والآخرة والفلاح في كلا الدارين. وإلا فالعلم يتحول إلى عثرة على الصراط تلقي بنا في جهنم.

يقول رسول الله ﷺ:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد،... ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار،...» (مسلم، الإمارة، ١٥٢/ ١٩٠٥)



مسألة العرفان في العلم...

إذا وجد العلم الحقيقي مرصّعاً بالعرفان ومعرفة الله، حقيقة لا كلاماً، مكاناً له في القلب، جعل العبدَ سائحاً في الخلود. فيخرج القلب من قسوة الحجاج الظالم ويتدثر برداء شفقة يونس.

من هذه الجهة، يجب أن يُعرِّف المرء بنفسه أولاً ثم يفتح له باباً إلى "معرفة الله" مُعلِماً إياه الغاية من وجوده. أي يجب أن يكون العلم في قوام العرفان.

يُطلَق "العرفان" على تشخّص العلم وتجذره في أعماق الإدراك السليم. أمّا العارف، فهو الذي اطلع على الأسرار والحِكَمِ والتجليات الإلهية الكامنة في العلوم التي بحوزته، أي هو صاحب عرفان. ويقال عن أصحاب العلم الذين لم يبلغوا هذا النضج:

"هو عالم، لكنه ليس عارفاً".

وعلوم هؤلاء الأشخاص كالتي في الكتب ثابتة ومحفوظة. وهي مكنوزة كالبذور في المخازن.

تلك البذرة، إنما تربو وتنمو وتزهر وتتكاثر إذا ما ضمها التراب. وإلا فعلوم كهذه لا تنجح في إعمال الفكر، ولا في تعميق المشاعر نزولاً من العقل إلى القلب.

ولذلك يطلق على هذه العلوم اسم العلوم الكتابية.

وقد قال كبار علماء الإسلام عن العلم:

«العلم هو الإدراك، فلا يتحقق العلم إذا لم يتحقق الإدراك. ومنتهى هذا الإدراك هو "معرفة الله". ومن هذه الناحية، فمعرفة الله هي جوهر جميع العلوم. وتكتسب العلوم قيمة بمقدار قربها من هذا العلم...».



يقول حضرة مولانا:

«الحاذق ذو العلم جيد لكن اعتبر من إبليس ولا تمنحه قيمة. لأنّ إبليس أيضاً كان لديه علم. لكنه رأى خلق آدم من تراب ورأى وجهه الخارجي لكنه لم يرَ حقيقته».

«كم من علم وعقل وفهم يؤدي مهمة اللص على طريق سالك الحق ليقطع طريقه. لذلك، فإنّ أكثر أهل الجنة هم أهل القلوب الأنقياء الذين استطاعوا أن يقوا أنفسهم شر الفلاسفة....أيها الغافل أنقذ نفسك من الغرور والعجب وأزح عن نفسك ما لا يلزم حتى تهطل عليك الرحمات الإلهية كل لحظة».

الإعداد للعلم والعرفان...

إنّ العلم والعرفان نور وزينة لا يحصلان حتى يُخلّى منزلهما، أي قلبك أولاً من كل ما هو ضار وغير لازم.

فالأنبياء كانوا يقرؤون الآيات أولاً ثم كانوا يُخلّون قلوب من آمن بها، وأقبل بقلبه عليها، من الأدران المعنوية بعد تنقية نفوسهم من الإفراط والسوء. بعدها كانوا يعلمون الكتاب والحكمة للذين زكوا وصفوا.

لا يألف مجرى الأسرار والقدرة في الكون إلا أرباب القلوب هذه، وربما يصيرون منبعاً للحكمة.

العلوم مختلفة...

مُنِح موسى عليه السلام كما أخبرنا القرآن علماً ليس عند سيدنا الخضر، ومُنِحَ الخضر عليه السلام علماً ليس عند موسى عليه السلام.

كذلك، فكما لا يمكن للإمام الجيلاني أن يكون حضرة مولانا، فكذلك لا يمكن لحضرة مولانا أن يكون الإمام الجيلاني. وكما لا يمكن للأستاذ شاه



نقشبند أن يكون السيد أحمد الرفاعي، كذلك لا يمكن للسيد أحمد الرفاعي أن يكون الأستاذ شاه نقشبند. فما منح لكلا الطرفين مختلف، وما طلب من كل منهما من خدمات مختلف أيضاً.

لكن الغاية الأساسية لدى جميعهم قطعاً هي العبودية والمعرفة. لأنّ الطرق المودية إلى الرب كثيرة بعدد أنفاس الخلائق.

من جانب آخر، فإنّ الله تعالى قد جعل كل واحد من أوليائه الذين لا حصر لهم مرآة تعكس جهة من جهات نوره العظيم الدائم إلى يوم القيامة. وقد أظهر قدرته بتجلياته المختلفة.

وعليه، فكل وليٍّ من أولياء الله له في ذاته وظيفة لا يمكنه التخلي عنها. فرغم حاجتنا لعلماء يفسرون لنا العلوم الظاهرية ويشرحونها ويوضحونها فنحن محتاجون لأولياء لله يعرضون على القلوب العلوم المعنوية بنفس الشكل. فبمقدار حاجتنا للإمام أبي حنيفة نحتاج لحضرة بهاء الدين نقشبند.

العلم الوهبي...

يتبوأ العلم الوهبي الذي وهبه الله تعالى عباده الاستثنائيين مكانةً مختلفةً بين العلوم. وهذا العلم لا يحصل إلا بتقوى الله تعالى والتواضع لخلقه والزهد في الدنيا ومجاهدة النفس مجاهدة لا هوادة فيها. فهذا هو الحديث الشريف يشير إلى هذه الحقيقة حيث يقول رسول الله ﷺ:

«**من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم**» (أبو نعيم، الحلية، ١٠/ ١٥)

هذا يعني أنه لا يمكن نيل حظ من أسرار القرآن ما لم تعالج الأدواء القلبية المانعة من الفهم، كالكبر والعجب والحسد وحب الدنيا بالتربية التصوفية والتخلية. كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك بوضوح حيث يقول الله تعالى:

﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...**﴾ [الأعراف: ١٤٦]



هذا يعني أنه لا حظ في أسرار القرآن والكون والإنسان ما لم يتحقق الرقي في عالم القلب من خلال التربية الروحية والتخلية.

العلم من أجل التربية (الحال الحسنة والاستقامة)...

إنّ العلم الذي يحتاجه ابن آدم منذ يوم ولادته هو في الحقيقة عبارة عن تربية إنسان لحياة كاملة. وكما قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...﴾ [الزُّمَرِ: ٩]

والمقصود بالذين يعلمون هم:

أ. الذين مع الله ﷻ في قيامهم وسجودهم.

ب. الذين يحذرون الآخرة.

ت. الذين يفزعون إلى الله ﷻ.

وإلا فلا يمكن عد الإنسان في زمرة العالمين بمعناها الحقيقي.

لأنه إن لم يتحلَّ بهذه الخصائص الثلاث فهذا يعني أنّ قلبه لا يرى ما ترى عيناه.

من هذا المنطلق، يهدف القرآن الكريم من خلال العلم إذ يقول:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ [الأحزاب: ٧٢]

إلى إنقاذ الإنسان المتخبط في الفسق من صفتي "الظلم"

و " الجهل "، والوصول به إلى هوية الإنسان الكامل.

وعكس الظلم العدل. أي صلاح عمل العبد. وعكس الجهل العلم. وحتى يكون المرء عالماً حقيقياً عليه أن يمتلك من العلم الباطني بمقدار ما يمتلك من



العلم الظاهري. أي أنه لا يمكن لإنسان بدأ حياته بصفة الجاهل أن يصبح وريثاً للأنبياء وأسمى من الملائكة إلا بتربيته بصفة العلم، واكتسابه عمقاً في التفكير والشعور من خلال صفتي العالم والكامل.

كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«ورثة الأنبياء هم أصحاب العلم الظاهر والباطن (القلبي)».

التربية من أجل الإنسان...

على ابن آدم الذي ربى كثيراً من الحيوانات المفترسة، واستفاد منها وأنتج تحفاً فنية لا مثيل لها بتربية كثير من جذوع الشجر ألا ينسى أنّ التربية الأساسية هي له، أي ضرورية من أجل الإنسان.

لأنّ؛

أصعب مهنة هي تربية الإنسان.

فالنفس عديمة التربية توجه صاحبها دائماً نحو السوء. والله تعالى قد وضع في فطرة الإنسان مَيْلي الفجور والتقوى، حيث تظهر علامات هذين الميلين لدى الإنسان منذ طفولته.

تتحقق سعادة الإنسان في كبح الميل نحو الذنوب وتعزيز التقوى. وسبيل ذلك هو التربية. وإنّ تربية أشد الحيوانات افتراساً لأيسر من تربية إنسان غلبته نفسه.

إنّ التربية هي مهنة النبي. ولا بد للمربي حتى يكون مربياً من التحلي بقوة الإحساس والشعور.

لأنه ينبغي عليه عند تواصله مع التلاميذ أن يفهم مشاعرهم ويقيّمها ويعاملهم على أساسها.



وهذه كيفية أشبه باضطرار الطبيب إلى تشخيص المرض قبل علاجه، أي إلى إدراك سبب الآلام والأوجاع. ويجب ألا ننسى أنه يسهل كسب إنسان خال من المشاكل.

كما أنّ قدرات الناس تختلف من شخص إلى آخر، فكذلك نقاط ضعفهم مختلفة أيضاً. لهذا السبب ينبغي على المربي أن يقترب من الإنسان بعناية، وكأنه طبيب نفسي.

فما ينفع أحدهم من كلام أو فعل ما قد يضر بآخر. لذلك يجب علينا أن نتعرف جيداً على شخصيات من يقع على عاتقنا تربيتهم.

ويجب من جانب آخر ضبط وقت وجرعة التلقين جيداً.

وكما نراعي أثناء لَيِّنَا جسماً قاسياً عدم كسره يجب علينا ألا نعجل في تخليص من قويت قدراته النفسية من علّته. ولا بد أيضاً من التنبه لعدم زيادة الجرعة لدرجة يظهر فيها المخاطَب ردة فعل عكسية.

إذا أفرغتم وعاءً مليئاً في وعاء آخر مساوٍ له في الحجم بشكل مفاجئ فستضيعون نصفه بإراقته خارج الوعاء. لكنكم إن اتبعتم قانون التدريج، أي إذا تصرفتم بهدوء بدون عجلة لأفرغتم كل ما في وعائكم في الوعاء الآخر دون أن تهدروا منه شيئاً.

لا يمكن إنكار أهمية هذا القانون الفيزيائي في تربية الإنسان. وهذا إنما يعني أنّ توجيه إنسان وتربيته مرتبطان قبل كل شيء بالصبر والتعرف بصورة شاملة على المخاطَب من حيث قدراته.

بالفعل يجب على المربي أن يعرف شخصيات تلاميذه وقدراتهم كما يعرف حبّات المسبحة التي في يده.



وعليه أن يسعى في تطوير مهارات كل منهم وفق ما يمتلك من مهارات.

فمن امتلك قدرة على الشعر ينبغي توجيهه نحو أعماق روح الإنسان. ومن امتلك قدرة على الإدارة ينبغي تلقينه أموراً ككيفية الإدارة والتوجيه ووجوب توسيد الأمر أهله، وضرورة التعامل برحمة وعدل. والمهارات المهنية الأخرى هي كذلك. لكن يختلف أسلوب التربية اتجاه هذه المهارات الضرورية من أجل المجتمع وفقاً لكل مهارة.

يجب إعداد خدمات التربية دون إغفال التوازن الحساس بين الجسد والروح، وبين العقل والقلب.

فإذا خوطب من الإنسان عقله فقط فسيغلب عليه جانب المصلحة والمنفعة والأهواء الدنيوية، ويكون قد أُهمل تكامله الروحي. ويصير الإنسان الذي رُبِّيَ هكذا في النهاية عبداً للثروة والشهرة والهوى. لكنه إذا أمكن تربية عقله وقلبه سواءً حينها فقط يمكن توجيه ميوله المودعة في فطرته نحو سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

يجب أن نعلم أنّ العلم الذي لا يبلغ القلب لا يتحول إلى عرفان. والعلم الخالي من العرفان يمكن أن يودي بصاحبه إلى الضلال. فالإنسان غير المزود بالمشاعر المعنوية والفضائل متروك لقوة نفسه الغليظة التي تأمره دائماً بالسوء.

يجب ألا نعتقد أنّ الإسراف يقتصر على تبديد ما بأيدينا من مال، بل علينا أن نطبق التنبيه القرآني الوارد في قوله تعالى:

﴿... **وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤١] في جميع مجالات حياتنا.

إذاً، لا يمكن لشيخ مدرك لأهمية وظيفته أن يسرف في وقت تلامذته وطاقاتهم ولا ينبغي له.



وعلينا أن نعلم أنّ قضاء العمر هباءً هو إسراف، وعدم الحفاظ على ما بيدنا من أمانات عظيمة هو إسراف أيضاً. بل إنّ أكبر إسراف هو تضييع الإنسان وعدم تربيه على أنه أشرف المخلوقات.

لذلك فعلى الإنسان أن يكون حساساً للغاية في التربية. فيجب أن يُربى المرء ليصير عبداً كما شاء له الخالق العظيم في خلقه أن يكون، أي ليصير قلباً كاملاً يقرأ كتاب هذا الكون، ويُبلّغ إيمانه مرتبة الإحسان في جو تفكر عميق ودقيق من خلال النظر في النظام الإلهي في الكون والتناسق وفيوض القدرة التي فيه.

من وجهة نظر أخرى، يجب علينا أن ننشئ شخصيات تحمل القوام الذي وضعه الإسلام في عصر السعادة (العصر الذهبي)، لا أن ننشئ كتلاً عشوائية ضحلة. وإلا فلا يمكن بشكل من الأشكال ريّ التعطش الحاصل للإنسان الحقيقي في عالم البشرية التي تبلغ المليارات...

فرأس مالنا في آخر الزمان هو أن ننشئ ولو إنساناً واحداً تنشئة سليمة متكاملة.

فليكن من أمرنا ولو أن ننقذ بضع أبناء من أبناء هذا الجيل الذي ولد حديثاً من الحرائق الكثيرة التي سقطوا فيها.

من يدري؟، فربما يخرج من بين من بلغتهم أيدينا فاتح الغد وياووز وسليمان وسنان آخر!... وربما يكون منهم من أمثال بيري رئيس، وابن كمال باشا، وأق شمس الدين، وعزيز محمد هدائي!...

تكون الأمم كبيرة وتحافظ على استمراريتها بمقدار ما تنشئ من أمثال هؤلاء الكبار. فهذه هي الإمارة العثمانية على الرغم من كونها أصغر إمارة في الأناضول لكنها كبرت بمقدار ما حوت من شخصيات كبيرة، واتسعت حتى صارت



شجرة دُلب غطت القارات الثلاثة... ثم لما انتهت إلى يد من ضاق أفقه، أي من خضع لمصلحته الشخصية المحضة وفكر بمنصبه لا بمستقبل أمته وانهزت شخصيته؛ صغرت على الرغم من كونها إمبراطورية ضخمة، وانكمشت حتى باتت في النهاية بين صفحات التاريخ المشؤوم...

حاصل الكلام أنه لا بد للمربي أو الشيخ أو المعلم الذي يربي الناس وينشئهم أن يجعل قلبه أولاً تكيّةً وملاذا). فمن لم يجعل عالم قلبه تكية فلا يختلف عن جدران أي مبنى بشيء. وهؤلاء ينهارون بعد مدة ويزولون.

لكن من فتحوا قلوبهم للناس واحتضنوهم، كحضرة مولانا وشاه نقشبند وعبد القادر جيلاني وحضرة يونس أمره، يعيشون حتى القيامة، وتستمر دروسهم إلى الأزل والأبد في مدارسهم بلا انقطاع.

اللهم ارزقنا العلم النافع على الدوام، وأجرنا من شر كل علم لا ينفع... واجعل يا ربنا علمنا عرفاناً، وهيئ لنا تربية أجيالنا بالعلم الحقيقي والعرفان في بوتقة ثقافتنا، وأن نهدي مستقبلنا شخصيات سامية...

آمين...!



حب الذات والمحاسبة

إن حب الذات داء يصعب الفرار من مخالبه لخفاء خصائصه، فمهما نضج الإنسان يبقى هذا الداء متخفياً في إحدى زوايا القلب، يتحين الفرصة للانقضاض كثعلب ماكر، وحب الذات من جهة أخرى كسرطان خفيٍّ لا يلاحظه الإنسان إلا بعد أن يطرحه فراشاً ويفتك به.



حب الذات والمحاسبة

هل أنا من المنافقين؟...

إنّ امتلاك الإنسان شخصية رصينة نافعة له في الدنيا والآخرة هي الغاية الرئيسية لتربية الإنسان. لأنّ الإنسان بهذا الشكل فقط يستطيع أن يُسَخِّر قدراته وجهوده فيما يرضي الله تعالى، دون أن ينحرف إلى أهوائه، وأن يجوب المعالي. وإلا، فإنه يفسد دنياه وآخرته بوقوعه أسيراً لما انطوت عليه نفسه من غرور وكبر وحب ذات.

لهذا السبب، كان الصحابة الكرام يجتهدون في تربيتهم في معرفة أنفسهم أكثر من معرفة الآخرين وتحديد الصواب والخطأ بشكل سليم. أي أنّ أعمارهم أروع وأكثر النماذج تأثيراً عن التربية المتمثلة في ضبط الذوات ومحاسبة الأنفس. فقد كانوا حساسين وحذرين في هذا الشأن لدرجة أنّ سيدنا عمر كان يسأل سيدنا حذيفة:

«قل لي بالله يا حذيفة هل أنا من المنافقين؟».

لهذا السؤال سببان، أولهما: إنّ سيدنا حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ في شأن المنافقين، ثانيهما: إنّ الإنسان عندما يقيّم نفسه يميل إلى تزكيتها. لأنّ الناس وحتى أكثرهم إجراماً عندما يحكمون على أنفسهم فلا يذكرون إلا ما هو بريء وإيجابي. ولهذا السبب بالتحديد لا يمكن للقاضي أن يحاكم نفسه. بل يحاكمه قاضٍ آخر.



هذا مالي، وهذا ظهري...

ثمة مرآتان تنفعان الإنسان في نظره لنفسه وتقييمها بشكل سليم، هما القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ.

وهنا يكمن سر النضوج القلبي لدى الصحابة الكرام، فقد ربّوا أنفسهم دائماً بالرجوع إلى ألف دستور ودستور عظيم من التربية النبوية.

وهذه هي كلمات رسول الله ﷺ، وموقفه قبيل وفاته، تشكل لنا بحد ذاتها مربياً كبيراً حيث قال:

«**من كنت أخذت منه مالاً** (خطأً أو سهواً) **فهذا مالي فليستقد منه، ومن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه**» (تاريخ الطبري، جـ٣، ص ١٨٩)

يريد رسول الله ﷺ بعباراته هذه أن يعلمنا بنفسه:

أنّ الإنسان يغفل أحياناً عمّن أخذ منه مالاً، ولا يلاحظ أحياناً ظهر من جلد. أي أنّ البشر ضعيف في هذه الحيثيات. لأنّ المال والقوة أمران يضطرب الإنسان في تحصيلهما، ويقتلع في سبيلهما كثيراً من شجر الصنوبر، ويكسر فداءً لهما كثيراً من الزجاج. لذلك يبلّغ رسول الله ﷺ الجميع بذاته رسالةً عظيمةً تخصُّ هذين الأمرين، من أسفل الطبقات إلى أعلاها سارية إلى يوم القيامة.

لأنّ الإنسان في الحقيقة لا يعلم أحياناً ظهر من جلد، وإن كنا سنوضح ذلك قليلاً، أي أنّ الإنسان لا يعلم أحياناً من جرح بلسانه، أو لا يرى في الزحام قدمَ من داس، بل لا ينتبه لذلك. لكن بلا شك، قد يدوس قدم أحد ما ولو بالخطأ.

لذلك، يريد رسول الله ﷺ منا أن ننتبه لأفعالنا، وأن نتسامح فيما بيننا. طبعاً، إنّ أول شرط في هذه النقطة أن نكون ضمن تربية الذات ومحاسبة أنفسنا. لأنّ:



حب الذات والتوحيد لا يجتمعان...

في الحقيقة، إذا حوى قلباً حبُّ الذات فستضمر فيه الخصائص المتعلقة بالتوحيد. أي أنّ حب الذات يُضعف التوحيد. فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾ [الفرقان: ٤٣]

إنّ أشد الأهواء وأخطرها بلا شك "حب الذات". لذلك نبدأ كلمة التوحيد بـ "لا إله" أي أننا نخرج أولاً من قلوبنا جميع الآلهة ونرفضها. لأنّ من أخرج من قلبه الآلهة والأهواء النفسية وقال: "إلا الله" فسينال رضا الله، بنيله تجليات صفات الجمال ويجد في قلبه طمأنينة.

هذه الصيغة هي أسمى مثل في التوحيد. لأنّ حب الذات لا يترك الإنسان بسهولة. والإنسان يسعى دائماً خلف نفسه بسبب حب الذات هذا، ويرى نفسه مُحِقًّاً دائماً، ولهذا لا يبلغ التوحيد كما ينبغي. لذلك فإنّ أهم وأخطر مسألة لدى التصوف هي تنقية الإنسان من حب الذات الذي فيه. فلا بد من خروج "أنا" من القلوب حتى يستقر فيها ذكر الله، وحتى يستطيع الإنسان أن يقول باستسلام:

"أنت يا ربي أنت". فإنكار الذات هنا لا بد منه.

إنّ الذين يغدون في حالة انعدام وانكسار وعجز يشعرون بعظمة الرب تبارك وتعالى وبتجليات قدرته، وتغشاهم مشاعر الشكر والعبودية لله تعالى على كل حال.

كما تعلمون، لما دخل خير الدين باشا بربروس الخليج في إسطنبول بأسطوله الزاهي بعد معركة بروزة، وقد جعل مقدمة الأسطول سفن الأسرى من العدو، كان القانوني ووزراؤه يشاهدون هذا المنظر الجليل من سرايبورنو. فقال أحد القادة بحماس:



«حضرة السلطان، كم مرة شاهد العالم هذا المنظر يا ترى؟ مهما افتخرتم فهو قليل».

كان جواب القانوني، ذلك الملك العظيم كما يلي:

«أيها القائد، أيجب علينا أن نفخر أم نحمد ونشكر ربنا العظيم الذي منحنا هذا النصر؟».

لا شك أنّ سلطنة القانوني الروحية هذه، التي هي أجل من سلطنته الدنيوية، هي نتيجة ما استقى من بركة وهمة عباد الله الخاصين، ونتيجة لعدم وقوعه في أسر بلاء حب الذات.

لكن إذا انجر الإنسان –عافانا الله– نحو حب الذات فلا يمكنه أن يعيش عبارة " لا إله " بما يتناسب مع معناها. فلا يمكنه التخلص من السوء الذي في داخله، ولا من الآلهة التي جثمت على قلبه، ولا من ميوله النفسية. فحب الذات يمنع من ذلك.

أي أنه ينبغي حتى تعمل ممسحة "لا" أن تزال عقبة حب الذات أولاً. ولذلك ينبغي على الجميع أن ينظر في نفسه فيقيّمها بشكل صحيح. يقول مولانا في كتابه المثنوي:

«انظر، كم من الحيوانات في هذه الغابة، يمكنك أن ترى الحالة الروحية لكل من هذه الحيوانات وقدراتها لدى الإنسان.

مثلاً؛

تجد في بعضهم قدرة الضفدع، فهو دائماً يحب المستنقعات. وتجد في بعضهم خاصية الثعلب فهو دائماً مكّار. وتجد في بعضهم خاصية الضبع فهو ممزق، فهو يستمتع بذلك ويتلذذ به. وتجد عند بعضهم شعور الدواجن».



إنّ الناس لعدم رؤيتهم هذه الخواص الداخلية من الخارج بسهولة يخطئون معظم الأحيان في تربية مسألة حب الذات. وبهذا تصعب التربية أكثر.

أمرٌ مُشكِل...

إنّ حب الذات، وبصفته الشيطانية، يخدع الناس بسهولة أكبر، لجلوسه على الصراط المستقيم. فلا يخطر على البال القضاء عليه أبداً، وما أجمل ما قال الشاعر باقي:

الباطل باطل في كل وقت يا ولي

لكن الرزية إذا ظهر في صورة حق.

إنّ أبرز جوانب حب الذات هو احتقار الآخرين. أي أنّ المعجب بذاته يسعى إلى تزكية نفسه بنشر عيوب غيره، فيتكبر ويعجب بنفسه مثل إبليس. يعتبر نفسه منزهاً عن جميع العيوب والأخطاء ويعيش مستشعراً إعفاءه من التنبيهات الإلهية المتعلقة بالاستقامة. ولا يعتقد بأنّ التحذيرات الإلهية تعنيه.

كداء السُكَّريّ الخفيّ...

إنّ حب الذات داء يصعب الفرار من مخالبه لخفاء خصائصه، فمهما نضج الإنسان يبقى هذا الداء متخفياً في إحدى زوايا القلب، ويتحين الفرصة كثعلب ماكر. وحب الذات من جهة أخرى كداء السكري الخفي أو كالسرطان الخفي. فلا يُشعِر الإنسان به قبل أن يجعله طريح الفراش. وعندما لا يشعر الإنسان به يعيش بلا احتياط فيُصطاد بسهولة.

وصفة دواء حُب الذات...

لا يُكتَشف هذا الداء إلا بعد تحاليل يجريها أهله، أي يجريها طبيب القلوب. ويسهل علاجه عند السفرة الروحية المباركة لطبيب القلوب. لذلك يجب على الإنسان أن يجدّ السير ليبلغ الكمال.



كيف يكون ذلك؟

يكون ذلك باغتنام أوقات السحر بشكل خاص، والتفكير بالموت والاستفادة من مجالس دروس القلوب. وسيتلقى القلب من جو الدروس والوعظ دائماً وصفة علاجية؛

سيستطيع أن يقول:

لقد وصِف لي هذا الدواء في ذلك الدرس، وفي مجلس الوعظ ذاك، وسيقول: لقد اكتشفت نقطة ضعفي هذه.

ولا بد للجميع أن يأخذوا وصفات علاجهم الضرورية لهم. من الأصغر وحتى الأكبر. فإن لم يأخذ الدواء فلا ينفعه درس ولا وعظ، بل ويُنسفُ بذلك منطق التربية الأساسي.

يحتاج التصوف في هذا الأمر عمقاً قلبياً. ويُطلب من العبد بحسن خلقه أن يتجاوز في عبوديته الهيكل والمظهر. ولا يرضى بأن تبقى الحقائق العظيمة والقلبية مجرد كلام بالاستماع إليها، كما يُستَمع لثرثرة المقاهي. ويأمل من كل قلب منصت للأسرار الإلهية والمعلومات العُلْويّة أن يمتلئ بالوجد ويقول:

ما هو نصيبي مما يُحكى لي؟

كيف ينبغي أن يكون تأثير وتجلي هذا الكلام القيّم في عالمي الداخلي؟ هل استطعت أن أُخرج من قلبي جميع الآلهة؟

هل استطعت التخلص من الحسد؟

هل استطعت التخلص من الغيبة؟ هل أنا صبور أم لا؟

هل استطعت أن أقترب خطوة أخرى من الله تعالى ومن النبي بعد استماعي؟

كم استقامت طباعي وأخلاقي؟



أم أنّ ما سمعت من عبارات مليئة بهذا القدر من الحقائق والمعرفة والحكمة والعبرة دخلت من إحدى أذنيَّ وخرجت من الأخرى؟

كم زاد ثقل وحجم مسؤوليتي بعد كل هذا الذي تعلمته وعلمته؟

إنّ السر اللازم من أجل الإجابة على هذه الأسئلة ليس إلا:

سر الإخلاص...

ما يريده الله تعالى منا هو إخلاص واسع. فذلك الخالق العظيم يريد من عبده الإخلاص دائماً ويريد منه الشكر. والإخلاص في الأصل هو ضمن الشكر... فإذا كان الإخلاص كان الشكر وكان الصبر وكان العزم. فإذا حصل ذلك يمنح الله الثواب الجزيل على الجهد البسيط.

إن أعظم عرفان هو بلوغ مثل هذه الحكمة. وهي تجاوز حب الذات، وتجعل أصغر الأعمال أجلَّها. إنها الحكمة حين تُعمِلُ القلب حيث يعجز العقل، فتألف بذلك الأسرار. وبتعبير آخر، تُمَكِّن الحكمة من استسلام الإنسان للقدرة العظيمة بجعله يدرك عجز عقله. لأنّ العقل لا يكفي لوحده أبداً في طريق وصال الله تعالى.

من هذا المنطلق، أرسل الله تعالى سيدَنا موسى الخضرَ عليهما السلام أولاً، وجعله يُدرك عجز عقله. وهذا يعني أنّ الإنسان عاجز ومحتاج إلى ربه دائماً. وإنما يصبح من الممكن أن يألف الحقائق والحِكَمِ والأسرار كلما اقترب من الرب.

أسُمٌّ أم عسلٌ؟...

إنّ الحقائق والحِكَمَ والخيرات ومجالس الدروس تشبه الماء المحلَّى بالأسرار. فهو ماء يشرب منه النحل فيصنع العسل، وتشرب منه الأفاعي فتنفث السمَّ. من هذه الجهة، فإنّ أهم أمر في صحبة الصالحين وإلف الحقائق هو أن تكون



كنحلة العسل. من أجل ذلك نحن أمام أن نعرف أنفسنا بشكل صحيح وأن نحاسبها على كل حال قبل أن نموت.

هل نستطيع يا ترى أن نذكر الله تعالى بعبادة وقلب لا يقفان عند اللسان فقط؟ إلى أين تنظر قلوبنا وإلى أين تنظر عيوننا؟ هل يذكِّر حالُنا بالله أم بالعُجب؟ هل يؤثّر بنا ما نشاهد ونرى، ويذهب بنا نحو التفكر والاعتبار والحكمة، أم نحو الفسق والنفاق والحسد؟ إلام تصغي آذاننا؟ ماذا تنطق ألسنتنا؟ أمشغولة بالذكر والشكر والصلوات والكلمة الطيبة أم بالغيبة؟ أتصدر من أفواهنا عبارات تُطمئن الأرواحَ وتُريح القلوبَ المتعبة، أم تعمل عمل أفعىً تسمم الناس؟.

وما أجمل ما نبّه به حضرة حاج بيرم ولي عن حب الذات والعجب إذ قال:

«العُجب كحجر مربوط بالظهر فلا يمكنك أن تطير به ولا أن تسبح».

ألف امتحان وامتحان...

إنّ الله تعالى الذي يربينا في شأن حب الذات والعُجب طوال حياتنا من خلال ألف امتحان وامتحان، يعبر عن هذه الحقيقة فيقول سبحانه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]

إنّ الانجرار خلف الذات، والفشل في هذه الامتحانات لكارثة عظيمة. وبعض الناس يعيشون مداً وجزراً في هذا الامتحان فتصل بهم الحال إلى أن ينسبوا عيوبهم وعمى قلوبهم إلى الله، عافانا الله من ذلك. والله تعالى يذكرنا بهذه الحقيقة بقوله:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦]

غير أنّ الله تعالى يريد لعباده أن يكونوا في رضا تام، شكورين في حال سعتهم بإنفاقهم، وصبورين في حال فقرهم بحمدهم. هذا يعني أنه يجب علينا دائماً أن نقرأ ما ينزل بنا من امتحانات قراءة سليمة أولاً، ثم نحاسب أنفسنا وفقاً لهذه القراءة.

أكبر توفيق...

إنّ أكبر توفيق في الحياة ألا يهزمنا عُجبُنا في أي مرحلة من مراحل حياتنا، فنعيش وكأننا مخلّدون في هذه الدنيا. فعلينا أن ندثر دائما بالفناء. وما أجمل ما قال أحد أولياء الله:

«لا تطلب من الدنيا خلوداً، إنها لا تملكه حتى تمنحك إياه...».

وفي النهاية، ستنفجر هذه الدنيا وتزول.

من هذا المنطلق، ينبهنا حضرة فريد الدين عطار فيقول:

«من حُرِمَ القناعة كيف يغنيه مال الدنيا؟».

هذا يعني أنّ أعظم غنىً، وأعظم عطاء أن ترضى عن الله بقناعة واستسلام خالٍ من حب الذات. والوصول إليه بقلب سليم كهذا. حيث يقول المولى الجليل في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

علينا أن نتفكر بهذا الأمر الإلهي بعمق. فلحياتنا حد، وهذا الحد، أي اللحظة التي نلفظ فيها نفَسَنا الأخير، هو أكبر مجهول بالنسبة لنا. إذاً علينا أن نجعل كل نفَسٍ من أنفاسنا على هيئة تجعل تلك اللحظة محض خير. على أية حال



سنلقى عزرائيل تلك اللحظة؟ أساجدين أم لاهين؟ أفي المسجد أم في الملهى؟ على أية حال وفي أي وسط يا ترى سيتم الموعد الأخير الذي لا نعرفه؟ ماذا ستكون الجملة الأخيرة التي سينطقها لساننا؟ أنستطيع حينها يا ترى أن ننال بشرى رسول الله ﷺ حيث قال:

«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» (أبو داود، ٣١١٦)

إن كنا راغبين وتائقين لنيل هذه البشرى فعلينا، والوقت ما زال بأيدينا، أن نلقن أنفسنا "**لا إله إلا الله**" بكثرة. وعلينا بهذه الكلمة أن نقتلع من القلب تماماً كل الأهواء والرغبات والعُجبَ وحبَّ الذات وكل الوساوس والآلهة. وعلينا أن نحيل القلب الذي هو محط النظر الإلهي متألقاً نظيفاً بتزكيته وتنقيته، وأن نملأه بالروحانية والبركة. حينها تتجلى صفات الله تعالى الجمالية في القلوب بشكل مختلف تماماً.

من أجل ذلك، يجب علينا أن ندرك معنى "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، فنرجم بها الشيطان الذي يعد لنا دائماً شراكه. ومهما حصل علينا في هذا الأمر يجب ألا نفتح الباب حتى لأصغر غفلة. حينها ننال من الخيرات ما تغبطنا عليه الملائكة. وكان هذا دائماً هو الأفق الوحيد في تربية النبي ﷺ.

وما أجمل ما تعكس هذه الحادثة التالية هذه الحقيقة:

لم أكن لأقعد مع الشيطان....

عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر رضي الله عنه ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر رضي الله عنه، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر رضي الله عنه، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ:



«نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان» (أبو داوود، الأدب، ٤١/ ٤٨٩٦)

ويقول حضرة مولانا جراء هذه الحقيقة:

«كن مع الجهال كالكتاب صامتاً».

لأنّ الله تعالى يريد للمؤمنين أن يكونوا على هذه الصيغة، وقال في ذكر أوصافهم:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]

والنتيجة، إن بركة عمرنا في الدنيا والآخرة مرتبطة بانسلاخنا عن حب ذواتنا، ومحاسبة أنفسنا قبل الموت. وكل وقت نقضيه في هذا المسعى هو أسلم الأوقات. لكن الأوقات المباركة بشكل خاصٍّ هي أوقات ينبغي الاجتهاد فيها أكثر. إذ أننا نمتلك إمكانيات عظيمة يمكن الاستفادة منها في هذه الأيام التي نعيشها من جهة الرحمة والبركة:

الأشهر الثلاثة (رجب وشعبان ورمضان)...

إنّ موسم الأشهر الثلاثة الذي يحيطنا بألف رحمة ورحمة لفرصة ثمينة لا ينبغي تفويتها. فالأشهر الثلاثة أشهر التربية الروحية، وذلك لما تحويه أيامها ولياليها من خيرات وبركات. وأكثر الأوقات ربحاً للفوز بالجنة. فيا لسعادة من استجاب للحكمة في الحوادث المعجزة التي تعبر كالمعراج عن الانسلاخ من الذات، والارتقاء سبع سماوات، فأدّى عباداته جميعها بروح المعراج.



أسأل الله تعالى أن يحسن إلينا جميعاً بروح كهذه، وأن يجيرنا من شر أنفسنا وحب ذواتنا، وأن يحشرنا في زمرة السعداء الذين نالوا المعراج الأبدي بترقيهم في سماء الفناء والمحو. وأن يرزقنا تسخير جميع أوقات حياتنا، وبالأخص الأشهر الثلاثة التي أظلتنا بالرحمة، بالخير والبركة...

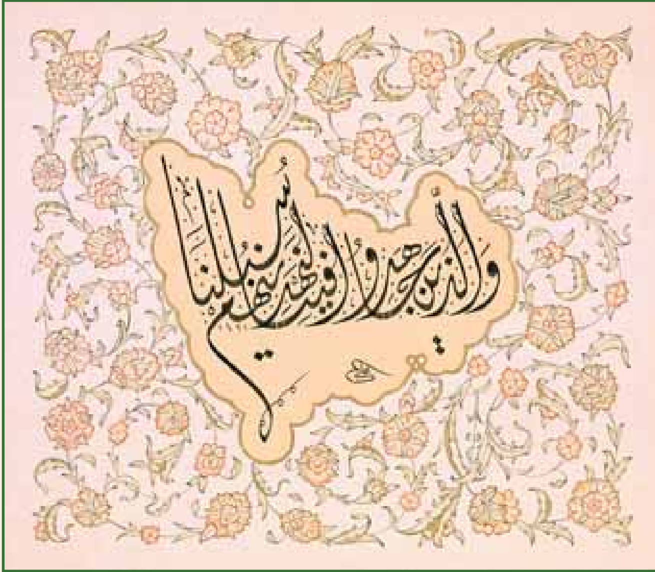
آمين!...





حسن الخُلُق والأدب

يضطرم لهب جهنم بصفات الناس السيئة وتنمو غراس الجنة بأخلاق أهلها وصفاتهم الحسنة.



﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾ [العنكبوت: ٦٩]

حسن الخلق والأدب

الكنز الأبدي...

إنّ أعظم كنز يظفر به ابن آدم في دنياه وآخرته هو ما حازه من أدب رفيع وخلق حسن.

وقيمة الإنسان وكرامته إنما هي بمقدار قيمة وكرامة هذا الكنز العُلوي الشريف.

وقد قال الله تعالى في سياق الحديث عن القيمة السامية للنبي ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

ويقول رسول الله ﷺ معرّفاً بوظيفته:

«**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (مالك، الموطأ، حسن الخلق، ٨)

فصار عليه الصلاة والسلام ﷺ أسوة حسنة لعالم البشر جميعهم.

فشكلت الأخلاق من هذه الناحية جوهر الدين.

بعد نزول الآية الكريمة التي تقول:

﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة: ٣]

قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«**إنّ هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه**» (علي المتقي، الكنز، ٦، ٣٩٢)



أكمل المؤمنين...

إنّ تاريخ البشرية مليء بصور لا حصر لها من تعاملات الأنبياء الأخلاقية التي لا مثيل لها في الجمال. وأحد أجمل الأمثلة عن هذه الصور هو بلا شك يوسف عليه السلام، فقد قال كما ذكرت الآية الكريمة لإخوته الذين ظلموه بشكل واضح:

﴿..لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]

فأبدى بذلك مثالاً لا يساميه مثال عن القدرة على العفو.

من هذا المنطلق أشار رسول الله ﷺ بقوله:

«**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**» (أحمد، المسند، ٢/ ٢٥٠)

إلى أنّ الأخلاق ثمرة الإيمان وعلامة الكمال. وأولياء الله هم مرشدون روحيون تخلّقوا بهذه الأخلاق المحمدية.

وقد أشار أبو محمد الجريري إلى هذه الحقيقة بقوله:

«التصوف هو التحلي بالأخلاق الحسنة والانسلاخ عن السيء منها».

لذلك، كل من يرغب أن يكون عبداً صالحًا فعليه أولاً أن يحاسب نفسه دائماً، وأن يعزم على ترك

ما فيه من أخلاق سيئة بالتدريج ويتوب منها، ثم يعمل على التخلّق بالأخلاق الحسنة المقابلة لتلك الطباع السيئة. فعلى من غلبه كبره أن يتدثر بالتواضع والانعدام، وعلى من أعلّه الحقد والحسد أن يرى إخوانه المؤمنين أفضل منه وينشغل بعيوب نفسه قبل عيوبهم.

وعليه أن يعلم أنّ المؤمن مرآة المؤمن، وأنه إذا نظر إليه بعين السوء رأى السوء، وإذا نظر إليه بعين الخير رأى الخير، وأن يشغل نفسه بجوانب المؤمنين الحسنة.

القطبان المتضادان في عالمنا الداخلي...

في بنية الإنسان الداخلية قطبان متعاكسان، أحدهما يأمر بالخير والتقوى والآخر يأمر بالشر والمعصية. والكل ينحى في عمره منحى وفق حاله الناتج عن صراع هذين القطبين. فإذا غلب جانب التقوى توجه نحو الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة، وإذا غلب جانب الفجور سقط في أنواع المعاصي وسوء الأخلاق.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]

والفجور هو كل ما يبعد الإنسان عن الله ﷻ.

والتقوى هو كل ما يقرب العبد إلى الله ﷻ من أعمال صالحة ومعاملات حسنة.

وتكون قيمة العبد حسب إحدى هاتين الحالين.

كذلك لما أثنوا أمام سيدنا عمر رضي الله عنه على رجل يقضي ليله قائماً ونهاره صائماً لم يعبأ بكلامهم، وقال لهم:

«بل حدثوني عن:

أ. تجارته.

ب. وجواره.

ت. وصحبته في السفر».

إنّ هذه الأمور الثلاثة التي لفت سيدنا عمر إليها الانتباه هي ثلاث مرايا ينقلب فيها الإنسان وحشاً هائجاً إذا ضاقت نفسه. فكما تستشرس قطة تبدو هادئة إذا ما حصرت في زاوية ضيقة، فكذلك الإنسان يفرغ ما بداخله في



لحظات الضيق في التجارة والجوار والصداقة. ويمكن القول أنّ عمر الإنسان يمر ممتَحناً بهذه الأمور الثلاثة.

إنّ النفس التي هي إحدى أكبر العقبات الواجب تجاوزها في امتحان الدنيا تذكّر الإنسان عموماً بميوله السلبية التي عاشها. في حين أنه يمتلك في لبّه ماهية إيجابية كالجوهرة. فوظيفة ابن آدم هي تنقية نفسه بالتربية الروحية من السلبيات، وتنظيف ما علق بجوهره الحقيقي من شوائب وأتربة.

وإلا فتعمل نفس الإنسان للشيطان ليل نهار كمصنع للسيئات، ويحكي هذه الحقيقة لنا حضرة مولانا فيقول:

«إنّ عطاء الله وإحسانه يتدفقان كنهر النيل لكننا إن تخلقنا بأخلاق فرعون ينقلب لنا نهراً من الدماء».

«ألا ترى أنّ صديقك النظيف ذا الطباع اللينة يصبح أفعى عندما تمس مصلحته أو تعاكسه».

ويقول حضرة الشيخ سعدي الشيرازي:

»ليس كل من يملك عينًا وأذنًا وفمًا إنسانٌ. الإنسان الحقيقي هو حَسَنُ الأخلاق».

البغل والجمل...

يحكي لنا حضرة مولانا عن حَسَن الأخلاق وسيّئ الأخلاق ويشبِّههما بالبغل والجمل فيقول:

«قال البغل للجمل: يا رفيق دربي الجميل، إنك تسير بشكل رائع ولو كان الطريق صعوداً أو نزولاً بل حتى في أضيق الطرق، ولا تسقط فتكبو. أمّا أنا فأسير رأساً على عقب كمن ضلّ طريقه، وأسقط على وجهي دائماً سواءً كان



الطريق جافاً أو طينياً. أخبرني عن سبب ذلك حتى أعرف كيف يجب أن أعيش. فأجابه الجمل: إنّ عيني أجلى من عينك. كما أنني أنظر من علٍ. فإذا صعدت جبلاً أرى بسهولة نهاية الدرب. ويُري الله عيني صعود جميع الطرقات وهبوطها. وأنا لا أخطو خطوة حتى أتبين موضعها. ولذلك أنجو من التعثر والسقوط.أمّا أنت فلا تستطيع أن ترى أبعد من ثلاث خطوات، فترى الأعشاب ولا ترى الفخ. أيستوي أعمى وبصير في استقرار وجلوس ونزول وسير؟».

كل شيء هو انعكاس لأخلاقنا...

إنّ النتائج التي نلقاها سواء في الدنيا والآخرة ما هي إلا ثمار أخلاقنا. فاللهب يضطرم في جهنم بصفات الناس السيئة، والكروم والأشجار في الجنة تنمو بأخلاق الناس وصفاتهم الحسنة.

وكما يقول حضرة مولانا:

«من احترم احتُرِمَ، كما أنّ من جلب السكّر أكل حلوى اللوز».

وما أجمل ما يقول حضرة سيّد نظام :

طبعك السيء نار عليك في جهنم
وإلا فليس في جهنم أي نيران.

تاج الأدب...

الأدب قمة الأخلاق. فهو يرقّي الإنسان الخام من خلال شعور الإحسان حتى يجعله إنساناً كاملاً فيتأدّب أولًا مع الله أدباً جمّاً. ويتأدب ثانيًا مع رسول الله ﷺ، فالله تعالى أمر المؤمنين في سورة الحجرات وفي سائر السور بالحفاظ على أدبهم مع رسول الله ﷺ.



ومن هذا التأدّب ينبثق الأدب مع المعلم والوالدين والمؤمنين ويمتد متسلسلًا حتى يطال جميع المخلوقات.

ويقول سفيان الثوري رحمه الله:

«حُسنُ الأدب يطفئ غضب الرب».

ويقول ابن عباس رضي الله عنه:

«رأس الأدب اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، في الشدة والرخاء».

وقد قيل أيضاً:

ثلاث خصلات من حازهن ما حُرِمَ:

١. التخلق بأدب حسن.
٢. مصاحبة ذوي الأدب الحسن.
٣. التعامل مع المؤمنين بأدب حسن.

وما أجمل ما عبّر به الشاعر عن خصوصية الأدب:

الأدب تاج من نور الله

اعتمرْه واسلمْ من كل بلاء

ويعبر حضرة يونس أمره عن هذه الحقيقة بقوله:

بحثت بين أهل اللغات وسألت

فإذا بها لا تقبل المهارات بدون الأدب...

بسبب هذه النكتة عرّف بعض أهل الله التصوف بأنه "عبارة عن الأدب"

ويقول حضرة مولانا:

«سأل عقلي قلبي: ما الإيمان؟، فانحنى قلبي إلى عقلي وهمس بأذنه: الإيمان هو الأدب».



أدب الأولياء...

يا له من مثال معبّر من حضرة حاتم الأصمّ حيث:

كان يتحدث إلى امرأة ضعيفة بائسة مسكينة، وبينما كانت المرأة تتحدث عن همها باكية آسفة سُمِعَ صوتٌ قبيح منكر. فذابت المرأة كالشمع خجلاً وتحطمت وسحقت. سادَ المكانَ صمتٌ قاتلٌ... نظر الشيخ إلى المرأة وكأنه صنم بلا إحساس وقال لها بوقار عظيم:

«لا أسمع ما تقولين، أسمع بصعوبة كبيرة، تحدثي بصوت عالٍ واصرخي؟، فأنا أصمٌّ».

عادت إلى المرأة المسكينة الحياة بعد أن ظنت أن جرمها بقي خفيّاً. إن هذه الكياسة التي هي رائعة الروائع لدرجة أنه لم يرَ لها مثيل في أدب المعاشرة لدى أي أمة من الأمم؛ منحته لقب "الأصم".

إنه ذوق وأدب الإسلام الحقيقيان...

بقي حضرة حاتم بعد هذه الحادثة يتظاهر بالصمم بين الناس حتى وفاة تلك المرأة مراعياً الأدب. لكن وبعد وفاة المرأة قال لمن حوله:

"عدت أسمع، تحدثوا بصوت عادي".

وسيلة الهداية...

لقد كان حسن الخلق والأدب الإسلاميين وسيلة لبزوغ كثير من شموس الهداية طوال قرون. وعلى سبيل المثال، كان أخي المرحوم يتحدث لنا عن أهمية وبركة مراعاة الكسب الحلال وعدم خلطه بالحرام ضمن إطار أخلاق الإسلام من خلال هذه الحادثة التي أوردناها سابقاً:



كان لنا جار غير مسلم، ثم أسلم فيما بعد. فسألته يوماً عن سبب هدايته فقال لي:

لقد أسلمت بسبب حسن أخلاق جاري في حي أجيبادم الملا ربيع التجارية. فقد كان الملا ربيع يعيش على بيع الحليب. جاءنا ذات مساء وقال لنا: تفضلوا هذا الحليب لكم. فعجبت وقلت له: كيف هذا؟ أنا لم أطلب منكم حليباً. فقال ذلك الإنسان الحساس اللطيف: لقد دخلت إحدى حيواناتي حقلكم بدون أن أشعر فرَعت من عشبكم، ولذلك هذا الحليب لكم. كما أنني سأحضر لكم حليبها حتى يذهب من جسدها ما أكلته من حقلكم تماماً. فلما قلت له: أيستحق هذا الأمر حديثاَ يا جاري؟ أليس ما أكلته عشباً؟ لقد سامحتك فيه، قال: لا، لا، هذا لا يجوز. فحليبها حقكم ، وأحضر لنا حليبها حتى انقضى ما أكلته من جسدها.

لقد أثّر فيَّ بشدة فعل هذا الإنسان المبارك، وأزال عن عيني حجبَ الغفلة وأشرقت في داخلي شمس الهداية، وقلت في نفسي:

إنّ دين إنسان بهذا الخلق العظيم لهو بلا شك أعظم دين. ولا يمكن أن يُشَكَّ في صحة دين أنشأ أناساً لطيفين أنقياء مراعين للحق كهذا، وتشهدت وأسلمت.

وكان هذا الرجل معجباً بأحوال طيبة أخرى من أحوال الملا ربيع.

كان يقول:

«كنا نعود من التجوال ليلاً. فننظر فنرى أنوار بيت الملا ربيع موقدة، وتلك الذات الصالحة في تعبد. كما أنه كان يجعل الحليب الذي يجنيه ثلاثاً، فكان ينفق ثلثه على الفقراء بانتظام».



كان أبي العزيز موسى أفندي رحمه الله، الذي كان يروي لنا تلك الحادثة، يحدثنا كثيراً عن الملا ربيع. ويحكي لنا عن الهيبة الروحية التي اكتسبها بحسن خلقه. وكان يجذب انتباهنا إلى الاحترام والاهتمام الذي كان يولي الملا ربيع في مجالس العلماء. فقد كان يقول: «كانت تعقد اجتماعات للعلماء بشكل معتاد يحضرها العلامة إلمالي حمدي أفندي. وكان حمدي أفندي يرأس المجلس، ويتحلق المشايخ الفضلاء الآخرون حوله، وتُقام دروس علمية تستمر لساعات. كان حمدي أفندي يرد سلام الداخل عليه من مكانه، ويستمر في درسه. ما عدا شخص واحد كان الملا ربيع، فعندما كان يدخل الملا ربيع كان يقوم له على الفور، وكان يهتم بتلك الذات الصالحة كثيراً. ولا شك أنّ هذ التصرف كان تأثيراً للهيبة الروحية التي يمنحها حُسنُ الخُلُق الذي يتحلى به العباد الصالحون. باختصار، كان حال كلٍّ من الملا ربيع وحضرة الشيخ إلمالي حمدي أجمل تجلٍّ للمهابة التي منحها الله الصالحين، وأدب العلماء الحقيقيين معهم».

أثقل ما في الميزان...

يقول رسول الله ﷺ داعياً المؤمنين إلى حسن الخلق بكل وسيلة:

«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حَسن، وإنّ الله يبغض الفاحش البذيء» (الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢)

لا بد حتى نقبل على ميزان القيامة ملآن أن نستقي من الحياة القلبية والأخلاق الحميدة لفخر الكائنات ﷺ الذي يمثل رمزاً لأحسن الأدب والأخلاق. وهذا إنما يتحقق بمقدار محبته والتدثر بروحانيته عليه الصلاة والسلام.

وإنّ أجمل تجلٍّ للتدثر بروحانيته هو بلا شك أن تعيش كل لحظة من عمرك بروح رمضان الشريف مقتفياً أثره المبارك ﷺ.



نفحة من الرمضانات القديمة...

ثمة بيت جميل لحضرة مُلاّ جامي إذ يقول:

كعبه بنياد خليل آذر است

دل نظرگاه خليل اكبر است.

«الكعبة بناء الخليل بن آزر، والقلب محط نظر الله العظيم الجليل».

ومن هذا المنظور استرضِ قلباً، واجبر كسراً، ليكون لك حجاً أكبر.

بهذه الروحانية كانوا يعيشون الرمضانات القديمة.

كان أبي المرحوم موسى أفندي يهتم كثيراً برمضان الشريف. وكان بيتنا يمتلئ بالطمأنينة والسرور. ولم نكن نشبع من اللذة الروحية للإفطار.

فيوماً كان يدعو عمال النظافة فيُقَدَّرون ويُكرَمون ويُعزّون. ثم كانت تُعَدُّ لهم عند خروجهم عُلَبُ الهدايا وفق احتياجهم من قبيل ما كان يُعبّر عنه القدماء بأنه أُجرة الأسنان.

ويوماً آخر كان يدعو سائقي العربات.

ويوماً يدعو المشايخ الفضلاء، ويوماً الجيران ويوماً الأقارب.

وكان الجميع يُكرَم بالهدايا وفق مستواه شكراً لتشريفه.

وكانت النيات في جميع هذه الأعمال هي الرغبة في الدخول إلى قلب مؤمن، وبناء قصر قلب، ونيل السعادة بدعاء الجميع من الفقراء والمساكين وحتى العلماء.

ومن هذا المنطلق، كان يُعتنى بألا يُنسى الفقراء خصوصاً من دعوة الإفطار. فلم يكن ثمة أفعال خاطئة كالتي تحدث اليوم من دعوة زمرة معينة فقط إلى المطاعم الفاخرة.

كانت القلوب تحتضن الجميع، فقيرهم وغنيّهم.



حتى أنّ الاهتمام بالفقراء والمساكين كان أكبر، وذلك حتى لا يُجرَحوا. ويُراعى التلطف مع المحتاجين حتى لا يبقوا تحت تسخير أهل الرفاه. وكانت كتابة عبارة " السيد.... المحترم، نشكركم لتفضلكم بالقبول "، بعناية على ظروف أموال الزكاة والصدقة من آداب الإنفاق التي لا تُهمَل.

لأنّ الزكاة والصدقات تُعطى لله تعالى بمقتضى قوله:

﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ...**﴾ [التوبة: ١٠٤]

فقد كان يُعمل بدستور حديث النبي ﷺ الذي قال:

«**إنّ الصدقة تقع في يد** (قدرة) **الله قبل أن تقع في يد السائل**» (المناوي، كنوز الحقائق، ص ٣٤)

كان الطعام يُرسَل إلى المرضى بأوعية مغطّاة. إضافة إلى الناس، ولم يكن يُهمَلُ إكرام الحيوانات بل يُلقى إليها بالأكباد لتأكلها.

القصد، أنّ القلوب العارفة كانت تجتهد في عرض جماليات الأخلاق النبوية من خلال النظر إلى الخلق بنظر الخالق، وكانت تعيش نفيراً في إحياء جميع القلوب من الناس وحتى الحيوانات.

يجب أن تتجلى الأخلاق الحسنة هذه في كل مراحل حياتنا وبجميع الوسائل.

لكن، وفي رمضان الشريف شهر الرحمة والعطف، علينا أن نعكس حُسن أخلاقنا على جميع معاملاتنا وعباداتنا المالية والجسدية والقلبية، وأن ندرك رمضان الشريف مطبقين الدساتير العُلْويّة مثل:

- الإنفاق بكثرة.
- إسعاد المرضى والغرباء.
- قراءة القرآن.
- التحلي أكثر بأخلاق الله والرسول.



وأن نعكس هذا الإدراك على عمرنا كله، وأن نستعد لفضل نيل العيد الحقيقي الكبير من خلال البشريات الأبدية التي سنُبَشَّرُ بها في نفسنا الأخير، وذلك بأن نعيش حياتنا من أولها إلى آخرها ببركة ورحمة أيام رمضان.

اللهم آتنا هذا الفضل وأحيينا بأن يكون عمرنا رمضان ونفسنا الأخير صباح يوم العيد.

اللهم زيّن قلوبنا بحسن خُلُق وأدب نبينا، ووفقنا للتصرفات الأخلاقية والأعمال الحسنة التي تبيّض وجوهنا في الدنيا والآخرة.

آمين!..





رعاية الأمانة

إنّ جوهر رعاية الأمانة رعايةً لا تُخجلنا عند الله يكمن في اجتناب المحرمات والمعاصي جميعها. ولا بد من الحذر أكثر في هذا العالم الذي أُشرِبَ فيه مجتمعنا كثيراً من المعاصي الكبيرة والمهلكة على أنها أمور عادية وسليمة. وما أجمل ما قال العارفون:

"لا تنظر إلى كبر المعصية وصغرها، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت"



رعاية الأمانة

الأمانتان العظيمتان...

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ [الأحزاب: ٧٢]

يلفت الله تعالى الانتباه هنا إلى عظم الأمانة التي حملها الإنسان وإلى ضرورة رعايتها.

كما يخبرنا أنّ أكبر خطر يهدد رعاية تلك الأمانة هما الظلم والجهل. فإذا ظَلَمَ الإنسانُ وجَهِلَ فسيضعف ويفشل في رعاية الأمانة.

ولا بد للقضاء على هذا الخطر من التشبث بما يخالف الظلم وهو العدل أي العمل الصالح، وبما يعاكس الجهل وهو العلم الظاهري والباطني. وطريق تحقيق هذا الشرط يمرُّ من الكتاب والسنة.

ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ:

«تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه»

(الموطأ، كتاب القدر، ٣)



تربية الأمانة...

إنّ قيمة الأمانة بمقدار قيمة مودعها، كما أنّ عظم الأمانات يعبر عن عظم مسؤوليتها وحسابها. وقد اقتضى البيان الإلهي القائل بعرض جميع الأنبياء للحساب أن يعيش الأنبياء أعمارهم في سعي بلا كلل ولا ملل.

لقد عاش سيدنا رسول الله ﷺ طوال حياته جاعلاً أداء الوظيفة على أكمل وجه نُصبَ عينيه، فحمل الأمانة التي على عاتقه بحق في حين أنه مطهرٌ من الذنوب مبشر بالنجاة والمقام الرفيع في الآخرة. ويا لموقفه في حجة الوداع من إرشاد بليغ لنا إذ قال لأصحابه الذين تجاوزوا مئة ألف:

«**لا هل بلّغت؟**»، وكررها ثلاثاً فقالوا:

«نعم يا رسول الله لقد بلَّغتَ»، فالتجأ إلى ربه قائلاً:

«**اللهم فاشهد**».

فيجب علينا أن نعتني بالقرآن والسنة، الأمانتين العظيمتين اللتين تركهما لنا، عناية تؤهّلنا لأن نليق بالله ورسوله. وإنما نبتغي عند الله ورسوله المكانة بالتمسك بهاتين الأمانتين العظيمتين.

أي أنّ رعاية الأمانات العظام وظيفة وحضرة تزيد من قيمتنا أضعافاً مضاعفة.

وحقيقة هذه الرعاية مرتبطة بمقدار تخلّقنا بأخلاق القرآن والسنة، فإن كان عمرنا ينقضي كما مدح الله تعالى وأثنى بقوله:

﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨]

فهذا يعني أننا نحن المخاطبون بالبشارة في قوله تعالى:

﴿**الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١]



خطوات أساسية في تربية أطفالنا...

حتى نتحلى بخصلة رعاية الأمانة ونفوز ببشاراتها علينا أن نجعل شغلنا الشاغل الذي لا يمكن التخلي عنه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وينبغي أن نجعل أعظم غاياتنا توجيه كل فرصة لتصب في سعينا على رعاية هاتين الأمانتين. فقيامنا مثلاً في فصل الصيف الذي دخلنا فيه بمزج أنفسنا وصغارنا بتربية القرآن الكريم وثقافته بشكل أكبر سيحقق لنا سعادة في الدارين.

وفي هذا الإطار، ينبغي علينا أن نحاسب أنفسنا عن أعمالنا طوال حياتنا بشكل يومي. فقد قيل: «هلك المسوّفون»

لأنه في النهاية سيأتي يوم لنا لا غد له... إذاً علينا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة اليوم:

كيف هي علاقتنا بالصلاة؟ وكيف هي علاقة أبنائنا قرة عيننا بها؟ وعلينا ألا ننسى أنّ تعويد صغارنا فلذات أكبادنا على الصلاة في أعمارهم المبكرة سيحفظهم من أخطار زماننا الكبيرة جداً. وبهذا قد أمر رسول الله ﷺ. لأنّ الصلاة حين تؤدى على وجه سليم تنهى العبد عن الفحشاء والمنكر. فالصلاة من هذه الناحية في بناء شخصية الإنسان كجذر الشجرة. فإذا كان الجذر ضارباً في الأرض فستنجح الشجرة في الثبات أمام أعتى الرياح وأشد العواصف. أما إذا كان الجذر متعفناً فتلك الشجرة آيلة إلى السقوط، حتى ولو لم تهب أية ريح. ويظهر تعفن الجذر في أغصان الشجرة وثمارها.

وهذا في نفس الوقت يعني؛ أنه إن بدا في أطفالنا الذين هم ثمارنا أيُّ خطأ أو تصرف سيء فيجب أن نبحث عن سبب ذلك في أنفسنا لا فيهم. لأنهم نتاج حالنا وتربيتنا أي أنهم النتائج التي أعددناها.



لذلك، فالأمر كله تربية صغارنا كبراعم الجنة. وهذا هو مطلب الله منا. فإذا عاش الوالدان والأبناء والأحفاد حياة مستقيمة في رحلة يوم القيامة ساعين في تحصيل الخيرات الإلهية كسلسلة واحدة مستمرة على الخير فستتجلى عليهم نِعَمُ الله تعالى وإحسانه بشكل مختلف ووفير. وسيمنح الله المتفضلُ كلَّ واحد منهم ثواب عمل جميعهم لا ينقص منه شيئاً، وسيزيد لهم نصيبهم من الجنة زيادة كثيرة، وقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن فضله هذا فقال:

﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ..**﴾ [الطور: ٢١]

فيا لها من بشرى وكرم إلهيين عظيمين.

فلن توزن حسنات الأب والأم وحدها، بل سيوضع في ميزانهم حسنات أبنائهم وأحفادهم وذريتهم جميعاً -الذين ربّوهم على الإيمان والتقوى- علاوة على أنه لن ينقص من أجورهم شيء. وهذا الفضل سيُمنح لجميع من آمن من تلك الذرية.

ولو شكرنا على ذلك في كل نَفَسٍ من أنفاسنا، ولحظة من أوقاتنا، لكان ذلك قليلاً. فما أعظمَ رحمة الله تعالى وعطفه علينا نحن العبادَ المجرمين، وما أوسعها!.

ولا يرغب أي عبد ذي لب وفراسة عن الفوز بهذا الكرم العظيم وشكره. ولكن يجب من أجل ذلك بلا شك أن نجتهد في تربية صغارنا بعناية وشوق أكبر. فكيف إذا كانت الكثير من البؤر الشيطانية الدنيئة تسرق صغارنا فلذات أكبادنا روحياً وفكرياً وقلبياً، فهذا يعني أن مهمتنا ومسؤوليتنا في تربيتهم ونصرتهم ازدادت أضعافاً.



فكما أنهم إذا اقتطعوا قطعة من جسدنا تحولنا إلى كتلة من الألم، فكذلك إذا اقتطفوا منا صغارنا الذين هم روحنا وكبدنا فستعتصر قلوبنا ألماً وحرقة. فلذلك وجب إنتاج الحلول والوقوف سداً منيعاً أمام أمثال هذه الكوارث.

من جانب آخر، يجب علينا حتى نربي أبناءنا وروداً بلا شوك أن نعكف عليهم ليلاً نهاراً.

لغة الحب...

إنّ عكوفَنَا على أطفالنا لا يعني خنقهم بالقوانين وإلزامهم بها وحدها. بل لا بد من أن يكون هذا العكوف حانياً كنسيم البحر في جو من الحب والود. ولا ينبغي أن يتحول أبداً لعاصفة عنيفة. فيجب أن نربي صغارنا تربية مليئة بالحب تجعلهم يراقبون أنفسهم مراقبة شديدة في غيابنا وفي حضورنا. بأن يسألوا أنفسهم على سبيل المثال في تصرفاتهم: "هل يعجب هذا الذي قمت به سيدنا محمدًا ﷺ يا ترى؟"، لهو أشد تأثيراً في أنفسهم وأحسن توجيهاً لهم نحو الخير من أن نضع فوق رؤوسهم شرطة وأمناً.

يجب على الآباء والأمهات والمشايخ الفضلاء والمربين ألا ينسوا أنّ الأطفال لا يسمعون إلا صوت الحب... ألا يمتلئ في الحقيقة كبار السن باللذة والفيض عندما يستحون من ذنوبهم لمحبتهم لله؟ إذاً يجب أن يكون أسلوب الحب المنمّي وجهد العشق الذي لا يعرف الإهمال من أبرز الأوصاف والخصال لدى جميع المربّين. وإنّ مصدر القوة في رعاية ما بيدنا من أمانات هو تلكم الأوصاف والخصال.

لكن من أجل هذه الصيغة لا بد للإنسان أنّ يربي نفسه ظاهراً وباطناً قبل كل شيء. لأنّ الفم يكفي لإيصال العلم والعرفان إلى الأذهان، لكن إيصالهما



إلى القلب يقتضي خروجهما من القلب. من أجل ذلك، يجب أن تكون ذا قلب ناضج. وإلا فبتعبير القدماء:

إنّ عجوزاً محتاجاً للصدقة

أنّى له التصدق على غيره.

الكِبر يُعمي...

إن لم يُربِّ الإنسان نفسه ويقومها على تحمل رعاية الأمانات العظيمة، فإنّ الرغبات النفسية والشهوانية تمحقه وتُعمي عيني قلبه. فلا يرى بعدها الفئران الداخلة إلى مخزن أخلاقه وعبادته، ويصبح بالنتيجة مفلساً روحيّاً.

وما أبلغ ما نبّه به حضرة مولانا على أمثال هذه الأخطار إذ قال:

«لقد فعل الشيطان بآدم ذلك الباطل الشديد الكثيرَ. فلا تظنوا يا أبناء آدم أنّ الشيطان هزيل ضعيف».

«لقد سلب الشيطان الحسود تاج شرف أمنا وأبينا فنزع عنهما بخفة يده لباسهما المزين».

«إذا كان نبي عظيم كآدم قد عضَّ أصابعه ندماً وحسرة بسبب الشيطان، فتخيّل أنت أيها العبد المسكين ضعفك أمام مكره...».

«لا تنسَ أنّ الصيّاد، أي الشيطان، لينثُرُ حَبَّ الطمع في الدنيا وحُبِّ المال والرغبة في المنصب العالي والشهوات. فالحَبُّ في الميدان. لكن الكوارث التي ستأتي سيُنزِلها بنا هذا الحَبُّ خفيّة مستترة».

«فأينما رأيت الحَبَّ فاحذر! احذر حتى لا تسقط في الفخ، فتُغَلَّ ذراعك وجناحك».

«إنّ الطائر الذي لا ينجر للحَبِّ الذي ينثره الشيطان يتغذى من صحراء الحقيقة التي لا مكر فيها ولا شراك، ومن هناك يأكل حَبَّه. فالطائر الذي يتغذى من صحراء الحقيقة يتناول الغذاء الروحي وينجو من فخ الشيطان، فلا تُغَلَّ ذراعه وجناحه».

لا تُسلَمُ الشاة للذئب...

يوجه حضرة مولانا نصائحه حتى لا تغلب المرءَ نفسُه فيخسر، فيقول:

«تطبّعْ بطباع الله فتبقى الأمانات المودعة لديك تامة بلا نقصان وتنجو من الضياع».

«وافق طبعك الإنساني مع الخالق، توافق مع الكائن العظيم الذي يُغَذِّي طباعَ الأنبياء ويُنضِجُهم. واتخذ طباعه طباعاً لك، فلو أعطيته شاةً لأعطاك قطيعاً من الغنم. فهو أصلاً من يغذي كل صفة وينمّيها».

«إنك تودع الذئبَ الشاةَ أمانةً عنده. فلا تجعل الذئب رفيق دربك هكذا. فإذا شاء الذئب أن يحتال عليك ليخدعك اجعل عقلك في رأسك ولا تنخدع به، فلا يأتي منه خير».

المقصود من الشاة هنا الأطباع الحسنة، والمقصود من الذئب الأهواء النفسية والشيطانية وطباع السوء.

جوهر رعاية الأمانة...

إنّ جوهر رعاية الأمانة رعايةً لا تُخجلنا عند الله يكمن في اجتناب المحرمات والمعاصي جميعها. ولا بد من الحذر أكثر في هذا العالم الذي أُشرِبَ فيه مجتمعنا كثيراً من المعاصي الكبيرة والمهلكة على أنها أمور عادية وسليمة. فألبسة الحرام تُطبَع بطابع الحلال، وألبسة الحلال تطبع بطابع الحرام. وتُشَرَّبُ



الناس تصرفات وحياة الرذيلة والشهوة. وتُنَحَّى الخيرات العُلويّة العظيمة جانباً بتقبيحها وتشويهها. وهذه أعظم نازلة في عالمنا اليوم.

لذلكّ فإنّ التمسك بالأمانات الإلهية التي تحفظنا من هذه النازلة هو سبيل النجاة الأوحد. أي أنّ متانة هدايتنا وعبادتنا في آخر الزمان هذا، إنما تتحقق بالهروب من المحرمات والشبهات على وجه الخصوص. وستتحقق أكبر خطوة لنا في الهداية، والتي ستحفظنا وأبناءنا ومحيطنا بهذا الشكل، أي بوقاية أنفسنا من المحرمات.

باختصار، حتى نهزم فرعون نفوسنا، على قلوبنا أن تصبح موسى. لأنّ القلب إذا أصبح موسى فسيقضي على فرعون النفس بضربةٍ مِن عصاه... وهذه صيغة تتحقق بالتربية الروحية لأولياء الله. وما أجمل ما يقول حضرة مولانا:

«وقتل النفس يشبه بجهة من الجهات حال العقرب الذي يبرز إبرته حتى ينجو من القتل».

«حتى تنجو الأفعى من بلاء سحق رأسها بالحجارة تقتلع أسنانها المليئة بالسم».

ويقول البسطي أيضاً:

«أكثر ما في الإنسان في الدنيا هو عيوبه ونقائصه، فيا أيها الخادم جسده! إلى متى تخدمه؟ وجّه وجهك نحو روحك تلك الأمانة الإلهية التي في يدك، واسعَ على إتمام نقائصها لأنك إنسان بروحك لا بجسدك».

تجارة القلب...

يجب أن تكون تجارة قلبنا طوال حياتنا مع الله تعالى لا مع النفس والشيطان. لأننا حتى لو ضحينا للنفس والشيطان بالكنوز وبذلناها لهما فلن نجني شيئاً من



الأرباح ولو قلَّت. علاوة على أنها يوقعاننا ضحية للكوارث. لكن ما نقدمه لله تعالى من عبادات حتى القاصرة المختلة منها تُكسبنا ثواباً من الله لا حد له. وما أجمل ما يقوله حضرة مولانا انطلاقاً من هذه الحقيقة:

«اترك الشراء من دكان أولئك الذين لا يقدرون لك قيمة حتى تزداد قيمتك. كن عبداً يعجب الله فيشتريه. تعال إلى دكان "الله الذي يشتري" لا دكان الناس».

«إنه لا يرد النقود المزيفة أبدًا، لأنه لا يبغي من الشراء ربحاً».

كان هناك فرّان غريب مليء بهذه الحقائق. فكان إذا أعطوه نقوداً مزيفة قبلها، ومع علمه بزيف النقود لكنه ما كان يقول شيئاً لزبائنه، وكان يعطيه ما يريد من الخبز. وكان الجميع يعجب من حاله هذا ولا يفهم سبب ذلك. فلما حضره الموت رفع الفران يديه إلى الدار العليّة وتضرّع قائلاً:

«اللهم إنك تعلم أنّ الناس قد أتوني بالدراهم الزائفة لسنين ولم أردها في وجوههم وأعطيتهم بها ما أرادوا. فاللهم إني مقبل عليك بطاعات زائفة فلا تردها في وجهي يا ربي...».

ونحن نتضرع إلى الله ونسأله ألا يرمي بتقصيرنا وذنوبنا وجوهنا يوم الحشر، وأن يحفظنا ونسلنا ووطننا من جميع شراك النفس والشيطان ومن الذنوب والمحرمات والمصائب وأن يجعل وجهنا في الدارين أبيض وقلبنا سعيدا...

آمين!...



الحكمة البالغة من الأضحية

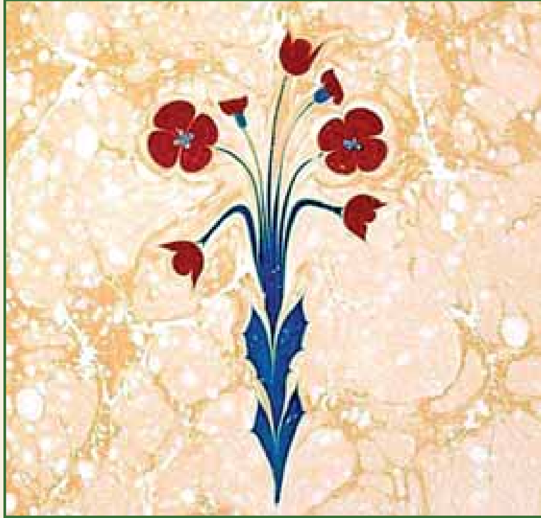
إن الحكمة الأصل من ذبح الأضاحي هو تنبيه القلوب لعبادة الله بالتسليم والتقوى، فالله تعالى يقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ...﴾

[الحج: ٣٧]

ويقول حضرة مولانا مبينًا الحكمة التي تضمنتها الآية:

«إن يوم القيامة الذي هو عيد أضحى هو، يوم عيد على المؤمنين، ويوم موت على الثيران المنكرين".



الحكمة البليغة من الأضحية

الامتحانات الثلاثة للبشرية...

كان في قلب إبراهيم ﵇ ثلاثة عروش: المال والروح والولد. فامتحنه الله تعالى في ثلاثتها.

فقد تخلى سيدنا إبراهيم ﵇ عن المال مقابل ذكر الله ﷻ. ثم تخلى عن روحه بكامل الرضى في حادثة رميه في النار بمنجنيق النمرود. ثم تخلى عن ولده بأمر الله تعالى عندما أدَّى الأمرَ الإلهي بذبح ولده باستسلام لله عظيم.

وهكذا صار وليَّ الله وخليلَه.

إنّ الامتحانات الثلاثة التي اجتازها إبراهيم ﵇ بنجاح هي في الحقيقة امتحانات تعيشها البشرية كل يوم.

إنّ المعايير في شأن إنفاق المال الذي هو قطعة من الروح، وتسليم أرواحنا التي هي أمانة مودعة عندنا إلى صاحبها قبل الموت، وعدم جعل أبنائنا ستاراً لنا وفق أمر الله تعالى؛ هي عطاءات إلهية من أجل هزيمة أنفسنا والشيطان، وبالتالي الفوز بالسعادة الأبدية. وإنّ الجزئيات والنكت المعنوية التي يشتمل عليها جوهر عبادة الأضحية لتبيّن لنا أنّ الله تعالى لم يطلب منا أن نقوم بفعل ذبح الأضاحي فقط. ولتعرض لنا إشارات ومعانٍ لا حصر لها على اكتساب الخصال العظيمة في سبيل بلوغ الكمال. حيث أنّ؛



تسليم الأنبياء...

بعد أن ترك سيدنا إبراهيم عليه السلام أمنا هاجر وإسماعيل عليه السلام في مكة عاد إلى أمنا سارة وكان يمر عليهما من حينٍ لآخر.

وذات مرة رأى إبراهيم عليه السلام رؤيا في مكة. وكان يرى في رؤياه كما نصت الآية الكريمة أنه يذبح إسماعيل عليه السلام. وشكَّ في أن تكون الرؤيا شيطانية أو ربّانيّة. لكن الرؤيا ذاتها تكررت ثلاثة أيام، وكانت تلك الأيام يوم التروية وعرفة وأول أيام العيد من موسم الحج.

ووفق إحدى الروايات، كان إبراهيم عليه السلام قد قال:

«لئن آتاني الله ولداً لأذبحنّه تقرباً إلى الله». وبسبب قوله هذا امتُحِنَ.

فقال إبراهيم عليه السلام لأمنا هاجر كما أمره الله تعالى أنه ذاهب بولده إسماعيل نحو صديق له ليغسّله ويطيّبه. وأمر إسماعيلَ عليه السلام أن يأخذ معه حبلاً وسكّيناً، وقال له: «سأذبح أضحية لله تعالى».

فاتجها نحو منى، وفي تلك الأثناء جاء الشيطان على هيئة إنسان إلى أمنا هاجر وقال لها: ألا تعلمين إلى أين يأخذ إبراهيم ولدك؟، فقالت: إلى صديقه، فقال الشيطان: لا، إنه أخذه ليذبحه. فقالت أمنا هاجر: إنه يحب ولده كثيراً. فتابع الشيطان قائلاً: يزعم أنّ الله أمره بذبحه، فقالت أمنا هاجر: إن كان الله جل جلاله قد أمر بهذا فنعمّا هو ونتوكل عليه. فلما عجز الشيطان عن خداع أمنا هاجر ذهب إلى إسماعيل عليه السلام وسأله: أما تعلم إلى أين يأخذك أبوك؟، فقال إسماعيل عليه السلام: إلى تنفيذ أمر ربه.... فقال له محاولاً أن يوسوس إليه: تعلم أنه يأخذك ليذبحك. فقال له سيدنا إسماعيل عليه السلام: اغرب أيها الملعون إننا ننفذ أمر ربنا بكل سعادة، ثم طرده ورماه بالحصى.

لم يستطع الشيطان أن يخدع إسماعيل ، فعاد إلى إبراهيم وقال له: أيها العجوز إلى أين تأخذ ولدك لقد خدعك الشيطان في المنام فتلك الرؤى شيطانية. فقال له إبراهيم : إنك الشيطان فابتعد عنا.

فرمى الشيطانَ بحصيّات في ثلاثة أماكن مختلفة في كل مرة بسبع حصيّات.

بهذا شُرِعَ رجم الشيطان كركن في الحج إلى يوم القيامة. فصار هذا الحدث أسوة للأمة كرمز للتوكل والتسليم.

وبينما إبراهيم ذاهب بإسماعيل عليهما السلام ليذبحه عجب الملائكة في السماء، فقال بعضهم لبعض: «سبحان الله يأخذ نبيٌّ نبيّاً ليذبحه».

فأخبر إبراهيم ولده سيدنا إسماعيل عليهما السلام حقيقة الأمر فقال:

«يا بنيَّ لقد أُمِرْتُ في الرؤيا بذبحك»

فقال له إسماعيل : «آلله أمرك بهذا يا أبتِ؟»

فقال إبراهيم : «نعم»

فقال له إسماعيل : «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

أعلَمَه أنّه جاهز ليقدم روحه. وكان إسماعيل في السابعة أو الثالثة عشر من عمره.

ووفق إحدى الروايات، كانت إحدى المرات الثلاث التي اضطرب فيها جبريل وتعثر في الوصول؛ حين وضع إبراهيم السكين على عنق سيدنا إسماعيل ليذبحه. فثلم جبريل في تلك اللحظة السكين، وأخبرهم أنه سيُذبَح كبش أحضره من الجنة إكراماً إلهياً لهم من عند الله على تسليمهم له.

وهكذا ذُبِحَ ذلك الكبش بين التكبيرات السريّة الصميمية.



المقصد الأصلي من الأضحية...

علينا أن نقول على ضوء الحقائق أعلاه إنّ المقصد الأصلي من الأضحية هو تذكر هذه الحوادث والاقتباس من الحكمة الإلهية التي اشتملت عليها، وتنبيه القلوب لعبادة الله بالتقوى والتسليم.

فالله تعالى يقول:

﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** ...﴾ [الحج: ٣٧]

وينبهنا حضرة مولانا مشيراً إلى هذه الحقيقة فيقول:

«لا تعمد إلى ظل الماعز لتذبحه».

أي أنه يجب علينا ألا ننسى جوهر عبادة الأضحية، ونخدع أنفسنا بانشغالنا بشكلها فقط.

كما أنّ أضاحي قابيل وهابيل ولدي آدم ﷺ مثال بليغ جداً.

فقد اختار هابيل أضحيته من أحسنها وقرّبها بإخلاص، أمّا قابيل فقد قرّب لله تعالى حزماً ضعيفة من السنابل.

وبالنتيجة تُقُبِّلَ من هابيل ولم يُتَقَبَّل من قابيل.

يجب علينا أن نحاسب أنفسنا أمام مرآة الحقائق في هذه الحادثة عن كمية وكيفية تأدية شكرنا للنعم التي وهبنا الله ﷻ إياها، وكم نُضَحّي في سبيل ذلك.

الأضحية تضحية...

إنّ الأضحية بجميع أسرارها وحكمها عنوان التضحية. وبذل للنعم في سبيل الله صادرةً من الروح والقلب. فقدرة كل أحد وما كسبه هو في الحقيقة بمقدار ما ضحّى به. لذلك فإنّ الأمم التي تقدم الأضاحي الحقيقية



في سبيل أوطانها لتحفظ شخصياتها ووجودها. وقد وقع ذلك في حربي جنق قلعة والاستقلال.

أمّا وقد أُحجِمَ عن الأضاحي الحقيقية، وقُدِّمت أضاحي ظل الماعز فلن نرى أمامنا سوى ركام الهَمَل.

إنّ التضحية بالنفس من هذه الناحية ليست بضياع ولا تضييع، بل هي سمو ورقي ووجود في الأعلى. فإذا ضحّى الإنسان بنفسه لله ولرسوله، أي إذا فني فيهما، غدا بحراً من الخلود. فليس يخطو بعدها إلا وراء حدود ذلك الفناء، فيدخل فيمن أحبّهم الله. وحضرة مولانا يشير إلى ذلك فيقول:

«اقتل جميع الحيوانات لأجل الإنسان وجميع الناس لأجل عقل ولا تأسف. أي فلتكن الحيوانات قرباناً للناس لأنهم أشرف المخلوقات، وليكن الناس قرباناً للأنبياء لأنهم صفوة الناس».

«أولئك الذين باتوا قرابين، فنجوا من الأفكار ومن ثقل المشاعر وعانقوا النور، ضحّوا بذواتهم في سبيل الله حتى غدوا بحراً من العرفان».

«هؤلاء، عشاق الله، يستعذبون مناياهم إذا فرّ منها الجميع وارتعدت فرائصهم. ولا يقدر الصغار على إيذاء قلوبهم، لأنّ الأذى يصيب القشرة ولا يمسُّ ما حوت من لؤلؤ».

«كلما برقت زخارف الجنان الثماني انعكس ذلك على صفحات قلوبهم وبدت على جنباتها. وإن مكانة من جلسوا في محطة الحقيقة عند الله واتخذوها لأنفسهم سكناً لأعظم من العرش والفرش والكرسي».

«لذلك فأنا الباحث عن العيون التي تبصر الحقائق، أنا قنديل الله ذاك، أنا عبد سيدنا محمد وخادمه».



الأضحية (القربان) فلاح...

كلنا يحافظ على من هو قريب منه حفاظاً شديداً ولا يهمله. لذلك فأولى من ينال شفاعة رسول الله ﷺ من اقترب منه أكثر وضحّى بنفسه له.

والله تعالى يحب من الناس قلب المؤمن الذي ارتبط به كقربان له فيحفظه.

وبتعبير حضرة مولانا:

«ذاك الرجل سلّم عنقه كإسماعيل عليه السلام، واستعد ليكون قرباناً في سبيل الله، لكن الله لا يأذن بذبح تلك العنق».

«فها هم الشهداء أحياء طيّبون لأنهم ضحّوا بأرواحهم في سبيل الله. فعليك ألا تنظر إلى الجسد كعبّاد النار».

إنّ العباد المضحّين بأنفسهم في سبيل الله هم كما ذكر الله في الآيتين الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين من سورة القمر، هم من نال نعمة القرب في مقعد خالد:

«إن المتّقين في جَنَّاتٍ ونَهَرٍ في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ».

وعليه، ينبغي أن يسود شعور التسليم وإحساس القربانية في جميع عباداتنا. وفي الصلاة على وجه الخصوص...

الصلاة والأضحية...

لقد أولى سيدُنا رسول الله ﷺ الصلاة التي هي أكثر العبادات شمولية أهميةً قصوى، فقال مشيراً إلى كيفية أدائها لتقبل عند الله وتكون قرة عين صاحبها:

«**الصلاة قربان كل تقيٍّ**» (الخزاعي، المسند، ١/ ١٨١)

انطلاقاً من هذا الحديث، يقول حضرة مولانا مشيراً إلى العباد القادرين على أداء الصلاة كقرّة عين لهم:



«أولئك إذا شرعوا في الصلاة مكبرين خرجوا من هذه الدنيا ومضوا كالقربان».

ثم ينادي المصلي فيقول:

«وحتى تلحق الركب أنت أيضًا أدِّ صلاتك قائماً في المحراب كالشمعة. ولتعلم أنّ معنى "الله أكبر" التي تبدأ بها صلاتك هو: اللهم إنّا قرابين لديك، متوجهين إليك، مخلفين كل شيء وراءنا برفع أيادينا للتكبير محاذاة آذاننا».

فكما تقول "الله أكبر" عندما تذبح الأضحية تقولها أيضاً عندما تذبح نفسك المستحقة للذبح قرباناً لله ﷻ.

في تلك الأثناء يكون الجسد كإسماعيل والروح كإبراهيم. فعندما تكبّر الروح لتذبح أهواء وشهوات هذا الجسد البدين يتخلص الجسد من الأهواء والأطماع، ويصبح أضحية مع قول "بسم الله الرحمن الرحيم".

يا ذا العقل، إنّ فهم المعيّة في الصلاة أمرٌ ليس العقل بمدركه. ففهم هذا مرتبط بذبح العقل قرباناً للمحبوب وإحياء عالم القلب.

الأضحية (القربان) وتربية النفس...

إنّ القربان هو تربية لقلوبنا تبدأ من تربية نفوسنا، أو بالأحرى هي تربية لعشقنا. فقد قال حضرة الجنيد رحمه الله:

«ضحّوا بنفوسكم، واعلموا أنّ النفس هي حجاب بينكم وبين الله عظيم. وما الحياة إلا في موت النفس».

ويقول حضرة الشبلي:

«لا تحيا الروح حتى تموت النفس، فقد وجد العاشقون أنّ حياة الأرواح في موت الأنفس».



من يضحِّ بنفسه لأجل الحق سبحانه يصِرْ قرآناً...

انظر لمن يقدم المرء نفسه قرباناً تعرف خواصّه وصفاته.

فإن كانت القطرة قد قدمّت نفسها للبحر قرباناً فقد غدت بحراً أيضاً. والإنسان ذو العقل الضئيل مقارنةً بالعظمة الإلهية، إذا استسلم للقدرة اللامحدودة، وللإرادة الإلهية، فسيزدان بالجمال اللامحدود.

ولذلك يقول حضرة مولانا قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ:

«اذبح العقل قربانًا عند المصطفى ﷺ وقل: حسبي الله».

«اذبح العقل قربانًا في عشق الخليل، لأنّ جميع العقول تجدها حيث الخليل. لأنّ مخرج الأرواح والعقول هو الله. لهذا السبب اذبح العقل قربانًا في عشق الله».

«إنّ العاقلين قد أرسلوا عقولهم إلى حيث يوجد خليلهم إلى ما وراء الكون».

«أمّا العقل الذي بقي في هذا العالم فهو العقل الذي لا يعرف الحب، العقل الأحمق الذي لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ».

«أذا أعجبتك عظمة الله وصنعته وجماله وقدرته على الخلق، وذُهِلتَ فذهب عقلك، حينها تصبح كل شعرة في رأسك رأسًا، وتغدو كل واحدة منهن عقلًا».

«في العالم البعيد، وبجانب المحبوب، لا يعاني الدماغ من التفكير، ودائماً ما يسحق الدماغ سهول المعاني ورياضها الماثلة في العالم البعيد، وينتج الأفكا».

«إذا تركت سهول هذه الدنيا الفانية، وبلغت سهول العالم البعيد فستسمع نُكَتًا. فإذا دخلت ذلك الكَرْم فسترتوي غرسة عشقك من ماء الحقيقة، فتنمو أنت وتسمو».

«اسأل عن معنى القرآن من غدا قربانًا عنده وتجردَ من ذاته وخفض جناحه وصارت روحه كعين القرآن».



كرم العاشقين...

أشكال الجود والكرم مختلفة. فالغني يملك مالاً والعاشق روحاً. والجزاء تَبَعٌ للعطاء.

فمن يعطي خبزاً يُعطَى خبزاً، ومن يعطي روحاً يُعطَى روحاً. ويشرح العبارة المتداولة بين الناس "دَيْنُ الروح"، بأنّ تقديم الروح هو قمة العشق. وما أجمل ما يقول الشاعر فضولي:

تقديم الروح للمحبوب كمال العشق
ومن لا يبذل روحه عليه الاعتراف بنقصه
الناس عموماً إذا أعطوا شيئاً يظنون نقصه.

هذا صحيح. حسابياً إذا أعطيت ثلاثة من خمسة يبقى لديك اثنان فيحصل النقص. هو هكذا في العطاءات والانفاقات الدنيوية. فهو استهلاك.

لكن إذا كان العطاء في سبيل الله تعجز الموازين الحسابية. أي كلما أعطيت زاد. وهذا تجلٍّ لقدرة الله تعالى وإحسانه.

وما أجمل ما يشرح به حضرة مولانا هذه الحقيقة حيث يقول:

«إذا تساقطت أوراق شجرة الدلب، فإنّ الله تعالى يمنحها القدرة على العيش بلا أوراق».

«إذا نفد مالك جرّاء الإنفاق والجود، فهل تأذن عناية الله أن تسحقك الأقدام؟».

«نعم يفرغ مخزن من زرع الزروع لكن خير هذا الأمر يبدو في الحقول».

«لكنه إذا لم يُزرَع القمح ولم يُستَخدم لما خُلِقَ له وخُبِّئَ في المخازن فإنّ الحشرات والديدان والفئران وما شابه لتفنيه عن بكرة أبيه».



«ما يخيفنا هو أن شكل بذل الروح ومظهره الخارجي هو الموت. لكن وجهه الداخلي هو الحياة والعيش. فهو في الظاهر نفاد وفي الحقيقة حياة أبدية».

اللهم زيّن قلوبنا بتسليم سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وببركة القربان.

آمين!...





القسم

الفتح المبين

٥

الجانب المعنوي للفتح

لقد تجلّت فتوحات السلطان محمد الفاتح كفتح للقلوب أكثر من كونها فتحاً بالسيوف ومن خلالها عرف العالم معنى الحقوق. لأن فتوحاته كانت فتوحات عُلْويّة مؤيدة بالتأييد الإلهي. هذه الفتوحات العُلْويّةُ فتوحات بَنّاءة مُنْشِئَةٌ مُحْيِيَةٌ، لأن الفاتح وجنوده كانوا يستمدون قوتهم الحقيقية من التطلّع لنيل بشرى إلهيةٍ عبقت منذ قرون بالخصال الروحية كالإيمان والهدى والعدل والرحمة ثم جاشت وثارت مع مرور الأيام.



اللقاء الصحفي الذي أجرته مجلة يوز أقي في شهر آيار من عام ٢٠٠٦ في عددها الخامس عشر تحت عنوان:
"فجر فتح انبلج من العلم والعرفان وحُكْم العالم".

الجانب المعنوي للفتح

يوز أقي: اخترنا سيادتكم في مجلتنا يوز أقي لهذا الشهر (أيار ٢٠٠٦) موضوع " إسطنبول والفتح " موضوعاً للغلاف. فالجانب المعنوي للفتح على وجه الخصوص حقيقة لا يمكن غض الطرف عنها. لأنّ مسألة فتح إسطنبول كانت لقرون عشقاً حياً تنبض به القلوب كغاية مثلى.

إن تأذنون لنا أن ننطلق في حديثنا أولاً من نقطة التوق إلى فتح إسطنبول. متى أشرقت فكرة فتح إسطنبول في العالم الإسلامي وكيف أشرقت؟.

عثمان نوري طوبّاش: لقد بدأت عمليات الفتح المتعلقة بإسطنبول من عهد الصحابة الكرام. فلما عرَضَ سيدنا رسول الله ﷺ كُتُبَه التي كتبها للملوك ليبلّغهم الإسلام، توجه إلى أصحابه وسألهم:

«من يذهب بكتبي هذه إلى ملك الروم وملك الفرس؟».

فقام بعض من الصحابة شديدي البأس وقالوا برغبة عظيمة:

«نحن نذهب بها يا رسول الله».

ولم يتساءل واحد منهم:

«كم من الرجال سيصحبني؟ وكيف سنقطع كل هذه المسافات؟ وكيف سنتجاوز كل هذه الصحاري الحارقة والجبال الثلجية؟».

لأنّ النقطة الأساس المهمة بالنسبة لهم كانت نيل شرف تبليغ كتاب رسول الله ﷺ. وإنّ هذا الشعور وهذا العشق كانا حاضرين أيضاً في حادثة الفتح.



أي أنّ العشق والرغبة في نيل مدح رسول الله ﷺ في حديثه الشريف إذ قال: «**لتُفتَحَنَّ القسطنطينية، فَلَنِعمَ الأميرُ أميرُها ولَنِعْمَ الجيشُ ذلكَ الجيشُ**». (أحمد، مسند، جـ٣١، ص ٢٨٧/ ١٨٩٥٧) وجَّهَ أُفُقَ الفتح لدى المسلمين منذ عهد الصحابة نحو إسطنبول.

وقد تاق أبو أيّوب الأنصاري ﷺ الذي تشرّف بصحبة رسول الله ﷺ وضيافته، لفتح إسطنبول وشارك في الغزو مرتين، وكأنه فتى رغم تجاوزه الثمانين من عمره، وذلك كي يحوز هذا الشرف. وتوفي في المرة الثانية على مشارف إسطنبول، فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

«ادفنوني حيث آخر نقطة تطؤونها في أرض العدوّ، حتى إذا أتى جنود الإسلام من بعدي فيبلغون ما شاء الله أن يبلغوا، فيُبلّغون حقائق الإسلام وخيراته».

فقد أرشد مَن يأتي بعده بجثمانه بمقدار ما أرشد بحياته إلى السبل والأهداف المؤدية إلى الفتوحات. وبهذا شقَّ أبواب الفتح، وكان أول وسيلة لبزوغ شمس الهداية على هذه الأرض.

يوز أقي: سيدي إذا كنا سنذكر الأسباب المعنوية التي أدّت إلى إنجاز الفتح فما هي هذه الأسباب؟.

عثمان نوري طوبّاش: يمكن أن نذكر كثيراً من الأسباب المعنوية. لكن أبرزها وأحقها بالذكر:

١. العشق والرغبة في نيل مدح وبشارة رسول الله ﷺ.
٢. اللياقة التي تؤهل لنيل هذه البشارة.
٣. قيمة علمية وعرفانية تتجاوز العصور وتفتح إسطنبول.
٤. قضية إعلاء كلمة الله ونظام الله العالمي.
٥. الجميع من القائد وحتى آخر نفر مفعمون بروح الفتح.



هذه الأسباب، وما ماثلها من الأسباب المعنوية الأخرى، أنجزت الفتح في عوالم قلوبهم قبل الفتح، وبعدها أمكن الفتح في العالم الظاهر لنا.

يوز أقي: كيف نرى تجلي هذه المواد لدى العهد العثماني؟.

عثمان نوري طوبّاش: كان في ذلك العصر تعظيم واحترام عظيمين للعلم والعرفان. وكان بلدنا أكثر مراكز العلم والعرفان تقدماً في العالم. وكان أكبر علماء وأولياء ذلك العصر يحثّون الخطى من كل أنحاء العالم نحو مدننا.

لذلك كانت تتولى الأيدي الماهرة تربية المجتمع من السلطان إلى أبسط خادم، وبتعبير الفاتح، كانت تُنشَأُ أيادٍ وأفئدةٌ قادرة على أن تخط توقيعها على إنجازات لا يمكن حتى لمخيّلات غيرهم أن تدركها.

باختصار، لقد كانت اللياقة والعشق اللذان يحملهما الأمير والجند الذين فتحوا إسطنبول على درجة واحدة متكاملة. وكانت القوتان المادية والمعنوية متكاملتين يداً بيد.

حيث يعزو السلطان محمد الفاتح خان فتح إسطنبول إلى همم الرجال المعنوية بقدر ما يعزوه إلى الأسباب المادية.

ولذلك كان يومئ إلى بنات الروم اللواتي استقبلنه بنثر الورود بأن ينثرن الورود على شيخه حضرة أق شمس الدين. فكان يريد أن يعبّر عن أنّ هذا الإطراء هو في الحقيقة من حقه، أي من حق رجال المعنويات الذين ساندوه في ظفره.

وقد عظّمَ حضرة أق شمس الدين تعظيماً كبيراً حيث إن قوله لمن حوله يوم فتح إسطنبول جدير بالانتباه:

«إن ما ترونه فيَّ من سعادة وحبور ليس من فتح هذه القلعة، إنما لوجود وليٍّ لله كريمٍ مباركٍ مثل أق شمس الدين في زماني وإلى جانبي...».



يوز أقي: سيدي ما هي الدوافع المعنوية التي عاشها من شهد الفتح؟ هل يمكن شرح ذلك بأمثلة حيّة؟.

عثمان نوري طوبّاش: بالتأكيد يمكن. أولاً كان الموقف الحازم لحضرة أق شمس الدين المتعلق بالفتح مهمًا للغاية. لأنه أدى وظيفة تحمل أهمية قصوى في اتخاذ قرار الفتح من خلال حماسه المعنوي وتبشيره. إضافة إلى أنّ اليأس قد غلبَ الفاتحَ في بعض الأحيان أثناء فترة الحصار الذي استمر ٥٣ يوماً. فكان يخبره مراراً وتكراراً بلهجة قطعية حاسمة بأنّ الفتح سينجز هذه المرة قطعاً، وأبقى على الحماس المعنوي حياً مستمراً.

كما أنّ العلّامة مُلّا جامي بيّنَ بأنّ الفتح قد بلغ مرحلته الأخيرة ذاكراً بالحساب الأبجدي أنّ عبارة ﴿**بلدةٌ طيّبةٌ**﴾ [سبأ: ١٥] الواردة في القرآن الكريم تقابل العام ٨٥٧ (١٤٥٣ ميلادي) فشدَّ بذلك أزر الناس وقوّى عزائمهم.

وحسب بعض الروايات، فقد وقع أثناء الفتح تجليّات معنويّة تُدعى لدى التصوف بالهمة والصرف، وفي كل مرحلة من مراحل الفتح كان هناك علاوة على الدعاء الفائض من القلوب بإخلاص أولياء الله حقاً.

إلى جانب ذلك، كان من أولياء الله القاطنين في بلدان قصيّة من شارك في الفتح معنوياً وجسدياً. وكان أحدهم مثلاً قطب زمانه حضرة عُبَيْد الله أحرار قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ. ويروي حفيده حاج محمد قاسم فيقول:

«فجأة وبعد ظهر يوم الخميس أمر حضرة عبيد الله أحرار بتجهيز فرسه. ركب فرسه وخرج مسرعاً من سمرقند وقال لتلامذته: "اجلسوا أنتم هنا...". فتبعه أحد تلامذته المعروف باسم مولانا شيخ فترة من الزمن. وقال بأنّ الشيخ عبيد الله الأحرار اختفى بعد أن تمايل يمنةً ويَسرَةً على فرسه. ثم عاد حضرة عبيد الله أحرار بعد مدة من الزمن فسأله تلاميذه بحماس عن حكمة هذه الرحلة



المفاجئة. فقال:"طلب السلطان التركي محمد خان العون مني والنصر فذهبت لنصرته، وكان الظفر بإذن الله تعالى..."».

ويحكي لنا الحاج عبد الهادي بن الشيخ عبيد الله الأحرار الذي قدم من خراسان وشارك في فتح إسطنبول فيقول:

«لما ذهبت إلى إسطنبول حدّثني السلطان بايزيد الثاني عن سمت وشمائل والدي عبيد الله الأحرار، فقال: حدثني والدي الفاتح فقال: في أكثر أوقات الفتح شدّةً التجأت إلى ربي وطلبت مدد قطب العصر فجاءني على فرسٍ بيضاء بأوصاف كذا وكذا، فقال لي: لا تخف! فالنصر حليفك....فقلت لذلك الشيخ: إنّ جند الكفار كُثُرٌ.... فتح لي جبّته وقال: انظر ما فيها. فعجبت مما رأيت إذ رأيت جيشاً عرمرماً كالسيل ينحدر من كُمِّ جُبَّته وقال لي: إنّ هذا الجيش أتى لنصرتك.... وتابع قائلاً:

والآن، اضرب طبل الحرب ثلاث مرات من أعلى تلك التلّة وأمر الجند بالهجوم. ففعلت تماماً كما قال، وشارك ذلك الشيخ بالهجوم مع جيشه وأُنجِزَ الفتح المبين...».

والخلاصة، إنّ استفادة الفاتح أثناء الفتح من روحانيات وعون جملة الأولياء هو حدثٌ تاريخيٌ مقيد في المصادر.

كل هذا يُبدي لنا أنّ نصر الله إن جاء غدا المستحيل ممكناً، وتتابعت كل الأسباب الخارقة للعادة بشقّيها المادي والمعنوي برفقة التأييد الإلهي.

يوز أقي: هلّا تحدثونا سيدي عن شخصية الفاتح الذي نال المدح النبوي باعتباره أمير الفتح؟ فلا شكّ أبداً أنّ روح الفتح التي يحملها لعبت دوراً كبيراً في هذا الإنجاز. كيف نتجت هذه الروح؟.



عثمان نوري طوبّاش: هنا يجب أولاً أن نقول ما قاله شيخي المرحوم نور الدين طوبجو:

«لا شك أنّ الفاتح الذي قدّم كل ما يملك وأبدى عزماً وتدبيراً بنقل السفن عبر الجبال لكي ينجز البشارة النبوية ليس بحفيد جنكيز خان وطائفته الذين اغتصبوا البلدان ظلماً وراكموا من الرؤوس جبالاً. بل هو ابن درويش حاكم للعالم زهد في سلطنة العالم وانزوى للعبادة، فلمّا رأى حاجة أهل الإسلام له خرج من معزله في مانيسا وانطلق من جديد على رأس الجيوش فأهدى التاريخ الإسلامي نصر "وارنا" ونصر كوسوفا الثاني».

هذه الناحية مهمة للغاية من جهة إبرازها المهمة التاريخية التي أخذها على عاتقه وتكوينه شخصية على هذا المنوال.

لأنّ الفاتح تلقّى تربيةً خاصّةً جداً في سبيل إنجاز هذه المهمة التاريخية التي أخذها على عاتقه. وإضافة إلى تربية شيوخه، فقد ربّى نفسه على أحسن وجه بمقدار عظم المثاليات التي يتحلى بها. فقد بذل جهوداً كبيرة في تحصيل العلوم إلى جانب تعليمه العسكري. وقد أعدَّ نفسه على جميع الصعد، ففي الوقت ذاته نضج معنوياً بتلقيه التربية القلبية من أولياء الله. وكان التأثير المعنوي لحضرة أق شمس الدين على وجه الخصوص على الفاتح وعونه له كبيراً جداً. كما أنّ لحضرة أبي الوفا في تربيته دوراً لا يستهان به. فقد أبدى بصيرة وحكمة عظيمتين في تنظيم حياة الفاتح، وفقاً للمهمة التي أخذها على عاتقه. من أجل ذلك، تجنّب طوال حياته لقاء الفاتح وضَمِنَ ألا يبلغ الجانب الإداري لديه مبلغاً يُضعِفُ فيه قلبه المتعلّقَ بالتقوى. ويبيّن هذه الحقيقة للفاتح –الذي طلب بشدة لقاءه– بقوله:

«لدى سلطاننا الفاتح قلب رقيق وفيّاض. فإذا قابلني وتذوق اللذة التي في عالمنا فلن يرغب عنها، ولن يعود إلى إدارة الدولة... لكن هذا الملك وهذه الأمة



أمانتان في عنقه. فإن لم يأت شخص بلياقته يسدّ مكانه فسيتأذّى الملك والأمة. ويناله وينالني الإثم. نحن ندعوا لسيدنا السلطان من هنا ونتوجه إليه... وقلبه في قلبنا...».

لقد غدا الفاتح بتأثير جميع هذه الشروط إلى جانب كونه حاكماً مقتدراً رجل علم ذا دراية، وجندي قلب ذا حياة قلبية. وقد كافأته الأقدار على نشأته بين العلم والحضرة مكافأة عظيمة فمنحته لقب الفاتح، وهو في سن الشباب اليافع.

باختصار، ومجدداً كما قال شيخي نور الدين طوبجو:

«إنّ شخصية الفاتح مزيج خارق من حُكْم العالَم والعلم والعرفان».

فإذا ما أضيف إلى هذا المزيج عنصر العدل، فسنرى أمامنا شخصية ممتازة سامية ذات إحاطة بتأسيس نظام العدل في العالم.

ويظهر مدى كون الفاتح رجل دولة ذا فراسة من خلال الدستور الذي أعدّه. فقد اشترط في دستوره مثلاً أن يتزوج الفاتح من الفتيات المشهود لهنّ في عفتهن ونسبهن الناشئات في مدرسة الأندرون لا من فتيات عوائل الأمراء.

لقد راعى في تدبيره هذا مصلحتين مختلفتين، أولاهما أن تكون نساء السلطان، وبالتالي أمهات السلاطين من اللواتي تلقين تربية ممتازة، ثانيتهما الحيلولة دون تدخل عائلة غير آل عثمان في شؤون الحكم، وذلك لأنّ غالبية هذه الفتيات ليس لهن أحد.

يوز أقي: إن كنا سننتقل من هنا إلى المدينة الهدف للفتح المبين، فلماذا إسطنبول؟ ما السبب في كون إسطنبول مدينة مركزية في بشرى الفتح؟.

عثمان نوري طوبّاش: هنا علينا التفكير في السببين معاً، أي المكانة المادية والمكانة المعنوية. لأنّ إسطنبول بالنسبة لكلا السببين جسرٌ لا مثيل له. فهي



فريدة بخاصيتها الجغرافية والتجارية التي تربط بين القارات، وبتميزها كونها مدينة للثقافة والفن والعرفان. إذ أنّ الشاعر نديم من هذه الناحية يُشَبِّه إسطنبول بالجنة في قوله:

أتحتها أم فوقها جنة العلى

فيا لها من حال رائعة

ويا لعذوبة مائها وهوائها

وبالطبع، إنّ السبب المعنوي الأساس يأتي أولاً. لأنه في مفهومنا تكتسب الأسباب المادية قيمة تبعاً للأسباب المعنوية. فإذا فقدت المعنويات فليست الماديات تعني شيئاً. فقد أظهر التاريخ أنّ الدنيا حكمت بالعدل طوال ٤٠٠ عام من إسطنبول، فمنها تم تحديد جغرافيا الدول، ومنها عُيِّنَت الملوك على البلدان. وكان كلام السلاطين ورسائلهم تحدد مجرى التاريخ. وما أجمل ما صوّر به الشاعر هذا البهاء لما قال:

جرت القرون من حيث خطّت يدي

وبلغت آثار فرسي المغرور القارات الثلاث...

بينما يجتاز تلك الهضاب والوديان عَدْواً

نظري لجلالة أعظم ملوك الأرض

هو محض عناية وكرم وفضل

فإكليلها هبتي وأقاليمها عطائي...

وإنّ حلمي خنجر والأقوام له غمد

والأرض امرأة مولهة بي عاشقة أمري...

أمنح أعصابها التناسق الذي يهواه قلبي

وأضفي عليها الشكل واللون الذي رمت...



يوز أقي: إذاً ما هي الفروق الحاصلة بين إسطنبول ما قبل الفتح، وإسطنبول ما بعده؟.

عثمان نوري طوبّاش: قبل كل شيء، وانطلاقاً من الدلالة الأخرى لكلمة الفتح، فإنّ إسطنبول الموصد بابها عن جميع الخيرات والعاجزة عن الإتيان بقفزة هدى نحو المستقبل؛ فُتِحت على آفاق الجمال والعدل.

أي أنه، وقبل الفتح كان يسود البيزنطيين أزمةٌ وضيقٌ رهيبان. وكان الشعب ضجراً مما يصيبه من أذى ومضرات لا هوادة فيها. وكانت الأزمات الاجتماعية والسياسية قد بلغت أوجها. وكانت إسطنبول قد غدت مجرد بقيّة بالية من الإمبراطورية البيزنطية التي أُسّسَت على الظلم، وباتت تعاني النزع وتقاسي سكرات الموت.

وجراء هذا الوضع، تشكل بين الشعب ميل قويّ للدخول تحت حكم المسلمين-الأتراك العادل.

كما أن القادة البيزنطيين أرسلوا إلى روما يطلبون العون منها على العثمانيين، فلما اشترط البابا على البيزنطيين، وهم أرثوذكس، أن يؤدوا قدّاساً في آيا صوفيا على الطريقة الكاثوليكية، ضجَّ كثير من رهبان الأرثوذكس والشعب وعارضوا ذلك بشدة. حتى أنّ نوتاراس الذي هو من أُصلاء البيزنطيين لم يحتمل ذلك، ونطق هذه العبارة التاريخية:

«لأن أرى العمائم التركية في إسطنبول أحب إليّ من أن أرى فيها قُبّعات الكاردينال».

وهذا دليلٌ جليٌّ على أنّ الجانب المعنوي لنور العدالة لدى العثمانيين قد هيّأ بيزنطة للفتح قبل فتحها بكثير.



وقد أثبت الفاتح سواءً قبل الفتح أو بعده أنه رمز للعدل من جميع الجهات.

وقد اعترف بذلك حتى الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين، وسمّى الفرنسيون الفاتح لقب "السنيور" الذي يعني "سيد العصر".

لقد أولى الفاتح بسط العدل والحق في إسطنبول أهمية كبرى ومنح الأقليات فيها حقوقاً. حتى أنه أعان فقراء الشعب من غير المسلمين. وإلى جانب تبليغه الدين المبين بأفضل شكل من خلال الإجراءات العادلة، وتأمين الاستقرار في حياة المجتمع، ومن خلال الصروح العمرانية البارعة في الجمال التي تبدي رفعة الإسلام وعظمته، فقد منح المسيحيين الحرية الدينية.

يوز أقي: ما هي المكانة التي حازتها إسطنبول بخصائصها هذه، وبخصائصها الأخرى في العالم الإسلامي بعد الفتح؟ وبأي هوية من هوياتها تميّزت؟.

عثمان نوري طوبّاش: ما إن فُتِحَت إسطنبول حتى غدت إلى جانب موقعها الجغرافي مركزاً للعلم والعرفان والفن والحضارة، والتي هي أولوية الدولة العثمانية، وتحتل فيها موقع الريادة. ولم يرفض الفاتح في هذا الإطار أية حضارة، فوضعها جميعها إن صحَّ التعبير في خَلّاطه، وخرج بحضارة هائلة جِدُّ حديثة. وقد أتت لنا هذه الحضارة بمعرض للظرافة والنقاء والجمال. وفي هذا الجو نشأ سنان، فأتى على آيا صوفيا فمسح فظاظتها، ورقَّقَ كل بقعة فيها من أروقتها وحتى قُبَّتِها وجمَّلها بمآذنها أيضاً. وبهذا، عَكَسَ بنية الإسلام وبنية قلب المؤمن على الهندسة.

فقد جمع الفاتح لبناء حضارة كهذه رجال العلم وأرباب الحِرَف من جميع أنحاء العالم إلى إسطنبول. فقد دعى إلى إسطنبول من آسيا الوسطى تلاميذ أولوغ بيك وعلى قوشجو وأمثالهم من رجال العلم والفن المتميزين من البلدان



الأخرى، وعرض عليهم إمكانات كبيرة فأضاف أفقاً إلى آفاقهم. وبهذا جعل إسطنبول مركزاَ ضخماً وأساسياً.

لم تصبح إسطنبول في النتيجة عاصمة الدولة فقط، بل أصبحت عاصمة الثقافة والهوية والفن والعلم والتقنية، أو بالأحرى أصبحت عاصمة العالم.

استمر هذا النفير العلمي والفني والثقافي الذي بدأه الفاتح بنفس البهاء على يد ابنه بايزيد الثاني، ومن خَلَفَهُ من السلاطين. وإنّ النظرة الثاقبة البعيدة في العلم والفن لدى بايزيد الثاني على وجه الخصوص تركت لدى حضارتنا بصمة متميزة غاية التميّز، وأكدت ملكيّتنا لكل ذلك. حيث أنَّ؛

المعمار والرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دافنشي أرسل كتاباً لبايزيد الثاني يعرض فيه عليه أن يضع هو بنفسه مخططات ومشاريع المساجد والصروح الأخرى في إسطنبول، فأثار ذلك السرور بين وزرائه.

أما بايزيد خان الثاني صاحب الشعور والإحساس الصوفي العميق الدقيق فقد رفض ذلك العرض وقال:

«إذا قبلنا بهذا فسيحكم في بلدنا من ناحية الأسلوب والروح العمران المقلد لعمران الكنيسة، ولا يمكن حينها لعمراننا الإسلامي أن يتطور، ولا أن ينشئ شخصيات معمارية...».

إن هذه الرؤية لتعبر عن أفق مسلم عاقل ذي فراسة ومن أهل القلوب، فكما بلغت رقعة العالم الإسلامي من بعد بايزيد الثاني أربعة وعشرين مليون كيلو متر مربعاً، فكذلك بلغ الفن الإسلامي ذروته. وبفضل هذا الفهم نقشت روح الإسلام هندسياً، وأنشئت سلسلة الرموز والصروح التي تستطيع حماية قيمته إلى يوم القيامة مثل السليمانية وما شابهها.



إنّ إسطنبول سواء بنسيجها التاريخي وهويتها الثقافية، وعلى الرغم من كل شيء، تمثّل اليوم أكثر متاحف الحضارة الإسلامية-التركية قيمةً. كما أنه لا يزال الحجاج الذين ينوون الحج يزورون من مختلف البلدان الإسلامية إسطنبول، وأمانات النبي ﷺ الموجودة في قصر طوب قابي، ويزرون كذلك حضرة السلطان أيوب. فكثير من الحجاج، وإلى اليوم يمرّون على إسطنبول، إما قبل الذهاب إلى الحجاز أو في عودتهم منها. فهم يحافظون على ذلك كتقليد تاريخي وروحانيّ.

يوز أقي: سيدي كيف يجب أن يُفهَمَ فتح إسطنبول اليوم؟ وماذا يجب أن نستفيد من هذا النصر؟.

عثمان نوري طوبّاش: كان شيخي المرحوم عبد الرحمن شرف غوزال يازيجي يقول:

«إنّ هذا النصر المقدس الذي فتح لقلوبنا آفاق حياة جديدة لهديّة إلهية خاصّة بالأتراك من فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ».

إنّ هدية كهذه هي لا شكّ أمانة روحية مقدسة في أعناقنا تركها لنا أجدادنا. فإذا علمنا ذلك أدركنا جيداً مدى عظمة قيمة هذه المدينة التي نعيش فيها.

ويجب ألا ننسى أنّ قيمة فتح البلدان، والمدن تبعٌ للغاية التي فتحت لها.

فالفتوحات الهادفة لإعلاء السيف، الذي هو مادياً مجرد قطعة حديدية، هي فتوحات وحوش النفوس أعداء الروح، وفتوحات الأطماع والشهوات هي فتوحات تمثل الجانب الحيواني والسفلي لدى الإنسان.

وحركات الفتح هذه ليست إلا هدماً للإنسانية. لكن حركات الفتح التي تهدف لسموّ الأرواح وتوجّه القلوب لله تعالى والمعجونة بالإيمان الناضجة بنار العشق؛ فتوحات عُلويّة مؤيّدة بالتأييد الإلهي.



إنّ هذه الفتوحات العُلويّة فتوحات بنّاءة. فتوحات منشئة ومُحْيِيَةٌ. وفتح إسطنبول هو من جملة هذه الفتوحات.

كانت القدرة في معصم الفاتح الذي يمسك به السيف تستقي من أسرار العلم والعدل الإلهية وتفتح أبواب السلام والسعادة للإنسانية.

والقصد أنّ الاعتقاد بأنّ إنجاز الفاتح هو مجرّد فتح البلدان فقط لخطأ جسيم.

يوز أقي: إذاً سيدي ما هو الأفق الذي يشكّله لنا فتح إسطنبول من ناحية المستقبل إلى جانب كونه نصراً تاريخياً وفوزاً لا يمكن نسيانهما؟.

عثمان نوري طوبّاش: إنا مكلّفون بفهم ميراث الفاتح فهماً سليماً، والحفاظ عليه مع ما يحمله من قيم مادية ومعنوية حفاظاً لائقاً. لذلك فنحن محتاجون دائماً لفتح أبدي. وعلينا أولاً أن نحقق هذا الفتح في أرواحنا، وأن ننفتح على العالم بهذه الروح.

ثمَّ إنَّ بشرى الرسول ﷺ ليست مقتصرة على إسطنبول. فقد بَشَّر نبيّنا ﷺ بفتح روما (روميّة). ولا تزال هذه البشرى غاية ماثلة أمامنا لمّا ندركها. ونفهم من قيام الفاتح بإرسال غديك أحمد باشا إلى أوترانتو رغبته في نيل هذه البشرى أيضاً. وأوترانتو اليوم تشكل على خارطة إيطاليا التي تأخذ شكل الجزمة جزء الكعب من الجزمة. وبقيت تحت حكم العثمانيين لفترة.

لقد تحققت بشرى سيدنا رسول الله ﷺ بعد مرور ٨٥٢-٨٥٣ سنة، وقد مر اليوم على فتح إسطنبول ٥٠٠ عام ونيّف.

ويمكن أن نشعر من بشرى الفتح الثانية هذه ببشرى إسلام أوروبا. وستكون الجهود المخلصة الصادقة المبذولة اليوم إن شاء الله بذرة لهذه الغاية في المستقبل.



ولكونها بشرى نبوية فهي برنامج قدريّ وله موعده. فإذا جاء موعده فسيقع إن شاء الله. ونأمل أن يكون إخواننا المسلمون في أوروبا وسيلة خيّرة لينهل الغرب من شمس الهداية.

يوز أقي: نريد هنا سيدي أن نلفت الانتباه نحو نقطة أخرى، ما هو السبب الذي ترونه كامناً وراء كون الفتح من نصيب الفاتح وجنوده، وعدم كونه من نصيب من سعى قبلهم للفتح؟.

عثمان نوري طوبّاش: لقد اقتضى نضج الشروط التي أمكنت من الفتح انتظار ٨٠٠ عام ونيّف. لكن هذا الانتظار ليس انتظار عطالة بل هو انتظار حركة وعمل. فقد كان الفاتح وجنوده يستمدون قوتهم الأساسية من عشقٍ تراكم على مدى قرون، عشقٍ جيّاشٍ ازداد مع مرور الأيام. فقد بلغَ التوقُ للفتح العُلْويِّ الذي فاض في آلاف القلوب المؤمنة ببشرى النبي الكريم ومدحه ﷺ درجةً غدا فيها انتقال الفتح إلى مرحلة الظهور ضرورة لازمة، حالُه في ذلك حالُ سَحَابٍ ثِقالٍ بلغ حداً أعظمياً من الإشباع لا يستطيع معه إلا الإفراغ.

فإذا انتقلنا إلى الأسباب الظاهرية نجد أنّ الفاتح مستعدٌ ماديّاً ومعنوياً لهذا الحدث على وجه يمكن أن يقال أنه مُتقنٌ عالٍ.

ذات ليلة، رأى الملا غوراني غرفة الأمير الذي لا زال في الرابعة عشر من عمره منارة فقال له: «ماذا تفعل يا بنيّ؟».

فأجابه الأمير الشاب قائلاً: «إنّي أدرس يا شيخي».

فنظر شيخه، فوجد أن دروسه التي يطالعها هي مشاريع وخطط فتح إسطنبول.

من هذا نفهم أنه؛



لا يمكنك أن تنال شيئاً دون أن تبذل له نفسك. فإذا اعتنى الزَرَّاعُ بالبذرة التي غرسها فستعطي البذرة برعماً وينمو البرعم ليصبح شجرة. ويتشكل من البذور التي تسقط من الشجرة غابة كبيرة.

وإنا نرى في جيش الفاتح بذل النفس هذا ذاته. حتى أنّ الجنود كانوا أثناء الفتح يتسابقون على الصفوف الأمامية من أجل القتال، وكانوا يستهمون على ذلك. وكانوا يتسابقون إلى أسوار إسطنبول يتسلقونها من بين حمم اللهب، يقول لسان حالهم: "اليوم يومنا للشهادة".

يوز أقي: سيدي كيف أُسِّسَت روح فتح كهذه؟ وما الذي يجب أن تعبّر عنه هذه الروح من أجل أبناء الجيل في تربيتهم؟.

عثمان نوري طوبّاش: هذا الأمر مهم للغاية. فإنّ تنشئة شباب يحمل الروح التي تحلى بها الفاتح وجيشه هي واحدة من أكثر مسائلنا مصيرية في هذا العصر.

ينبغي هنا ألا نغفل عن العناية التي أولاها الفاتح للتعليم والتربية. فكل الغايات المثلى إنما تدرك بقوة الإنسان المُنشَأ.

فقد كان همُّ الفاتح هو تنشئة الإنسان. فقد خصص أكبر ميزانية لأنشطة العلم والفن. وهذه الحادثة معبّرة للغاية:

كان السلطان محمد الفاتح خان يناقش مع وزرائه شأن الميزانية. وكان المبلغ الذي خصصه للمدارس هائلاً للغاية. فلما اطلع وزير المالية على هذا المبلغ ذُهِلَ وأصابه سكوت مطبق. فقال له السلطان محمد الفاتح صاحب الفراسة والبصيرة الذي لاحظ موقفه:

«حضرة الباشا، لماذا لا تتكلمون مع أن الذي من المفترض أن يتكلم في شأن الميزانية هو وزير المالية؟».



فردّ الوزير على السلطان محاولاً إخفاء حاله بقوله:

«أستفيد يا حضرة السلطان...».

فأشعره الفاتح بأنه مطلع على تفكيره بقوله:

«حضرة الباشا، لقد وجدتم المبلغ الذي خصصته للمدارس كبيراً على الأغلب...»، فقال الوزير مضطراً ومبينا سبب صمته:

«نعم يا حضرة السلطان لقد خصصتم لمجال التعليم مبلغاً أكثر من اللازم، في حين وجود احتياجات كثيرة في البلد لا حصر لها...».

فقال السلطان الفاتح ذو الفراسة الذي أراد ألا يستاء وزيره من جهة، وأن يحلّ الموضوع من جهة أخرى بأسلوب هادئ ومقنع:

«حضرة الباشا، إنّ لكل مهنة خسارة، وإنّ خسارة مهنة العلم أكثر من غيرها بكثير. لأنّ النبي ﷺ يقول: «**العلماء ورثة الأنبياء**». وإنّ وراثة الأنبياء مقام لا يُحصَّل بهذه السهولة. وخسارة مهنة العلم من هذه الناحية كبيرة جداً بالنسبة للمهن الأخرى. إني أرى المهن الأخرى كالتالي. إذا جعلت قماشاً أسوداً رصاصياً أو بنيّاً في ماء متسخ فلا أجد بأساً في أن أجعله عمامة إذا جفّ. وذلك لأنّ الأوساخ لا تظهر فيه. لكن هل يمكن أن ينطبق ذلك على شاش أبيض؟ لا، فالأوساخ تبدو فيه إن حطت عليه ذبابة، فضلاً عن أصابته من ماء متسخ. ومهنة العلم كذلك».

وتوجه للوزير يسأله:

«حضرة الباشا، كم من الطلاب ينشأ من بين مئة طالب نوفر لهم إمكانات الدراسة؟ أيخرج من بينهم ٣-٥ رجال؟».

«نعم يا حضرة السلطان يخرج هذا العدد بالتأكيد... لكن ما الفائدة المجنية من هذا العدد؟».

فابتسم السلطان ابتسامة بليغة، وقال:

«حضرة الباشا، أتعلم كم من الناس ينور ويربّي هؤلاء الأشخاصُ القليلون...».

طأطأ الوزير واعترف بهذه الحقيقة قائلاً:

«نعم يا حضرة السلطان هذا صحيح».

عمَّ سرور عظيم قلب الفاتح الذي حلَّ المسألة بسهولة بفضل البصيرة والفراسة اللتين يتحلى بهما، وقال للوزير:

«حضرة الباشا، بما أنه ينشأ في مدارسنا أناس حقيقيون، ولو كانوا ٣–٥ طلاب من أصل مئة طالب ينورون الشعب، فعلينا أن نرضى كرامة لهؤلاء برعاية البقيّة الذين يمكن أن نعتبرهم خسارة...».

وهنا يكمن باختصار الأساس المعنوي لروح الفتح لدى أجدادنا ولنجاح الفاتح.

كانت هذه الروح أعظم مانعة صواعق لشعبنا ووطننا منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا.

وكم من الانتصارات أكسبتنا هذه الروح حتى في الأوقات التي نفدت فيها قوتنا المادية. فها هي حربا جنق قلعه والاستقلال، فعلى الرغم من تزامنها مع أضعف أحوال شعبنا ووطننا من الجهة المادية، إلا أننا استطعنا القضاء فيهما على أعدائنا بفضل هذه الروح أي بفضل قوتنا المعنوية.

وفي المُحصِّلَة، لو فرّطنا بكل ما نملك فإنّ أعظم قوّة ينبغي لنا عدم التفريط بها هي هذه الروح. لأنّ الروح التي تحافظ على شعبنا ووطننا حيَّيْن، والتي تجعل رايتنا خفّاقة في الآفاق حرّة، هي هذه الروح. ويجب ألا ننسى أنّ المعنويّات



إذا استقت من إرادة قوية راسخة فهذا يعني أنّ الغد يحمل في طيّاته فتوحات عظيمة، ونتائج خيّرة في العلم والعرفان والفن والثقافة والعقل والقلب.

يوز أقي: نشكركم سيدي على هذا الحوار الجميل الذي قدمتموه من جو الفتح المليء بالمعنويات.

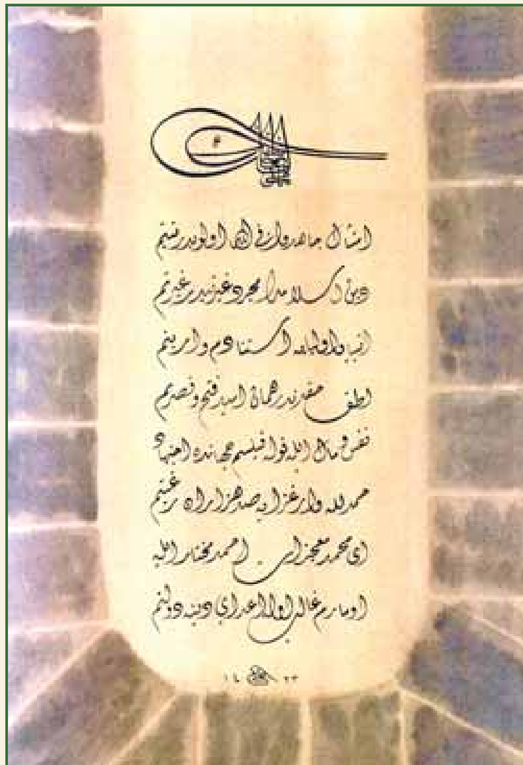
عثمان نوري طوبّاش: ونشكركم أيضاً... وأتمنى النجاح لمجلتنا التي تقدم أعمالًا تبيّض الوجه في أدبنا وشعرنا وتاريخنا وثقافتنا وفنّنا. وفقكم الله...





روح الفتح

إن روح الفتح التي اشتمل عليها قلب السلطان محمد الفاتح نبيلةٌ وعظيمةٌ ومتألّقةٌ بمقدار نبل وعظمة وتألّق الفتح الذي أنجزه، بل هي أهمُّ منه



شعر الفاتح خان الذي حكى فيه سبب قصده وجهوده

الشعر الذي في الصورة قراءته ثم شرحه

امتثال جاهدوا في الله أولوبدر نيتيم
دين إسلامك مجرد غيرتيدر غيرتيم.

أبنياء و أوليادن استناديم وار بنوم
لطف حقدن در همان أميد فتح نصرتوم.

نفس مال ايله نولا قلسام جهانده اجتهاد
حمد لله وار غزايه صد هزاران رغبتوم.

أي محمد معجزات أحمد مختار ايله
أوماريم غالب أولا أعداي دينه دولتوم.

«نيتي هي اتباع أمر الله القائل: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ومسعى دين الإسلام النقي هو مسعاي».

«إنّ استنادي على الأنبياء والأولياء. وأملي بالفتح والنصر دائماً من الله»

«فلو أني أعمل في سبيل الله بمالي ونفسي في هذا العالم بلا توقف. لأني والحمد لله أحمل دائماً في قلبي رغبة الغزو في سبيل الله ﷻ».

«يا محمد صَلَّى الله عَلَيْك وَسَلَّمَ آمل ببركة معجزات وصفك بـ "أحمد المختار" أن تنتصر دولتي على أعداء الدين».

روح الفتح

روح الفتح والفاتح...

إنّ أول فكرة تساور المرء عند ذكر فتح إسطنبول هي روح الفتح.

لأنّ دور السيف في الفتوحات يقتصر على كونه وسيلة.

فالفتح الأصل هو فتح القلوب، وهو ما نسميه روح الفتح.

فقد حاز محمد الثاني بهذه الروح لقب الفاتح.

أي أنّ العامل الذي منحه صفة الفاتح التي لازمته حتى أنستْ أنّ اسمه محمد هو عالَمُ قلبه المفعم بالفتح.

إذا نظرنا إلى التاريخ نجد أنّ الغزوات والانتصارات الظاهرية التي حققها من حُرِمَ من عالَمِ القلب هذا لم تُكسبه في أي وقت من الأوقات مرتبةً كهذه. فلم يدعُ أحد مثلاً أتيلا أو جنكيز أو هولاكو بالفاتح. ولم يطلق على ما قاموا به فتحاً أبداً. فانتصاراتهم هي مجرّد ريٍّ للتراب بالدماء.

لذلك، فإنّ روح الفتح التي اشتمل عليها قلب السلطان محمد الفاتح نبيلةٌ وعظيمةٌ ومتألّقةٌ بمقدار نبل وعظمة وتألّق الفتح الذي أنجزه، بل هي أهمُّ منه.

وعليه، فما الذي لا نراه في روح الفتح العظيمة تلك التي تحلّى بها الفاتح!...



العلم والحضارة...

نلحظ لدى هذا الفتح أولاً قفزة علم وحضارة سبقت عصرها. قفزة علم وحضارة ليست هدّامة أبداً بل هي بنّاءة ومعطاءة ومنشئة. لذلك فهي لم تهدم الحضارات حتى حضارة البيزنطيين، ولم تخرب ولم تحرق. بل على عكس ذلك قامت بتذويبها داخلها... بالنتيجة، شكّلت حضارة مختلفة جداً حضارة فريدة رائعة. وكم من رجال علم مثل علي قوشجو وتلاميذه أُحضِروا إلى إسطنبول من آسيا الوسطى والبلدان المختلفة. وتحولت إسطنبول بهم إلى مركز علمي عالمي.

فغدت إسطنبول من خلال الأوقاف المنشأة بؤبؤ عين العالم معنوياً بقدر كونها بؤبؤ عينه مادياً.

العدل...

أمّا العدل المُقام ظاهراً وباطناً فقد حمل هوية عُلويّة فريدة لدرجة أذهلت العالم الخارجي أي غير المسلمين والأتراك...

حيث إنه:

أعلن الفاتح بعد فتح إسطنبول عفواً عامّاً وأطلق سراح البيزنطيين المحكومين. وكان من بينهم قسيسان فيلسوفان عالمان. فسألهما الفاتح عن سبب حكمهما فقالا:

«كنا أبرز قساوسة البيزنطيين فحذَّرْنا الملك لظلمه وتعذيبه وسفاهته وتعسّفه، وأخبرناه أنّ عاقبته وخيمة وأنّ الانهيار قريب، وأن دولته ساقطة. فغضب لتحذيرنا ورمانا في السجن».

لفتت هذه العبارات انتباه الفاتح فسألهما عن آرائهما في الدولة العثمانية. فقالا بأنهما سيصرّحان بذلك بعد فترة من الزمن.



جال القسيسان بكل براءة في كل مكان، فدخلا على بقال في ساعات الصباح الباكر يريدان أن يشتريا شيئاً فقال لهما البقال:

«لقد استفتحت فبعت واشتريت. اذهبا إلى جاري الذي لم يستفتح بعد فاشتريا منه».

تجولا كل الأماكن من أكثرها ازدحاماً إلى أكثرها هدوءً وانعزالاً، وتحدثا مع الجميع، فشاهدا أحوال جميع الناس والتي لا تبدي إلا الخير ورقي الأخلاق.

دخلا سوقاً أثناء الأذان، فكان الباعة يذهبون إلى المسجد دون أن يقفلوا محالّهم، فلا أحد يحسد أحداً، ولا أحد يجد في صدره شيئاً على الآخر. وكأن الجميع تحت ضمانة الجميع. وكان الكل يؤدون صلواتهم بخشوع وكأنها صلاتهم الأخيرة.

لم يكن أحد يأكل حق أحد، ولا أحد يغش أحداً. لم يكن أحد يريد أن يقبل على المولى يوم القيامة وفي عنقه حق من حقوق العباد. كان الجميع بلا استثناء يطلب رضا الله. فيتحدث من أجل الله ويعيش من أجل الله. كانوا يدعون بطول عمر السلطان، وانتصار جيشه. وكانت المجتمع يعجُّ بمن سَمَت روحُه ورَقَّ قلبُه.

ذُهِلَ القسيسان مما رأيا. فمع أنهما تجولا كثيراً من المدن إلا أنهما لم يقفا في المحاكم على قضيّة ثقيلة. كانت السرقة والقتل والاغتصاب والاحتيال مجهولة تقريباً. وقد لفتت محاكمةٌ انتباههما بشدة. فعجبا لذلك كثيراً.

دخل على سيادة القاضي خصمان. فأدلى المدَّعي دلوه فقال:

«محسوبكم يا سيدي اشترى أرض أخيه في الدين فلان. فبينا أحرث الأرض لأزرعها عثرت على جرة مليئة ذهباً. فأخذت الجرة وذهبت بها إلى أخي هذا الذي اشتريت منه الأرض. فقلت له: تفضل، هذه لك، خذها. فلم يقبلها، وقال: لقد بعتك هذه الأرض بظهرها وبطنها!... فليست تَحِلُّ لي بعد ذلك!....



مع أنه لو عَلِمَ بوجود هذه الجرة المغمورة لما باعها. فطلب القاضي من الشخص الآخر الكلام فقال:

لقد حدث الأمر تماماً كما حكاه أخي. وأعتقد أني لما بعته الأرض فقد دخل في البيع ظهرها وبطنها. فكما لا أملك حقاً في المحصول الذي على ظهرها فلا أملك حقاً في بطنها أيضاً...».

كانت تلك الحادثة التي شاهدها القسيسان تفوق معجزة طبيعية بالنسبة للقاضي. فهذا بالنسبة لمجتمع عاش الإسلام بحق أكثر الأمور اعتياديةً.

لم يشقَّ على القاضي الحكم في هذه القضية بين هذين المسلمين الحقيقيين. فلما علم بوجود ولد صالح لأحدهما وفتاة صالحة للآخر توسّط بينهما وعقد نكاح الطرفين برضاهما، وجعل جرة الذهب تلك في نفقات العرس وجهاز العريسين.

هنا كان يعرض فهم وعدل الإسلام بشكل تطبيقي.

حساسية العفة والشرف...

بعد أن تجول القسيسان ورأيا ما رأيا أرسلا فتاتيهما عند حلول الظلام إلى مدرسة.

قالت الفتاتان لمن فتح الباب من الشباب:

«لقد حل الظلام وأضعنا طريقنا. هلّا تضيّفونا هذه الليلة؟ فلا حيلة لنا...».

فكّر الطلاب وتشاوروا فيما بينهم، وفي النهاية أعطوا الفتاتين غرفتهم وجعلوا بينهم وبينهما ستاراً وباتوا ليلتهم إلى جانب المجمرة. ولما حلَّ الصباح ودعوا الفتاتين.



سأل القسيسان بلهفة فتاتيهما كيف مرت ليلتهما. فحكت الفتاتان ما جرى كالتالي:

«تركوا أماكنهم لنا، وانحازوا إلى طرف الغرفة، وكانوا يقبضون على الجمر الذي في المجمرة التي وضعوها وسطهم ثم يرسلونه. وكان يقولون فيما بينهم: أعاذنا الله من عذاب جهنم، ولا جعلنا من الحمقى الذين يبدّلون بالخلود لحظة عابرة. حتى أنهم لم يكونوا يلتفتون لنا أو ينظرون إلينا...».

يُبدي لنا هذا المثال أنّ العفة والشرف في الدولة العثمانية راسخين رسوخاً متيناً. وهناك أمثلة كثيرة. مثلاً، الأمر الذي أصدره الفاتح عقب فتح البوسنة والذي يقول فيه:

«فليحذر الجند من التواجد عند مورد المياه إذا أتت فتيات الصرب ليَرِدْنَ». هو صورة أخرى من صور رسوخ العفة والشرف لدى الإمبراطورية.

والفاتح أصدر أمره هذا حرصا على عفة جنوده وعلى عفة فتيات الشعب النصراني لأنه تحت ضمانته.

لم يستطع القسيسان المكلّفان بتجوال الدولة العثمانية ومشاهدتها إلا أن يزورا أحياء النصارى.

خرجا يتجولان نحو حيٍّ فنر. فوجدا أنه حتى النّصارى قد تغيّروا مقارنة بفترة ما قبل الفتح التي خبروها جيداً. وقلّت الأوساخ في الطرقات. ولم يعد أحدٌ يجرؤ على ظلم أحد. والكل يعيش حياته مستقراً. ولا أحد يشرب في الطرقات حتى الثمالة، مثل ما كان في الماضي. حتى أنه وزعت بيوت على فقراء عوائل النصارى.



هذا الشعب لا يسقط...

أخذ القسيسان الإذن للدخول على الفاتح، ودخلا عليه بعد هذا التدقيق والتفتيش الطويلين، وحدّثاه بما شاهدا ثم قالا:

«إذا استمر هذا الشعب وهذه الدولة على ما هما عليه فسيبقيان إلى يوم القيامة. وإنّ دين من يعيش هذه الحياة ويتحلّى بهذه الأخلاق هو بالتأكيد دين حق».

ونطقا الشهادتين وأسلما.

وقد حدثت حوادث فيما بعد على عهد الفاتح لا مثيل لها في التاريخ من جهة العدل ولا نظير. إحداها:

لم يُرَ عدلٌ كهذا العدل...

كان الفاتح بعد فتح إسطنبول قد قطع يد معمار نصراني أدّى وظيفته بخلاف أمره.

كان خضر بيك قاضي إسطنبول أكثر صديق مقرّب لدى الفاتح، والفاتح كان قد عيّنه على قضاء إسطنبول.

ذهب المعمار النصراني الذي قُطِعَت يده إلى القاضي خضر بيك واشتكى إليه على السلطان الفاتح. فاستدعى القاضي السلطانَ الفاتح بصيغة استدعاء تستخدم مع أي إنسان من الرعيّة بأن:

"محمد بن مراد، احضر إلى المحكمة بالساعة الفلانية!". في حين أنّ صيغة مخاطبة الفاتح كانت كما يلي:

"السلطان ابن السلطان الغازي أبو الفتح محمد خان الثاني".



قدِم الفاتح إلى المحكمة يوم المرافعة كفرد من الشعب متواضع بصورة خالية من الفخر. وجلس على كرسي المُتَّهَم.

جلس خضر بيك إلى مكانه وبدأت المحكمة.

كان القاضي يجلس في المحكمة لأنه يقيم العدل، ويقدّم الآخرون إفاداتهم وهم واقفون على أقدامهم. فلما رأى خضر بيك الفاتح جالساً نبهه فقال له:

«أنت في مرافعة جرم، قف على قدميك».

وقف الفاتح على قدميه من أجل الإفادة ونطق القاضي خضر بيك بالحكم، وكان الحكم أنّ الفاتح مذنب والنصراني مظلوم. وقرأ آية القصاص وقرر بأن تُقطَعَ يدُ الفاتح كما قطعت يد النصراني.

تلقّى الفاتح سلطان الدنيا الذي أخضع العالم لسلطانه القرار بسكينة وتوكّل وقال:

«الحكم للشرع الشريف...».

تأثر المعمار النصراني تأثّراً فوق العادة من مشهد العدل العُلويّ هذا. وقال ودموعه منهمرة على خدّيه:

«أتنازل عن حقي، وأقبل بالديّة...».

فلما قضي الأمر على هذه الصورة الجميلة قال الفاتح لخضر بيك:

«أُهنِّئُك لخوفك من الله لا منّي...».

فأخرج القاضي خضر بيك من تحت الطاولة التي يجلس عليها مطرقة وقال:

«لو لم تقبل الحكم الذي حكمت به لضربتك بهذه على رأسك...».

فأجابه الفاتح بأن أظهر له السيف الذي خبّأه تحت قفطانه، وقال له:



«ولو أنك أيضاً لم تحكم بالعدل لضربت بهذا عنقك...».

كما أنّ الفاتح منح المعمار النصراني من ماله الخاص بيتاً.

على إثر ذلك قال المعمار النصراني:

«إن هذا العدل لا مثيل له في العالم، وأنا مسلم اعتباراً من هذه اللحظة...». ونطق الشهادتين.

كان الفاتح يولي العدل والقضاة العادلين أهمية كبيرة، وكان يعينهم دائماً على القيام بالحق والقانون.

ميراث روح الفتح...

كل هذا، وكما أنه يُظهِرُ نضج روح الفاتح، فهو يظهر حمل شعبه اللياقة ذاتها، وذلك استناداً على الحقيقة التي يحملها الحديث الشريف القائل: " الناس على دين ملوكهم".

إنّ عهده أدقُّ وأكملُ مثالٍ على طريقة نظر الإسلام بكليّته إلى الأمانة والإنسان والخلق، وميراثُ استقامة لذريّته وللبشرية، وخصلة عظيمة فقدها الناس اليوم في كثير من الأوقات، ولم يستطع تحصيلها بأي شكل من الأشكال.

كل هذا هو انعكاسات لروح الفتح التي يشتمل عليها قلب الفاتح ومن حوله على المجتمع. لذلك فلم يره العالم يوماً من الأيام محتلّاً. والجميع دعاه بالفاتح. حتى أنّ العبارة التي نطقها نوتاراس الذي هو من أُصلاء البيزنطيين قبل الفتح، والتي جاء فيها:

«لأن أرى العمائم التركية في إسطنبول أحب إليّ من أن أرى فيها قُبّعات الكاردينال»، عبارة شهيرة جداً.



ترك الفاتح خلفه جيلاً مُرَبّىً. فبلغت الحضارة التي أنشأها مع ابنه بايزيد خان الثاني ذُرىً سامقة متميزة غاية التميز. فعكست روحُ الإسلام على الفن. واستمرت روح الفتح. وبفضل هذه الروح كان حفيده السلطان ياووز سليم خان أسداً في جالديران، ووليّاً عاشقاً يقتفي أثر النبي في سيناء، ونفراً متواضعاً في مصر. كان درويشاً يرتعش قلبه ويخاف من تكبّر نفسه، حين يدخل إسطنبول قافلاً من انتصارات عظيمة.

كذلك كان حفيده سليمان القانوني بفضل روح الفتح ملكاً يمسك العالم بقبضته، أي كان سليماناً عظيماً من جهة، ومن جهة أخرى كان رمزاً للرحمة يخشى إيذاء نملة، وكان عبداً تقيّاً عاشقاً لله يسعى للقاء الله بوجه أبيض، فيطلب أن تُدفَن معه فتاوى ما قام به من أعمال.

والآن وارث هذه الروح هو نحن!...

إنّ روح الفتح هذه كانت وسيلة لكثير من الهدايات في قلوب من حملها بحقها. فنتيجةً لتوطين الفاتح العوائل النظيفة المغذاة بروح الفتح في البلقان سالت فيها أنهار الهداية أفواجاً أفواجاً.

وفي هذا الإطار أسلمت البوسنة من تلقاء نفسها.

والآن نحن في هذه الأيام... وهذا وقت تحصيل النتائج ذاتها بروح الفتح ذاتها...

رزقنا الله جميعاً التمسك بروح الفتح.

آمين!...



الكلمة الأخيرة

العشق المجازي–العشق الحقيقي...

إنّ نقطة صدور وورود جميع الوداد والحب الذي يُغشي قلبنا طمأنينة، والمحور الذي ينبغي أن يكون حبنا ووِدادنا هالة حوله هو الحب والمعرفة الإلهيين. لأنّ الحب والمعرفة هما سبب خلقنا وسرّه.

من هذا المنطلق؛

تتحول تجليات الحب في قلبنا إلى وسائل مُبَلِّغَةٍ للوصال العظيم بمقدار توجهنا نحو كعبة الحب والمعرفة الإلهيين. أي أنّ جميع الحب المجازي هو في الحقيقة جسور وُهِبناها تبلّغنا العشق الحقيقي.

لذلك؛

من ليلى إلى المولى...

إنّ امتحانات الحب التي تملأ حياتنا هي في الحقيقة من أجل فتح الباب لتحوّل أحوال العشق المجازي إلى حال العشق الحقيقي. أي أنّ مسار العشق دائماً من ليلى إلى المولى. فلو سار أرباب الحب في هذا المسار حتى نهايته فسيصلون في النتيجة إلى الله. كما أنّ مغامرة حياة مجنون ليلى هي عبارة عن هذا الأمر.

فلو بقي مجنون ليلى متعلقاً بها لصار واحداً من ملايين البشر العاديين، ولضيَّعَ عشقه، ولاندثر كمفلس



ضيّع نعمة الحب التي وهبه الله إياها هباءً. لكنه عرف كيف يجعل العشق البشري معراجاً نحو المعالي. ومن ليلى وصل إلى المولى.

وهذا هو بالضبط المقصد الحقيقي في منحنا جوهر الحب الذي في داخلنا. ولهذا السبب خلق الله ﷻ جميع أحوال العشق البشري واسطة للعشق الإلهي.

كل محبة تكتسب قيمة بالحب الإلهي...

إنّ حب الإنسان لولده وحبه لعائلته أو حبّه للأمور الأخرى كالمال والملك والمنصب يكتسب قيمة عندما يكون واسطة للاقتراب من الله ﷻ. لأنّ جميع الحب نشأ عنه سبحانه. فإذا كان الحب الإلهي له حيّاً في القلوب فإنّ المحبات الأُخَر تتغذى منه وتحافظ على حياتها بشكل سليم ونافع.

وينبغي أن نذكر أنّ جميع الانتصارات المادية والمعنوية هي دائماً نتيجة هذا العشق الإلهي. وكذلك جميع الانتصارات المعنوية وفتوحات القلوب المادية والمعنوية هي دائماً فضل هذا العشق الإلهي وإحسانه وهداياه.

ومن هذا المنطلق يقول حضرة مولانا:

«اعلم أنّ من لم يُفعَمُ صدره بالعشق الإلهي والمحبة مسكين، وربما هو أسفل من الحيوان. فحتى كلب أصحاب الكهف بحث عن أهل العشق فوجدهم، وبلغ صفاءً روحياً وفاز بالجنة فانياً في خاصّة العباد أولئك».

صورة العشق الإلهي...

يجد الناظرون إلى الحياة والكون بعين البصيرة جميع الأشياء والكائنات صورة للعشق والحب والإلهيين. فيشاهدون أنّ كل شيء ظهر إلى الحياة من العشق والحب. ويدركون أنه لولا الحب الأزليّ لما كان الكون. ويعرف أولئك العارفون أيضاً أنّ ظهور الكائنات نتيجة لذلك الحب الأزلي.



لهذا السبب أهدي هذا الكون لنور الوجود سيدنا محمد المصطفى ﷺ. وقد أُعِدَّت هذه الدنيا التي سيعيش فيها ابن آدم كعالم مزين ومزخرف احتراماً له ﷺ.

لماذا أرسل الله تعالى الإنسان إلى هذا العالم المزين إلى هذا الحد؟.

كان يمكن لهذه الزينة وهذه النعم في الدنيا أن تكون أقل مما هي عليه بكثير. لكن الله تعالى يريد لعبده أن يدخل الجنة بأن يعرف ربه بيقين وهو في حال من العشق ضمن فيوض القدرة اللامحدودة. ويرغب في عودة آدم عليه السلام إلى الجنة التي خُلِقَ فيها. من أجل ذلك جهّزَ العالمين بالزينة والجمال الجاذبين إلى القدرة والصنعة الإلهيتين وسخَّرَها لأمر ابن آدم. فكل ما في الأرض والسماء من يوم خلقه مُعَدٌّ للإنسان.

يقول سعدي الشيرازي:

«إنّ ورقة واحدة على الأشجار هي ديوان معرفة الله بالنسبة للقلوب العارفة. أمّا بالنسبة للغافلين فكل الأشجار ليست مجرد حتى ورقة واحدة».

وطبعاً حتى تدرك هذا لا بد من انكشاف القلب في جو المحبة والمعرفة الإلهيتين. فيجب علينا أن نفتح جميع نوافذ الحب في قلوبنا على العشق الإلهي. ويجب أن نتخلص من الظلال الفانية والإضافية ونبلغ الحب الباقي والحقيقي. كما أنّ أهم وظائف الأنبياء هي تزكية القلوب، ثم تعريفها بمعرفة الله عز وجل وترغيبها إليها.

فكما بيّن القرآن الكريم، فقد أُمر هؤلاء الرسل المباركين الذين هم شخصيات مثالية للأمم تقتدي بهم بوظائف ثلاث هي:

١. قراءة آيات الله وتبليغها.

٢. تزكية النفوس وتنقيتها.

٣. تعليم الكتاب والحكمة.



إنّ القلوب النقية التي هي نتاج هذه التربية النبوية تسلك مسلك التفكر بجميع أسرار الكون من دقيقه إلى عظيمه، والتعرف على الصنعة الإلهية العظيمة القائمة في ذاته. فيغدو بذلك كل نَفَسٍ يتنفّسه يقرّبه من الله تعالى.

يقول الله تعالى من أجل هؤلاء العباد في كتابه الكريم:

﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ** ...﴾ [الجاثية: ١٣]

نقطة رُسُوِّ مغامرة الحب...

إنّ الواجب علينا باختصار هو رؤية جميع هذه النِعَم بل الأهم من ذلك رؤية واهب هذه النعم، وشكره ضمن شعور الحب الجيّاش الذي يزداد مع الأيام. أي أنّ الأصل هو الولاء والحب والعبودية لا للنعم الموهوبة لنا في الأرض والسماء إنما لصاحب تلك النعم.

تأتي ليلى المجنون بعد سنوات فلا يعبأ المجنون بها فتسأله ليلى:

«ألم تكن أنت من سكن البراري من أجلي؟».

فيجيبها المجنون:

«لقد زالت ليلى التي هي ظل زائل وذهبت».

غدت ليلى هنا في مكانة الدرجة الموصلة إلى الحب الإلهي بعد أن كانت يوماً غاية حياة المجنون. أي بعد أن وجد المجنون مكانه في عالم الحب الإلهي الذي بحث عن حقيقته انتهى دور ليلى في حياته.

إنّ ليلى من هذه الجهة، وباعتبارها بداية في طريق الحب، هي أفق عشق إلهي يُحيل القلوب مجنونة وينهي الإرادة الطبيعية. وبمقدار ما يتحقق ذلك ترسو مغامرات الحب التي تبدأ بالـ "ليلى" ـيات عند المولى.



هذه هي وظيفة ليلى وحقيقتها في طريق الحب. فهي عند النظرة الأولى إنسانة عاديّة كغيرها من الناس. لكنها جعلت عاشقها أسطورة على الألسن يُدعى بالمجنون بعد أن كان اسمه قيساً.

علينا أن ننظر في أنّ ليلى المعشوقة قد جعلت عاشقها متصفاً بأحوال معينة. فإذا كان المعشوق سيدنا محمد المصطفى ﷺ، فمن يدري ما هي الأحوال التي ستلازم العاشق، وعندما يكون المعشوق هو الله ﷻ فمن يدري إلى أي منظومات الأسرار سيتحول حال العاشق...

فالحب إذاً هو القدرة على بلوغ هذه الأسرار والأحوال. وهذه هي المكانة التي بلغها المجنون.

ليست جرّة الفخَّار بمهمة إنما المهم ما بداخلها...

قال بعض الغافلين الذين جهلوا حقيقة المجنون وأسفوا لحاله:

«أيها المجنون آما آن لك أن تترك ليلى؛ فهناك من هنَّ أجمل منها!...».

فكان جواب المجنون بليغاً للغاية إذ قال:

«إنّ جسدنا المادي وصورنا وأشكالنا وهيئاتنا هي كجِرار الفخّار. والجمال هو الشراب الإلهي الذي بداخلها. اعلموا أنّ الله تعالى يسقيني هذا الشراب من جرّة ليلى. إنكم تنظرون إلى ظاهر الجرّة. لكنكم تجهلون ما بداخلها! لأنّ شراب الجمال الإلهي الذي بداخلها لا يبدو لمن حُرِمَ الروحانيات. فالجمال الذي بداخلها كالنساء العفيفات الشريفات لا ينظرن إلى غير سيدهن ولا يَظهرن لغيره. "فمن استطاع أن يكون عين الرب الناظرة وأذنه السامعة وقلبه العاقل فسيألف هذا السر. لأنّ ما سوى الله في نظره قد اضمحل حتى انعدم"».



من أجل ذلك يقول الشيخ سعدي رحمه اللهُ:

«عليك أن تنظر إلى جمال ليلى من نافذة قلب المجنون».

أي أنّ القدرة على رؤية ليلى الحقيقية ومشاهدة هويتها الحقيقية إنما هو مرتبط بالقدرة على أن تكون عاشقاً وفيّاً مثل المجنون. وإلا فالعيون لا ترى شيئاً سوى الصور. أي أنه وحسب حال القلب، منهم من يرى الزخارف التي على الستار، ومنهم من يرى الأسرار القابعة خلفه. ومن هذا المنطلق، فإنّ تجليّات المشاهدة تختلف من شخص لآخر.

يقول حضرة مولانا:

«إنّ مظهر كل نعمة ومهنة هو بالنسبة للبعض جهنم، وللبعض الآخر جنة...».

«لدى جميع الموجودات التي ترون، سواءً كانت بشراً أو حيواناً أو نباتاً أو جمادا، ثمة غذاء فيها وثمة سُمٌّ. لكن لا يستطيع رؤية ذلك كل أحد».

«الجرة في الميدان، وظاهرة للجميع، لكن الإكسير الذي فيها خفيٌّ، فلا يعرفه إلا من تذوّقه».

«كانت صورة يوسف تشبه الكأس، فكلما شرب أبوه من ذلك الكأس، الحبَّ الباعثَ على النشوة، كان السرور يتملّكه. أمّا إخوته فكانوا يحتسون السمَّ من ذلك الكأس، وكان يزداد حَنَقُهُم وحقدهم على يوسف "أي أنّ العيون النورانية كانت ترتشف الشفاء من كأس يوسف، بينما كانت العيون النفسانية لا تشرب إلا السُمَّ"».

«كان قميص يوسف أمانة في يد إخوته. وكان أخوه مكلّفاً بالذهاب بالقميص وتسليمه إلى سيدنا يعقوب. أي أنّ ذلك القميص كان في يد أخيه



كجارية كريمة في يد تاجر العبيد، ولم تكن تلك الجارية هي لتاجر العبيد، بل كانت ملكاً لغيره».

«لقد شربت زليخة من كأس يوسف إكسيراً مختلفاً "شربت إكسيراً نفسانياً" وابتلعت مخدّراً من نوع آخر من خلال عشق دنيوي».

«إنّ شراب الحب داخل جرة الصورة من عالم الغيب. والجرة من هذه الدنيا. فالجرة في الميدان أمّا ما بداخلها فهو شديد الخفاء، لكنه عيان لأهله».

«إنّ هذا الشراب المعنوي الحسن، هذا العشق الإلهي؛ لا يسمح لمن حُرِمَ من الحب والأسرار أن يتذوّقه. "فمن كان قلبه كالسجن فلا يستفيد من نور العشق". ومن امتلأ قلبه بالفساد والشهوات فلا يستطيع أن يطال هذا السر المعنوي. "لأنّ قلبه أعمى". لكن هذا السر جليٌّ كالبدر في تمامه لمن ألف هذا العشق وخضع له».

لا يمكن لمن تعلّقَ بالمادة أن يعاين المعنى...

لما رُمِيَ سيدنا يوسف ﷺ الذي يحمل النور المحمدي في البئر من قبل إخوته لم يهلكه الله ﷻ في تلك البئر. فقد أدلى مسافر ظمئٌ دلوه في البئر التي ظن وجود الماء فيها. فلما خرج سيدنا يوسف الذي تمسك بالحبل مع الدلو نسي المسافر عطشه. فقد رأى أمام ناظريه جمالاً مذهلاً للعقول، وغشيته الدهشة. لكن المسافر الغافل لم يستطع رؤية الجانب المعنوي لهذا الجمال. فتعلق بمادته وخسره من يده بأجرة دنيوية زهيدة بشكل غافل. تماماً كمن بقي متعلّقاً بـ "الليلى" يات ولم يستطع بلوغ الوصل الإلهي...

مع أنّ الرجل -الذي أدلى دلوه في البئر طلبا للماء- نسي الماءَ والبئر عند رؤيته جمال سيدنا يوسف؛ كان فرصة عظيمة له. كان ينبغي له في هذه الفرصة



أن يكون متيّماً بالجمال، وأن يحرق في تجلي العشق الإلهي جميع الشوائب الإضافية والفانية كحال العادية تحت الشمس. لكن وللأسف، ذلك الرجل الأبله قليل العقل، الشره للدنيا، اغترَّ بالنفع الدنيوي الذي سيجنيه من سيدنا يوسف، وضيَّعَ الغنيمة المعنوية التي اغتنمها هباءً.

وما أجمل البيت الذي يشرح فيه مولانا هذه الحال إذ يقول:

«إنّ من منح قلبه للدنيا وللمظهر الخارجي هو يشبه تماماً صياداً يصيد الظل، فكيف للظل أن يكون ملكه؟».

«كما أنّ أحد المعتوهين أراد أن يتمسك بظل الطائر لئلا يطير. لكنه وحتى الطائر الذي على الغصن تعجب لذلك».

والنتيجة، أنه في الحب الحقيقي يجب ألا يحجب شيء بين المُحِبّ والمحبوب، وأنه على العاشق الحقيقي أن يرتبط بمعشوقه من خلال حب لله لا عوض فيه ولا غَرَض.

سِرُّ ولاية الله ﷻ...

كان إبراهيم عليه السلام رمز العشق الإلهي سيُرمى في النار بالمنجنيق. في تلك الأثناء، هرعت الملائكة لنجدته، فقال جميعهم لسيدنا إبراهيم عليه السلام وعلى رأسهم جبريل عليه السلام: «ماذا تريد أن نفعل يا خليل الله؟». فأجابهم إبراهيم عليه السلام، وهو بحال راضٍ عن ربه فيه متوكل عليه: «لا تدخلوا بين الخليل وخليله!».

إنّ درجة المحبة والمعرفة هذه لتسامي بالعبد منازل الملائكة. لأنه بفضل هذين السرين، أي بفضل المحبة والمعرفة، يستطيع ابن آدم أن يتجاوز بنجاح جميع الآلام والمشاكل والامتحانات. فالمحبة والمعرفة إكسيران إلهيان يحولان أقسى الآلام وأَمَرَّها ألذَّ العسل وأحلاه.



ولأجل ذلك، فقد صبر جميع الأنبياء بكامل الرضا على ما نالوه من الأذى من قبل أقوامهم. وبهذا بلغوا رتباً سامقة لا يمكن بلوغها.

وقد كان أكثر من عانى ونال من الأذى من بين الناس والأنبياء سيدنا محمد ﷺ، لكنه في الوقت ذاته نال أرفع الدرجات، ونال منزلة إمام الأنبياء وحاز وصف "حبيب الله".

كل هذا هو تجليات السمو والعمق في المحبة. فمن حاز شيئاً من هذه المحبة حلّق نحو المعالي مقتفياً أثر الرسول ﷺ. لكن من لا محبة عنده فحتى العسل يؤثر فيه تأثير السم.

من هذه الجهة؛

ما بدا موتاً للغافل هو وصل للعاشق...

إنّ ماهية جميع الحوادث والحقائق تختلف تبعاً لحال من عايشها وعاينها. فالنَّفَسُ الأخير هو بالنسبة للناظرين من الخارج تجلٍّ من تجليات الموت. لكنه لحظة وصال بالنسبة للعارفين والعاشقين. فها هو حضرة مولانا يعتبر تلك اللحظة كلحظة زفاف العروس، ويوصي من بقي خلفه منتشياً بالوصال بقوله:

«إذا حُمِلتُ على النعش يوم موتي فلا تظنّن أنّ عندي هم الدنيا وغمها، ولا تعتقد أني حزين على فراقها».

«احذر أن تبكي على موتي أو تقول "وا أسفاه"، فإن أنا اتبعت نفسي في حياتي ووقعت في شراك الشيطان فذلك هو وقت الحسرة».

«لا تقل إذا رأيت جنازتي "حان الفراق" واعلم أنّ ذلك الوقت ليس وقت فراقي بل هو وقت لقاء (ربي) أي وقت وصاله».



«إذا وضعوني في قبري فإياك أن تقول "وداعاً" لأنّ القبر ستار العالم الآخر وستار مقام الجنات».

«أرأيت الغروب والزوال، عليك أن ترى الشروق أيضاً. تخيل أنّ الشمس والقمر أفلا، أيفقدان من نورهما شيئاً؟».

«حتى لو بدى لك أنّ هذا الأمر غروب، فهو في الحقيقة شروق، والتقاء بالحياة من جديد "والأبدية منها أيضاً"».

«حتى لو بدا هذا القبر "الذي تجده إذا نظرت إليه من الخارج مجرد حفرة سوداء في جوف الأرض" كسجن للإنسان وحبس له، إلا أنه في الحقيقة المكان الذي تتخلص فيه الروح من (ابتلاءات الدنيا ومصائبها) وتجد فيه استقرارها».

«أي بذرة زرعت في التربة فلم تنبت ولم يظهر برعمها حين يأتي وقتها؟ فلماذا تقع في الظن السوء حيال بذرة الإنسان؟».

«أي دلو غُطِسَ في الماء فلم يخرج مليئاً؟ فلماذا يضام يوسف الروح في البئر ولماذا يصرخ؟».

«عندما تغلق فمك عن هذه الدنيا فافتحه للعالم الآخر فسيغدو ضجيجك وشكواك في عالم اللامكان!».

لقد عاش حضرة مولانا حياته ضمن هذه الحال الروحية، وحلّقَ نحو جو الوصال بالدستور القائل إنّ العيش الحقيقي هو عيش الآخرة. ويعبر عن هذا التجلي بقوله:

«كنت ميتاً فحييت، كنت باكياً فضحكت، جاءت دولة العشق فوجدت دولة الخلد...».



إنّ أعظم حال ينبغي أن تذوب في طريق العشق الإلهي هي حال الحياة بعد الموت من خلال العشق. وجميع مقصد العبودية هو التقرب إلى الله بالسجود ضمن هذه الحال. إذاً:

أكبر امتحاناتنا...

أكبر امتحان لنا في الدنيا هو امتحان المحبة والمعرفة. والناجحون في كلا الامتحانين على أفضل وجه يتجاوزون بسهولة جميع الامتحانات والآلام والمشقات والابتلاءات والمصائب. فتغدو دنياهم وآخرتهم جنة وصال. ويعيشون دائماً بفيض وبركة معية الله ﷻ.

والنتيجة:

تنمو البذرة في التراب...

إنّ جميع العلوم الكتابية والظاهرية تشبه في الحقيقة البذور. فإذا لم تُزرع البذور في التراب وبقيت في المخازن فستبقى مجرد بذور حتى لو مرت عليها عشرات السنين. علاوة على أنها تصبح أحياناً غذاءً للحشرات.

والأمر كذلك بالنسبة للعلوم الكتابية والظاهرية إذا بقيت هذه العلوم بين السطور وعلى الرفوف. بالمقابل، فالبذور المودعة في جوف التراب تنمو تبعاً لصفاتها وتصبح غرسة وتترعرع. حتى أنّ بعضها يصير شجرة دلب عظيمة.

كذلك تماماً بذور العلم والعرفان والعشق الإلهي المودعة في جوف القلب، تجعل القلوب حدائق معنويات زاهية، فيجني أصحابها في كل موسم من مواسم حياتهم الثمار، ولا ثمار أغلى من تجليات الكمال.



اللهم ارزقنا جميعاً أن نعيش بهذه التجليات في رياض المحبة والمعرفة، وزيّن أعمارنا بمحبة ومعرفة حقيقية تقلب جميع آلامنا لذات وجميع حسراتنا صفاءات، وجميع سيئاتنا حسنات، وتحيل بُعدنا وشوقنا قرباً، وفناءنا وصلاً أبدياً، وبلّغنا الدخول عليك بالعشق المحمدي، واجعلنا يا ربي محبين ومحبوبين وسعداء!...

آمين!...





فهرس



القسم الرابع ـ الشخصية

القسم الخامس ـ الفتح المبين





ملاحظات



ملاحظات

ملاحظات

